سلمان العودة



الإسلام اليوم



سلمان العودة



في البدء

كنتُ وأنا صغير أشعر بتلك المسافة الهائلة وكومة السنوات المترامية بيني وبين آدم عليه السلام، لدرجة الشعور بشيء من الانفصال عن أُبُوَّتِه..

كان هناك في البعد قصيًّا؛ معرفةً ووجدانًا وشوقًا، ليس في ذاكرتي منه سوى الخطيئة والهبوط، وليس في قلبي له سوى عتب هامس:

لمَ أخرجتنا من الجنة..؟!

كان بالإمكان أن نكون هناك.. أن نقطف من الجنة ما نشاء..ألَّا نودِّع حبيبًا، ولا نلوِّح لراحل، ولا نقيم مجالس العزاء..

كان بالإمكان ألَّا تكون تلك الحروب، وألَّا يموت رضيع في حضن والدته، ولا يلقي البحرُ بجثة... ولا أن يسقط البناء على طفل ليخنق صوته وبكاءه..

كان بالإمكان ألَّا تبكي فتاة على خيانة، ولا فقير على فقر، ولا مريض على وجع، ولا مشرَّدٌ على قطعة كرتون..

كان بالإمكان... أن نكون هناك فلا نجوع فيها ولا نعرى، ولا نظمأ فيها ولا نضحى .. كما كان هو ذات يوم..

لو أن آدم لم يقترب أكثر من الشجرة.. لو أن آدم كان صلبًا أمام وسوسة عدوِّه.. لو أن آدم أخذ بيد حواء إلى الطريق الآخر..

oooo

مع كل إحباط ووجع ألقي اللَّوم خلف كومة السنوات تلك في جَعْبة آدم... مرة ألقيتُها فوجدتُها ممتلئة بعتب العالم كلِّه، وهذا ما جعلني أصعد تلك السنوات لأرى.. لأقترب أكثر.. لأصل إليه..

اقتربتُ ولم أصل، طُفْتُ من بعيد حول شجرته، رأيتُ روحه وبقاياه، أرضه التي هبط إليها، صغاره وزوجه.. آثار أقدام الخطيئة التي علقت في الأرض..

اقتربتُ أكثر فكان أبي..

شعرتُ بتلك المظلومية المكوَّمة فوق قبرك يا أبي، كنتُ عاجزًا عن الدفاع حينها..

كتبوا عنك، بحثوا عن ملامحك، عواطفك، جنتك، زوجك، صغارك، حتى الغراب الذي بحث حول جثة ولدك..

تجاوَزَتْ قصتُك الكتب الإلهية إلى الألواح السومرية والأساطير البابلية والمخيال الشعبي، وكثرت وتشعَّبت حتى ضمرت وتضاءل الإحساس بها..

أما أنا فلا زلتُ أقترب حتى طُفْتُ بالجنة معك، وصافحتُك، ورأيتُ أمي حواء، واقتربتُ من شجرة الخطيئة، وهبطتُ معكما، وطُفْتُ الأرض خلفكما، وتترَّستُ خائفًا خلف صخرة أرقب ولديك والغراب..

اقتربتُ أكثر فرأيتُ عينين ما انطفأتا عن البكاء والندم، ورأيتُ يدين ما كلَّتا عن عمارة الأرض، ورأيتُ رضًى بما قُدِّر لك، ورأيتُ كم كنتَ تحنّ لأطفال لم يأتوا بعد...

ربما رأيتني يا أبي هناك بين الملايين الذي شهدوا لله بالوحدانية حين أخذ الله ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

أكتب اليوم هذا الكتاب عنك بشعور الصغير لأبيه.. العائد إليه..

أستقرئك كلمات عذبة نزلت على خير أبنائك محمد ﷺ، وأخبارًا كان يتحدَّث بها عنك، حديث الابن المحب لأبيه..

كانت هُوّة السنوات بيننا عظيمة..

ما أقصر السنوات بين الأب وابنه..

كانت السنوات وكنتَ أبي..

الرياض

١ محرم ١٤٣٨هـ

٣ أكتوبر ٢٠١٦م

فهرس



طين



ابن التراب !

في قصة الإسراء والمعراج عرض جبريلُ عليه السلام على النبي ﷺ إناءً من لبن وإناءً من خمر، فاختار النبيُّ ﷺ اللبنَ، فقال جبريلُ:

«أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ»[1].

الفِطْرَة جاءت مع الإنسان الأول، وما يشرب الإنسان أو يأكل يؤثِّر في مزاجه وشخصيته.. فكيف بالمادة الأصلية التي خُلق منها، ومنها تكوَّن لحمه وعظمه وعصبه وأعضاؤه (الطين)؟

الخلق من طين معنى شائع في الكتب السماوية والثقافات البشرية، وثَمَّ أدلة وجدانية في داخلنا تعبِّر عن طينية الإنسان، يلمسها المرء في أنفاسه ومشاعره وأحاسيسه وتقلُّباته..

كنا في ظهر ذلك الرجل الأول، ومررنا بمراحل وآلام وأهوال حتى وصلنا هنا.. ولا زالت الرحلة مستمرة.. بمقدورنا إذًا أن ننسى آلامنا فهي عابرة. أجيال بعد أجيال مرَّت على هذه الأرض وأنت ما أنت فيهم إلَّا

ومضة قصيرة...

أجد مراحل الطين في ذاتي؛ حين تمر بي تحولات الفرح والحزن، والسعادة والشقاء، والسكون والثورة، واليقين والشك؛ أتذكَّر الطين اللَّازب، والصَّلصال، والحَمَأ المسنون.. بل أتذكَّر الماء الذي عُجن به الطين.. وماء الأرض فيه الحلو العذب الفرات، وفيه الملح الأُجاج، وفيه المُر..

يكشف ذلك التعبير النبوي: «**لِكُلِّ عَابِدٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ**»[٢].

نشعر أحيانًا بالشدة والاندفاع، ونشعر أحيانًا أخرى بالضعف والفتور.

بيت من الطين.. ذاك هو الإنسان، وبيوت الطين تُذكِّر بالقرية والبساطة والعلاقات الحميمية الطيبة.

- سألتُ صديقًا عن شخص ما، فقال: لقيته بالأمس، وهو غريب الأطوار، تراه اليوم مقبلًا منبسطًا إليك، ثم تراه من الغد وكأنه لا يعرفك! إنه متقلِّب المزاج!

حتى أنا مثله، متردِّد بين الحماس والفتور، والإقبال والإدبار!

القلب يحب حتى يذهل، ثم يُعرض، ويُقدِم ثم يُحجم، ويتسامى ثم ينحط!

- مراحل الطين تمر بي جميعها، وأنواع الماء، أجد الحَمَأ المسنون في مسام الجسد فأحتاج لمعالجته؛ لأشعر بنشوة النظافة ونفثة العطر.

- وأجده في مسام الروح فأحتاج للتهليل والتسبيح والذكر والاستغفار؛ لأمحو لحظة غفلة أو شرود أو استجابة للنفس الأمارة.

تقع لي مشكلة مع متابع لا يراني إلا متفائلًا مبتسمًا سعيدًا حتى ظن أني من طينة غير طينته..كلا؛ ولكني أظهر الحسن وأستر القبيح!

أهذا خطؤه؟ أم خطئي؟ أم خطؤنا معًا؟

- الطين خصب قابل للإنبات.. تكون فيه الورود والأزهار والأشجار

النافعة، وتكون الأشواك والأشجار السامة والمخدِّرة.. وقد تتجاور هذه وتلك، هكذا نحن فينا التقوى والفجور، وفينا المؤمن والكَفُور.. الإنسان خليفة في الأرض، فأن يكون مخلوقًا من طينها فذلك أدعى لنجاحه في استعمارها، والغوص في أسرارها، ومعرفة قوانينها، والضرب فيها.

- العمل والكد والكدح و(عرق الجبين) ليس عيبًا.. إنه سر التميز والإبداع.

الطين يمنح المرونة والتشكّل والتكيف مع الظروف والمتغيِّرات المناخية والاجتماعية، بخلاف ما لو كان الخَلْق من القش أو من الصخر، الصخر قاس لا يلين، والقش متفرق لا يلتئم!

الطين يمنح التنوع، الأبيض والأسود وما بين ذلك، والطيب والخبيث وما بين ذلك، واختلاف الطبائع والميول يثري الحياة ويوسّعها.

عن أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**»[٣].

- كانت العرب تقول: لا تكن يابسًا فتُكسر، ولا ليِّنًا فتُعصر.

- والطين كذلك جمع بين الليونة والقوة.

الطين يوحي بالنهاية: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.. والنجاح دومًا ممنوح لأولئك الذين يبدؤون العمل وعيونهم على النهاية: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**».

- يبقى التراب أصلنا ولو وضعنا قباب الذهب فوق شواهد قبورنا، وأصررنا على تجاوز البساطة حتى بعد موتنا!

أيها الحزانى: أمواتكم محفوظون في تربتهم؛ التي خُلقوا منها وإليها

عادوا، وسوف تلقيهم الرحم مرة أخرى لميقات يوم معلوم..

إذا جاز التعبير عن الخَلْق الأول بالولادة من الأرض، فالأرض هي الأم الرَّؤوم الصابرة المتحمِّلة لكل عبثنا وشقاوتنا، بل وحماقاتنا الكبيرة.

هي أمنا وأصلنا، فلا غرابة أن نتأذَّى يوم أن يستشري على ظهرها الفساد والظلم!

حين نقترب من التربة التي وُلدنا فيها ومنها وعليها نشعر بالدفء والعافية: **«تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى بِهَا سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا»**.

وحين نأكل منتجاتها الفطرية الطبيعية السالمة من الدَّخَل نكون أقرب للشفاء والصحة..

ولا غرابة أن نشعر بالخوف إذا ما فارقناها فخضنا لُجج البحار أو صعدنا أقطار الفضاء!

نحن أبناء التراب نطؤه بأقدامنا لنتعلم التواضع ونفي الكِبْر والخُيلاء.. وهل يتكبَّر الإنسان إلا ساعة ينسى أنه طين؟!

نَسِيَ الطِّينُ سَاعَةً أَنَّهُ طِيْنٌ ... حَقِيرٌ فَصَالَ تِيْهًا وَعَرْبَدْ

وَكَسَى الخَزُّ جِسْمَهُ فَتَبَاهَى ... وَحَوَى المَالَ كِيسُهُ فَتَمَرَّدْ

يَا أَخِي لَا تَمِلْ بِوَجْهِكَ عَنِّي ... مَا أَنَا فَحْمَةٌ وَلَا أَنْتَ فَرْقَدْ

أَأَمَانِيَّ كُلُّهَا مِنْ تُرَابٍ ... وَأَمَانِيكَ كُلُّهَا مِنْ عَسْجَدْ؟!

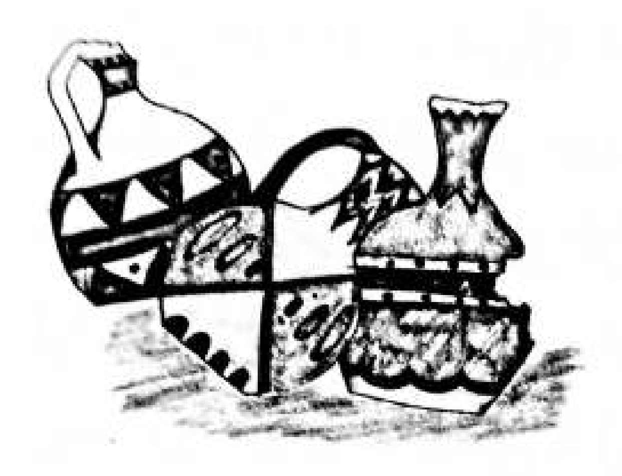
وَأَمَانِيَّ كُلُّهَا لِلتَّلَاشِي ... وَأَمَانِيكَ لِلْخُلُودِ الْمُؤَكَّدْ[٤]؟!

مهما صعدنا للفضاء، وترقَّينا في المعارف، ودارت رؤوس بعضنا بالكِبْر المعرفي أو المالي أو السلطوي، يظل التراب يطوِّقنا ويجرنا إليه، ويعيدنا لأصلنا الأول!

- حين تقارن، قارن أحسن ما فيك بأسوأ ما فيك لترتقي وتسمو، ولا تقارن أحسن ما فيك بأسوأ ما عند الآخرين ليظهر تفوقك ونقصهم!

الذين لا ينظرون إلا للجانب السيِّئ فيك يشبهون صفة الشيطان يوم نظر إلى أدنى المراحل التي مر بها آدم، مرحلة الحَمَأ المسنون المنتن: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

oooo



تمثالٌ من صَلْصال!

صانعُ الفَخَّارِ يَلْقَى في صُنع الجَرَّةِ الصغيرة عناءً كبيرًا، ثم يبيعها لشابٍ عابثٍ ويقول له:

- ستكون مسرورًا من بضاعتي، إنه عمل تمَّ في وجداني، وسيخدم أبناءك وأحفادك!

يمضي الصانع وزملاؤه في طريقهم، فيشاهدون مجموعة من الشباب يحملون جِرَار الفَخَّار الجميلة، التي اشتروها منهم، ثم يضعونها على هاوية جبل، ويرشقونها بالحجارة، وكأنهم تراهنوا أيُّهم يكسر عددًا أكبر منها!

تكسَّرت الجِرَار وسقطت في الهاوية، والشباب يرقصون ويضحكون!

يركض صانعو الفَخَّارِ إلى الشباب بغضبٍ وهم يصرخون:

- ماذا تصنعون أيها الأشقياء؟ أنتم لا تُقدِّرون قيمة الكنز الذي في أيديكم!

- ولماذا تغضبون؟ لقد بعتم بضاعتكم وأخذتم ثمنها، ونحن

أحرار فيما نفعل فيها.

- ولكن هذه الجِرَار عزيزة علينا، وقد كلَّفتنا جهدًا لتصبح هكذا، ووضعنا في طينها كثيرًا من جهدنا، وبعض أرواحنا حتى أصبحت شيئًا جميلًا مفيدًا، وها أنتم يا قليلي الإيمان تحولونها إلى شظايا وتعبثون بها!

قرأت هذه القصة الجميلة في رواية (بلدي) لرسول حمزاتوف.. وبالمناسبة يوجد في «اليوتيوب» مقطع له في نهاية عمره انبجست فيه روحه الآدمية التي تجمع الخطيئة والندم عليها، فهو في المقطع يعلن ندمه على أخطائه وزلاته بخشوع وانكسار، وفي آخر مقابلاته كان يقول: حياتي كلها كانت مسوَّدة تحتاج إلى تصحيح!

وجدت في القصة معنى رمزيًّا يشجب الاعتداء على الحياة الإنسانية من تجار الحروب وقتلة الشعوب؛ الذين يكسرون الفَخَّار بعدما نُفخت فيه الروح.. فينالون سخط الله ومقته ولعنته وعذابه.. فلا تقتلوا أنفسكم.

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾.

الصَّلْصَال هو: الطين اليابس؛ الذي يُسمع له صوتٌ إذا ضُرب، وهو يشبه الفَخَّار الذي تُصنع منه الجِرَار.

أواني الفَخَّار تتميَّز بحفظ الماء وتبريده وإحيائه، نعم إحيائه، فبواسطتها يتسلل الهواء لأعماق الماء، ويمنحه معنى جديدًا ومذاقًا حيًّا، للماء إذًا حياة!

يروي الشَّهْرَسْتاني في قصة محاكمة سُقراط وإعدامه: أن سُقراط حكيم زاهد، وأنه لمَّا أراد المرجفون إخافته بأن المَلِك يتوعَّده بالسجن ثم الإعدام، قدَّم وصفًا حكيمًا للإنسان حين أحال تصريف أموره وخلقه لله وحده، فكان يذكر لهؤلاء المرجفين أنه كالماء في جرَّة، وأن المَلِك قد يستطيع كسر الجرَّة، ولكنه لا يستطيع كسر الماء، فيذهب الماء إلى أصله، إلى البحر![*].

ولعل هذا من معاني قولنا حين المصائب: «إنا لله وإنا إليه راجعون».
جسد الآدمي وعاء أو منجم صغير مكون من (٢٣) عنصرًا موجودة في الأرض.
عبَّر النبيُّ ﷺ عن مرحلة ما قبل الروح حين قال: «**إِنِّي عَبْدُ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ عليه السلام لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ**»(٦).
هذا التمثال الآدمي المُنجَدِل على الأرض تشكَّل من:

- تراب
- عجن بالماء فصار طينًا
- ثم تُرِكَ ما شاء الله من الأزمنة حتى أصبح طينًا لازبًا ملتصقًا بعضه ببعض.
- ثم تُرِكَ ما شاء الله حتى أصبح حَمَأً مسنونًا منتنًا أسود، وربما بدأت تظهر عليه بعض ملامح التكوين الإنساني.

ثم تُرِكَ ما شاء الله حتى صار صَلْصَالًا كَالْفَخَّار..
قد تكون أربع مراحل، أو خمسًا، أو ثلاثًا، محل بحث وتردد، وهي تشبه مراحل الجنين في بطن أمه، وكل مرحلة أربعون يومًا، كأيام الجنين أيضًا، ولعلها من أيام الله، فيكون ثمَّ تفاعل كيميائي استغرق من السنين الطوال ما الله به أعلم حتى تتخمَّر هذه القبضة الطينية وتُشكِّل الحمض النووي، ثم الخلايا الحيَّة.
عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ**»(٧).
دوران إبليس حول الجسد الآدمي كان تفحُّصًا، خرج منه بملاحظة أنه

يشتمل على جوف، ويحتاج للطعام والشراب، فهو إذًا غير متماسك ولا قادر على التحكم التام في نفسه وضبطها.

وعن ابن عباس، وابن مسعود وغيرهما رضي الله عنهم أنهم قالوا: «تَرَكَهُ أربعينَ ليلةً أو أربعينَ سنةً...».

ويجوز أنَّ كل مرحلةٍ أربعون سنة.. وفي ذلك روايات متكاثرة؛ ذكرها الطبري، والسيوطي في «الدر المنثور»، وغيرهما.

وحمل جَمْعٌ من المفسرين صدر «سورة الإنسان» على هذا المعنى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾، لم يكن شيئًا البتة، كما قال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[8].

ثم كان شيئًا غير مذكور.

ثم ترقَّى في المراحل والفضائل والكمالات.

القرآن ليس كتابًا في العلوم الطبيعية حتى يرسم التفاصيل، ولكنه يحدِّد الأُسس والجوامع لمقاصد إيمانية وتربوية وحضارية، ويرسم طريق البحث العلمي القاصد ومنهجه.

ما أغفله القرآن فإغفاله رحمة، وما ذكره فذكره حكمة.

والحقيقة لا تزعج أحدًا، وهي قرين الوحي، الذي يزعج ويَضُرّ المعرفةُ الناقصة المغرورة، أو الوهم والجهل الذي يظنه صاحبه علمًا.

القرآن يأمر بالسير في الأرض، والبحث عن أسرار الخليقة الأولى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾.

من الاستجابة للأمر الإلهي بالسير والنظر أن يتخصَّص علماء في دراسة الإنسان ونشأته الأولى، ويكرِّسوا وقتهم وجهدهم في مقاربة الحقيقة، بعيدًا عن التسليم المتسرِّع لنظرية، أو التسليم المتسرِّع لمألوف غير مُمَحَّص.

- والنظر في الهياكل والجماجم البشرية المتقادمة مدرج للمعرفة والكشف، ولا زال العلم يحبو ولم يصل بعد إلى يقين، ولا قال كلمته الأخيرة في كثير من المسائل النظرية.

خلق آدم الذي اقتص الله خبره ومراحل تكوينه في القرآن من الخبر القطعي اليقيني، وهو فوق النظريات وقبلها وبعدها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

وربما كانت ثقة بعض المسلمين المعجبين بالنظريات الأحيائية أعظم من ثقة علماء الغرب؛ الذين تقتضي تقاليدهم المعرفية الهدوء والتأنّي، وطرح الاحتمالات، وإبعاد الثقة الأيديولوجية، والتوظيف المصلحي عن العلوم ونتائجها، وهذا يجعل المرء أكثر استعدادًا للبحث والمواصلة وتقبُّل الاحتمالات والفرضيات، وعدم التسرُّع في الجزم في حالتي النفي والإثبات: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أول ما نزل من الوحي على رسول الله ﷺ كان متعلِّقًا بالخَلْق، وبخَلْق الإنسان خاصّة من عَلَقٍ، وكان حثًّا على القراءة والعلم، واستخدام الملكات التي وهبها الله الإنسان في الكشف عما لا يعلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

وأحدث الثورات التي يعيشها العالم اليوم: الثورة الجينية؛ الكاشفة عن خريطة مفاتيح التحكم في منظومة الجينات المعقدة، وتاريخها ومستقبلها وعلاجها.

القرآن يربط المعرفة بـ﴿اسْمِ رَبِّكَ﴾، ليحمي الإنسان من آثام توظيف العلم توظيفًا منافيًا للأخلاق؛ كالعبث بالهوية الإنسانية، والخلط بين

الإنسان والحيوان، ومحاولة التدخُّل في جوهر الكينونة البشرية، والغفلة عن فطرة آدم؛ الذي كان طينًا ثم صار خَلْقًا آخر بعد نفخ الروح فيه.

ومن أبيات للبابا شُنودة الثالث:

يَـا تُـرَابَ الأَرْضِ يَا جَدِّ ـــي وَجَـدَّ النَّـاسِ طُـرًّا

أَنْـتَ أَصْـلِي أَنْـتَ يَـا أَقْـ ـــدَمَ مِــن آدَمَ عُمْــرًا

وَمَصِـيرِي أَنْـتَ فِي الْقَبْـ ـــرِ إِذَا وُسِّــدتُ قَــبْرًا



جسد

- كان آدم جسدًا ملقى على الأرض تمر به الملائكة والشياطين وتحاول استكشافه..

- تحوَّل التمثال الطيني بنفخ الروح فيه إلى عظم ولحم وأَوْرِدَة وخلايا.

ثم تحوَّل بعد ذلك إلى إنسان حيٍّ: ﴿وَاللهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾.

حين تُنزع الأرواح تبقى الأجساد كما كانت، ولكن من دون حياة.. ما الذي فَقَدْتَ إذًا؟ فَقَدْتَ روح الحياة، وهي الطاقة الخفية التي بها قوام الجسد، وكأن الجسد بيت والروح تيار كهربائي يضيء جوانبه!

- الجسد هو الجانب المادي في الإنسان، وهو توأم الروح وحاملها، والاهتمام بالجسد نظافة وجمالًا وصحةً من الفطرة.

○ كان الإنسان الأول كبيرًا طويلًا جميلًا قويًّا متناسقًا، طويل الشعر.

عن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه مرفوعًا: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طُوَالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ**

عَنْهُ لِبَاسُهُ، فَأَوَّلُ مَا بَدَا مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّــا نَظَرَ إِلَى عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الْجَـنَّةِ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةٌ فَنَازَعَهَا، فَنَادَاهُ الرَّحْمَنُ: يَا آدَمُ مِنِّي تَفِرُّ؟ فَلَمَّــا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ، قَالَ: يَا رَبِّ لَا، وَلَكِنِ اسْتِحْيَاءً»(٩).

كان منتصب القامة، وليس ذلك لشيء من الحيوانات.

الانتصاب يعني الشموخ والشَّمَم، ولذا شبَّهه بالنخلة، والنخلة هي الشجرة الطيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، يواجه الريح بصدره، ويحمل الأعباء على كتفيه، ولا يحني رأسه لغير خالقه، وبهذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما معنى الكبد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(١٠).

مُنْتَصِبَ الْقَامَةِ أَمْشِي..
مَرْفُوعَ الهَامَةِ أَمْشِي..
فِي كَفِّي قَصْفَةُ زَيْتُونٍ..
وَعَلَى كَتِفِي نَعْشِي..
وَأَنَا أَمْشِي وَأَنَا أَمْشِي..
قَلْبِي قَمَرٌ أَحْمَرُ..
قَلْبِي بُسْتَانْ..
فِيهِ العَوْسَجُ..
فِيهِ الرَّيْحَانْ..
شَفَتَاي سَمَاءٌ تُمْطِرُ نَارًا حِينًا.. حُبًّا أَحْيَان..
فِي كَفِّي قَصْفَة زَيْتونٍ
وَعَلى كتِفِي نَعْشِي..
وَأَنَا أَمْشِي وَأَنَا أَمْشِي(١١)

وجهه كان مركز الحياة والجمال، فيه العينان والفم والأنف والأذن، وهو مجمع الحواس؛ ولذا جاء في الحديث: «**إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ؛ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»(١٢).

جمال يوسف الصِّدِّيق الذي أُعطي شطر الحسن، كان حسنه نصف حسن آدم حسب قول مفسرين(١٣).

في الحديث: «**عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الإِبْطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ**». قال أحد الرواة: ونسيتُ العاشرةَ، إِلَّا أن تكونَ المضمضةَ. وانتقاصُ الماء يعني: الاستنجاء(١٤).

وهي تعود إلى فطرة آدم، والعناية بها من كمال الإنسانية، وما يحدث من تَعَمُّد إطالة الأظافر والشعر الداخلي ومخالفة سنن الفطرة هو من نقص الاتباع وطروء الضعف.

ويدخل في الفطرة: التطيُّب والتطهر؛ الذي يزيل درن الجسد ويحسن مزاجه.

الإسلام دين الفطرة، ومقاصده ملائمة للعناصر الأساسية المكوِّنة للإنسان.

مادة خلق الجسد التراب والماء وهما طاهران، وتظل صلة الإنسان بهما قائمة باعتبارها ضرورة حياتية وشرعية، فالمؤمن لا ينجس، ونجاسة المشرك معنوية وليست حسية؛ ولذا كان النبيُّ ﷺ يخالط المشركين ويتعامل معهم، وأباح الشرع نكاح الكتابيات.

الخروج عن حالة الطهارة لا يعني النجاسة، بل هي حالة معنوية طارئة لأسباب يذكرها الفقهاء.

والوضوء والاغتسال طهارة من الحدث، وتكريم للجسد، وإنعاش للروح.
والأصل في المخلوقات كلها الطهارة، والأعيان النجسة محدودة
ومنصوص عليها.
التراب يقوم مقام الماء عند الحاجة كما في حالة (التيمم).

- متاحف أوروبا تصوِّر آدم كإيطالي وسيم، ودراسات كثيرة تشير إلى أنه أقرب إلى سمرة الرجل الإفريقي، وأشبه بأديم الأرض، وهذا أقرب، على أن الانتساب لآدم المخلوق من جملة طين الأرض مدعاة للإيمان بالمساواة ورفض العنصرية ضد لون أو جنس.
- المبالغة في التجمل والإغراء والتعرِّي لدى الأنثى، أو استعراض العضلات والقوة لدى الذكر، هو من الجَوْر على الجسد والروح معًا، وأسوأ ما يكون حين يتحول الإنسان الكريم إلى أداة لتسويق السلع والتربُّح.
- الشعور بالقبح مرض نفسي يحمل على المبالغة في التجمل المتكلَّف، وطول النظر إلى الذات، الوحي ينص على جمال الخِلْقة وحسنها: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

استضافت مذيعة مشهورة مجموعة على قدر من الوسامة والجمال كانوا يعانون من كراهية أنفسهم واستبشاعها بصورة مرضية، وبعضهم يتحاشى الاحتكاك بالناس!

الجمال والقبح إذًا إحساس نفسي قبل أن يكون ملامح أو جسدًا، وربما كلمة تحطيم أو تقبيح مبكرة كانت السبب؛ ولذا قال النبيُّ ﷺ في حقوق الزوجة: «**تُطْعِمُهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ**»[١٥].
الثقة بالنفس والصفاء والابتسامة العفوية الصادقة الدائمة تصنع بشاشة

وطلاقة لا تصنعها المساحيق.

وقد لاحظ علي شريعتي أن المبالغة في التزين في طهران أكثر منها في باريس، وأن القرويات المستجدات كنَّ أكثر تكلفًا في الزينة.

وتشير دراسات إلى أن إنفاق النساء الخليجيات على الزينة من أعلى المعدلات في العالم، ولعلهن يردِّدن قول المتنبي:

مَاأَوْجُهُ الْحَضَرِ الْمُسْتَحْسَنَاتِ بِهِ	كَأَوْجُهِ البَدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيبِ
حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ	وَفِي البَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ
أَيْنَ الْمَعِيزُ مِنَ الآرَامِ نَاظِرَةً	وَغَيْرَ نَاظِرَةٍ فِي الْحُسْنِ وَالطِّيبِ
أَفْدِي ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا	مَضْغَ الكَلَامِ وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِيبِ
وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَّامِ مَائِلَةً	أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيلَاتِ العَرَاقِيبِ(١٦)

الجسد جزء منك، ولكنه ليس ملكًا لك، هو رفيق، له حق الطريق، «**فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**».

العناية والتنظيف والتغذية الجيدة والرياضة والنوم والراحة بعض حقه عليك.

تعذيب الجسد حرام، وهو أمانة، و«**إِنَّ اللهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ**».

سواء كان على سبيل التعبد والزهد، أو الرياضة.

وامتهان الجسد وتلطيخه، أو ترك استعمال الماء والمنظفات هو جَوْر آخر على الجسد، سواءً كان تعبُّدًا أو تذلُّلًا لبشر.

الحمية الشاقة تحت ذريعة طلب الرشاقة إذا جاوزت قدر الطاقة فهي تصرُّف في الجسد بغير ما أذن الله به.

- الحواس (السمع، البصر، الشم، الذوق، اللمس)؛ أدوات محايدة تجري فيها الأحكام الخمسة؛ يحرم الاستماع للفجور والفحش، ويكره الاستماع لما قد يضر من فضول القول الذي لا فائدة منه، ويباح سماع الأشياء العادية، ويستحب سماع الخير، ويجب الإنصات لسماع القرآن والفاتحة في الصلاة وخطبة الجمعة: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾...

- حواس بعض الأنبياء عليهم السلام قد تكون أقوى من حواس غيرهم؛ شم يعقوب عليه السلام ريح يوسف من بعيد، وسمع النبيُّ ﷺ صوتًا في السماء، وأعطاه ربُّه العلم والحفظ فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾.

قال حسان رضي الله عنه يمدح الرسول ﷺ:

خُلِقْتَ مُبَرّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ... كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ(١٧)

- القلب ملك الأعضاء وسيدها، والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد، وإن فسدت فسد الجسد.

المضغة المادية تضخ الدم وسلامتها سر العافية، والمضغة المعنوية سر الحياة، وطمأنينتها بالإيمان سبب الصلاح، وسلامتها من التحاقد والتحاسد سبب النجاح والفلاح.

- يبدأ الجسد ضعيفًا ويقوى ويشتد ثم يضعف ثم يموت وتفارقه الروح. سنة الله في بني آدم، فالحضور الأقوى للروح، وهي الأكثر ديمومة من الجسد. لا تسخر من ضعيف أو مريض أو معاق أو شيخ فهو أنت، وهو مثلك. دخل عَمرو بن حُريث على الهيثم بن الأسود النَّخَعي يعوده ويزوره،

فقال: كيف تجدك يا أبا العريان؟ قال: أجدني قد ابيضَّ منِّي ما كنتُ أحبُّ أن يسودَّ، واسودَّ مني ما كنتُ أحبُّ أن يبيضَّ، ولان مني ما كنتُ أحبُّ أن يشتدَّ، واشتدَّ مني ما كنتُ أحبُّ أن يلينَ، وأجدني يسبقني مَن بين يدي، ويدركني مَن خلفي، وأنسى الحديث، وأذكر القديم، وأنعس في الملأ، وأسهر في الخلاء، وإذا قمتُ قَرُبتِ الأرض مني، وإذا قعدتُ بعدت عني:

فاسْمَعْ أُنَبِّئْكَ بِآيَاتِ الكِبَرْ

تَقَارُبُ الخَطْوِ وَضَعْفٌ فِي البَصَرْ

وَقِلَّةُ الطَّعْمِ إِذَا الزَّادُ حَضَرْ

وَكَثْرَةُ النِّسْيَانِ مَا بِي مُدَّكَرْ

وَقِلَّةُ النَّوْمِ إِذَا اللَّيْلُ اعْتَكَرْ

أَوَّلُهُ نَوْمٌ وَثُلْثَاهُ سَهَرْ

وَحَذَرًا أَزْدَادُه إِلَى حَذَرْ

وَالنَّاسُ يَبْلُونَ كَمَا يَبْلَى الشَّجَرْ[١٨]

مرَّ شيخٌ قد انحنى بفتى شاب، فقال له: أتبيع القوس يا شيخ؟ فقال له: إن كبرت أخذتها بلا ثمن[١٩].

قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «مَن أخطأه سهم المنية قيَّده الهَرَم»[٢٠].

ومر شيخ كبير ببعض الغلمان، فقال له أحدُهم: مَن قيَّدك أيها الشيخ؟ قال: الذي هو دائب في فتل قيدك[٢١].

- من مخاطر التجربة في العلم الحديث العبث بالجينات البشرية ومحاولة خلطها مع جينات الحيوان.

«شيفرة آدم».. رواية خيال علمي للكاتب المصري (صلاح معاطي).

- التلاعب بالخلايا والجينات والدمج مع الحيوان ومع التقنية قد يضر بالحياة البشرية أو يكون الطريق إلى نهايتها.

فيلم (Transcendence) يتحدث عن الذكاء الاصطناعي، وكيف تم دمج مخ بشري في جهاز كمبيوتر للممثل جوني ديب.

- وجود العورة من تمام الخلقة السوية، وزوالها أو عيبها نقص وخلل، آدم وحواء عليهما السلام رأيا سوآتهما وأسرعا في سترها، كثرة النظر إلى العورة يكرِّس الجانب الجسدي المحض؛ ولذا يكره كشفها لغير حاجة، حتى لو كان خاليًا.

- المسيح عليه السلام لم يتزوَّج، ولذا افتقر التراث المسيحي للكثير من التفاصيل الجنسية، بينما محمد ﷺ تزوج وأوصى وحثَّ؛ ولذا نُقلت لنا تفاصيل كثيرة عن حياته الزوجية الخاصة وأحكامها: «فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً».

في الشريعة الخاتمة توازن تحتاجه النفس والأسرة عن الجسد والمقدس.

في رواية (شيفرة دافنشي) لدان براون حديث عن زواج المسيح بمريم المجدلية، وكانت منحرفة الأخلاق، وإنجاب ذرية منها، لا زالت قائمة متناسلة مستخفية، تقوم على حراستها أسر معروفة في أوروبا.

- وهذا تخيل درامي لا يلتزم بحقائق التاريخ، وإن كان المؤلِّف أصاب في تصوير المسيح على أنه نبي عظيم وقائد فذ وبشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

ولا غرابة أن يكون المسيح استثناءً من المرسلين الذين قال الله عنهم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾، كما كان يحيى استثناءً حيث قال الله تعالى عنه: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، والحصور هو

المنقطع للعبادة المنصرف عن الملذَّات[٢٢].

في حالة المسيح وحالة يحيى بن زكريا عليهم السلام لم يكن انصرافهم عن الزواج عن عجز ونقص في القدرة النفسية أو الجسدية، بل تفرغًا للعبادة والدعوة، وتقديرًا لمصلحة أعم وأعظم.

العلاقة بين الزوجين ليست جسدية بحتة، بل هي علاقة روحانية جسدية واعية، وليست مجرد غريزة كما الحيوان..

○ في القرية يختلط الأطفال بمَن يكبرونهم دون رقيب، ويقومون بأنشطة تستدعي كشف أجسادهم كالسباحة في الآبار، وهي مرحلة استكشاف للجسد قد تصنع عادات سيئة أو تسبِّب احتكاكًا غير رشيد.

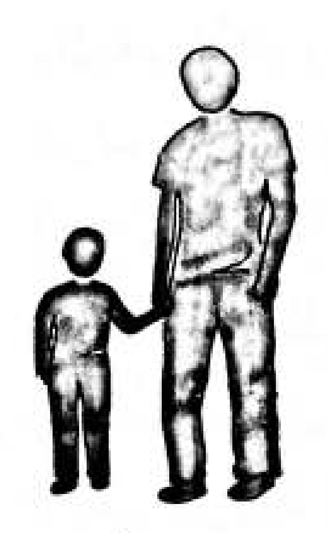
○ البيئة البسيطة تعزف عن الجمال وتهتم بالضروري فحسب، كنا نستعيب أن يكون الثوب مكويًا، وأنيقًا، وقد يقول أحدنا: هذا شأن البنات.

أخيرًا تعلَّمنا بما يشبه الصدفة أن الله جميل يحب الجمال في الجسد، في الشعر، في الوجه، في اللباس، في الحذاء.

وتعلَّمنا أن رسولَ الله ﷺ كان يضع الطيب على رأسه وجسده عند الإحرام، ليبقى أثره بعد ذلك[٢٣].

وأنه ﷺ على تواضعه كان أنيق الملبس؛ ولذا اشترى له عمرُ رضي الله عنه حلة الحرير، فنهاه، وإن كان قد أقرَّه على أصل التجمُّل[٢٤].

○○○○



أُبوّة

من غاب أباه فما ظلم...

صلتي بأبنائي الأيتام مجهولي الأبوين مجهولي النسب قديمة جدًّا، وأعتز أن بعض النابغين والمتفوقين منهم كانوا كثيري المرور على بيتي والاحتكاك بأسرتي، وكان هذا سبب بركة وفضل من الله علينا..

الشعور الأكبر عندهم هو هاجس: مَنْ أنا؟ كيف جئتُ؟ أين وجدت؟ ليتني أرى أمي.. ليتني أعرف أبي.

كنتُ أداوي هذا الشعور المُلِحّ بتذكيرهم أن الله رب الجميع، وكافلهم، وحبيبهم، ورازقهم، وسامع نجواهم، وقابل شكواهم..

وجدتُه دواء جميلًا، ولكنه بعيد المنال لكثيرين غارقين في تفصيلات يومهم وماديات حياتهم، بعيدين عن مصادر التوجيه المثالية الدائمة.

في معظم بلاد العالم توجد مقررات ومناهج خاصة مصنوعة بعناية لتلك الشريحة المتزايدة من أبناء المجتمع وبناته.

حين درجتُ في القراءة عن آدم كان أول استثمار هو الحديث إليهم عن

والدهم الأكبر وأمهم السيدة الأولى، وما يضر ألّا تعرف أباك ما دمت تعرف جدّك.. وما من أحد من البشر إلا ويجهل بعض مراحل نسبه، أيتام العالم في كفالة آدم وأبوّته، وهم سلسلته الممتدة، وأسرته الواسعة، وذريته القائمة إلى قيام الساعة.

وجدتُ العزو إلى آدم أكثر واقعية، وأقرب تناولًا، وأسهل تداولًا، وهو لا يغني عن ربط العبد بربه الحي الذي لا يموت.

ومَن سرد نسبه إلى آدم فقد أخطأ، فما من أحد إلّا وفي سلسلة نسبه مناطق غائمة وأخرى مجهولة، ولا بد.

وقل نسب إلّا ويعتريه حالة غموض، وفي مقطع: (رحلة الدي إن إيه The DNA Journey) تجربة رائعة موثّقة في اليوتيوب تمثّل درسًا لَمن يسكر بخمرة الغرور بالانتساب لشعب أو قبيلة أو أب، حيث أحضروا مجموعة من المعتزّين بانتمائهم لشعب أو عِرْق، وأجروا لهم تحليلًا، وبعد أسبوعين صدموهم بالنتيجة، فقد تبيَّن أنهم جميعًا ينتسبون إلى عِرْق آخر غير الذي كانوا ينتسبون إليه!

وقد كره مالك وجماعة من أهل العلم الاسترسال في سرد النسب إلى الآباء الأقدمين[٢٥]؛ لأنه من باب الظن والتخرُّص، وكان بعض العلماء يقول:كذب النَّسَّابون ولو صدقوا.. لأن ما لا يعلمه إلا الله من السنوات يفصلنا عن آدم، وفيها أزمنة مجهولة مظلمة لا يعرفها الناس ولا يحكيها التاريخ بوضوح.. وما قبل نوح عليه السلام تاريخ غامض لا يكاد يعلم الناس عنه إلا القليل..

يختلف الناس في حكاية أصولهم وأنسابهم، وبعضهم يفتخر بنسبه، وبعضهم يمرِّره بإغماض وبوده ألّا يسأله أحد عنه، ولكنهم مجمعون على

أنهم من سلالة (الطين) وأبناء (الماء المهين)!

﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

آدم وحواء كانا بلا أب ولا أم، وهما أبوا البشرية جمعاء، كان أبوهما الطين والتراب والأرض، لو صنع آدم شجرته التاريخية لكانت:

الماء / التُّرَاب

↓

الطِّين

↓

الطِّين اللَّازِب

↓

الحَمَإ المَسْنُون

↓

الصَلْصَال

- لم ينظر آدم إلى الوراء ليبحث عن شجرة نسبه، نظر إلى الأمام ليصنع امتداده العظيم بزواجه وإنجابه، وأفلح في بناء أسرته العريقة الواسعة الباسقة.. بمقدورنا أن نصنع الشيء ذاته.
- انظر أمامك واصنع نسبك وشجرتك بنفسك، تزوّج وأنجب، فهذه أسرتك وهذا نسبك، واضرب في الأرض.
- لن تُسأل عن غيرك، ولن يُسأل عنك غيرك:

كُنِ ابنَ مَن شِئتَ وَاكْتَسِب أَدَبًا ... يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ

إِنَّ الفَتَى مَن يقُولُ: هَا أَنَا ذَا ... لَيسَ الفَتَى مَن يقُولُ: كَانَ أَبِي[٢٦]!

آدم هو الأب وليس له أب، لم يكن قلقًا أو مكتئبًا لأنه بلا أب، ولا حزينًا لأنه الرجل رقم (١) في أسرته.. هكذا أنت فكن!

لا تعرف والديك ولم ترهم لسبب ما؛ وفاة، وضع غامض، خلاف عائلي عميق أنت ضحيته، حروب، حالات لجوء، سرقة واختطاف، اتجار بالبشر، الأسباب متنوعة والمؤدّى واحد أنك أعزل لا تنتمي لأسرة معروفة..

أجدادك القدماء معروفون، وهم بلا أبوين؛ ولذا سلموا من فساد الطباع الذي كثيرًا ما ينتقل بالجينات من الآباء إلى الأبناء، وسلموا من سوء التربية وتأثير البيئة البشرية المحيطة.

الآبائية - أحيانًا- تشوّه الخيال وتجعل الابن على مسار والديه طوعًا أو كرهًا، وتُحجِّم فرص الاختيار الحُرّ الرشيد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾.

آدم يُشكّل مرجعية طبيعية تُمكِّن من الانفكاك عن سلطة الآباء والأجداد والبيئة السابقة غير الرشيدة.

وقصة آدم ليست تشريعًا كلها، ولكنها أساسٌ لفهم الواقع والإنسان والملكات والمواهب والإبداع والفطرة..

القرآن يخاطبنا بـ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ تذكيرًا بالأصل، وتحقيقًا للمساواة الأولية، فهل نستشعر أننا أبناء آدم حقًّا؟ وهل نعي معنى كوننا أبناء نبي؟

كان أبواك في منتهى الجمال جسدًا وروحًا!

بنتي اليتيمة! جدتك حواء كانت بلا أب ولا أم، تخيِّلي عندما تعرض لها مشكلة، أو يطرأ سؤال، أو هَم أو ألم.. لمَن كانت تشكو وتبوح؟

تلك الوردة الأولى النابتة في الطين ومن الطين، تتفتح للحياة والحب والأمل، وتحمل وتنجب وتنفث عطرها الجميل..كانت تعرف ربها السميع الرحيم القدير، وتعرف زوجها الحنون، وتنشغل بحياتها وذريتها وتدبير معيشتها..

نوح عليه السلام كان أبًا ثانيًا للبشرية؛ لأن الطوفان عمَّ الأرض.
وقد ذكر تعالى قصة ابنه الذي غرق، وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؛ تأكيدًا على مبدأ مسؤولية الإنسان عن ذاته وانفكاك الابن عن أبيه والأب عن ابنه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾.
عيسى عليه السلام بلا أب وقد ملأ الدنيا ذكرًا وحبًّا وسلامًا.
وقصة آدم مرجع في تفسير ما أَشْكَل في شأن عيسى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.
أرادَ الله أن ينفي كون عيسى إلهًا أو ابنًا للإله، تعالى الله، وأبو عيسى هو آدم، والجد يسمى أبًا، كما قال ﷺ: «**أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**»(٢٧).
فَضَّل اللهُ عيسى بالنبوة والرسالة، ورفعه إليه في السماوات العُلى، وكان آية للعالمين، وقلَّما يرد ذكره في القرآن إلا مقرونًا باسم والدته: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ* وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.
أحاول استحضار ذكريات الطفولة مع يتيم أصبح أبًا وربًّا لأسرة، أعصر الذاكرة لعلي أجد في سجلاتها أثرًا عن أول احتكاك واعٍ محفوظ مع (فهد)..
خُيِّل إليَّ أني أقرأ الفرحة على ملامح وجهه الطيب حين سمع: (أَبْشِرْ لكْ بوْليدْ)، وأجد دفء حضنه وآثار قبلاته على خدي .. وشعرات وجهه التي تلمس جلدي الناعم فأجهش بالبكاء!
أجد صحبة المسجد والتلاوة
وصحبة الآباء الكبار الذين توقَّف نموهم في خيالنا، فلا يبرحون تلك

السن التي تقارب الثلاثين..

وصحبة المتجر الصغير في القرية

وصحبة القهوة والشاي والكعك اللذيذ.. والنار والدخان..

وصحبة استبطاء الانتقال للمدينة (بريدة) بعد وعدٍ أكيد وبناءٍ مشيد..

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

هل قعدتُ في حجره؟ هل ضمَّني؟ هل حضنني؟ هل حملني على كتفيه كما أصنع مع أطفالي؟ هل حكى لي حكايات ما قبل النوم؟

كل ذلك قد كان وأكثر منه، ولكن الذاكرة تخون، أو لعل تدوينها لم يبدأ بعد!

أيّ الأبوين أشد تأثيرًا؟

أكثر الناس يتأثر بأمه أكثر ويتنكَّر لها أكثر!

ميولي اللُّغوية وحبِّي للشِّعْر وحفظي للكثير منه، ومن المفردات العربية والشَّعْبية الجميلة هو بعض سرها.

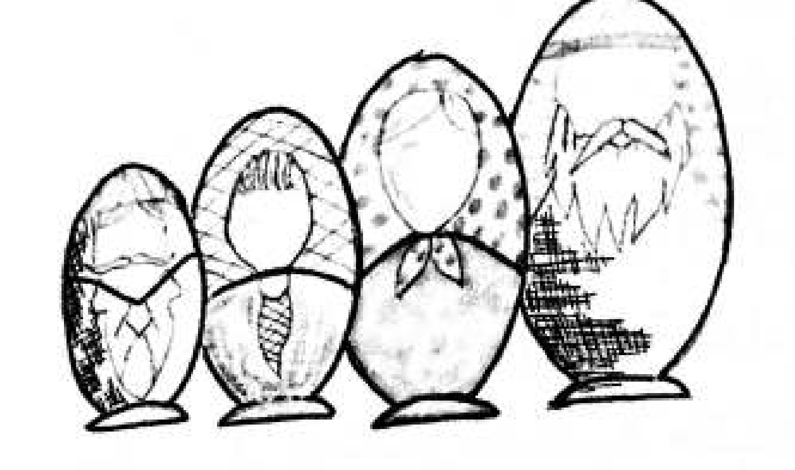
تكراري لاسمها وحديثها كلما حانت مناسبة يكشف عمق الارتباط: ﴿فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، والآباء يشمل الأمهات.

إن لم يكن لك أب فلك رب، وكم من مربٍّ أو مربية حضنوا وحنوا وقاموا مقام الوالد، ورب أخٍ لك لم تلده أمك!

إن يُكْـدِ مُطَّـرَفُ الإِخَـاءِ فَإِنَّنَا ... نَغْـدُو وَنَـسْرِي فِي إِخَـاءٍ تَالِـدِ

أَوْ يَخْتَلِـفْ مَاءُ الوِصَـالِ فَمَاؤُنَا ... عَـذْبٌ تَحَـدَّرَ مِـن غَـمَامٍ وَاحِدِ

أَوْ يَفْـتَرِقْ نَسَـبٌ يُؤَلِّـفْ بَيْنَنَـا ... أَدَبٌ أَقَمْنَـاهُ مَقَـامَ الوَالِـدِ[28]



ذُرِّيَّة

ذرية بعضها من بعض

ضرب أحد الأساتذة طفلًا في مقرأة القرآن على ظهره ضربًا خفيفًا، ففوجئ بالطفل يصرخ ويقول: قتلت أولادي.. قتلت أولادي!

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾.

يجري في لغة الناس اليوم تسمية الرجل بـ(آدم)، وتسمية المرأة بـ(حواء) على سبيل الترميز والاختصار.

لغة القرآن: ﴿يَابَنِي آدَمَ﴾، وهي شاملة للذكور والإناث، وحين حزنت عائشة رضي الله عنها لعدم تمكنها من الاعتمار بسبب الحيض قال لها النبيُّ ﷺ: «**هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ**»[٢٩].

تجوزًا يسمي بعضهم الأنثى ببنت حواء، تذكيرًا باتحاد الجنس وتشابه الطباع، على أن الأصل نسبة الأولاد ذكورًا وإناثًا إلى أبيهم.

سمعت أمُّ سَلَمة رضي الله عنها رسولَ الله ﷺ على المنبر يقول: «**أَيُّهَا النَّاسُ**». والجارية تمشطها فقالت للجارية: استأْخِري عنِّي. فقالت

الجارية: إنما دعا الرجالَ ولم يَدْعُ النساءَ! فقالت: «وَيْحَكِ، أَوَلَسْنَا مِنَ النَّاسِ!»[٣٠].

سُمِّي الإنسان الأول: آدم؛ لأنه خُلق من أَدِيم الأرض، أي من ظاهرها، من التراب، ويسمَّى الجلد بالأَدِيم، والآدم من الناس: الأسمر أو الأسود.

وفي اسمه سرٌّ لطيف، ففي العربية تقول: آدم الله بين المتخاصمين، أي: أصلح ووفق وألَّف، ومنه حديث طلب النظر إلى المخطوبة، وتعليله بأنه أَحْرَى أن يُؤدمَ بينهما[٣١].

فالآدمي مزيج متجانس من عناصر شتَّى، وتواؤم وتلاؤم بين المادة والروح.

والآدمي مدني بطبعه، وتكوينه يحب الآخرين ويأنس بهم.

أبناء آدم هم البشر، وفيهم بيوت النبوة: آل إبراهيم، آل عمران، آل داوود، آل محمد.

وفيهم بيوت الحكمة: كآل لقمان، وبيوت الزهد، وهي كثيرة في هذه الأمة والأمم قبلها، تجانس بين الآباء والأبناء مبناه على الاصطفاء الإلهي، وحسن التربية، وصدق النية، وطيب المطعم، وإخلاص الدعاء ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

كما فيهم بيوت المال، وبيوت السُّلطة والجاه.

هذا مجد الدنيا، وذاك مجد الدنيا والآخرة.

تقول امرأة لزوجها: ولدك فعل وفعل .. فيرغي الأب ويزبد ويقول: ليس ولدي، هذا ولد إبليس!

مسبَّة لنفسه تملأ الفم!

نغضب على المعتدين فنسمِّيهم: أبناء القردة والخنازير، وإنما هم أبناء آدم

وحواء! وعليهم جُرم أنفسهم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، ومن صح نسبه منهم فجده كان إسحاق، وهو نبي مرسل.

كل البشر المؤمنين والكافرين والمظلومين والظالمين والأتقياء والمجرمين هم ذرية ذينك الوالدين الصالحين الطيبين، أبوهم كان نبيًّا، وأمهم كانت صدِّيقة!

الأصل بينهم المساواة، من الأرض خرجوا وإليها يعودون، ولا فضل لأحد منهم إلا بالعلم والخير والإحسان والتقوى.

وهم إخوة يجمعهم التراب والطين، إن لم تجمعهم العقيدة والدين: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ووصف تعالى المقتول بأنه أخو القاتل، وهي الأخوة العامة بين الناس.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾، ما معنى هذا؟

معناه التناسل والتوالد من جيل إلى جيل، وغرس الفطرة السوية في الخلق، وظهور الآيات الكونية الدالة على الله، وبعثة النبيين مبشرين ومنذرين.

ويحتمل المعنى ما نُقل عن ابن عباس وأُبَيِّ بن كعب رضي الله عنهما، أن الله تعالى أخرج من صُلب آدم ذريته مثل الذَّرِّ، ثم كلَّمهم وقرَّرهم فأقرُّوا بالربوبية، ثم بعث الرسل للتذكير بالعهد، فلا أحد يحاسب على العهد الأول الذي لا يتذكره(٣٢).

كان آدم في السماء الأولى ليلة المعراج، وأبناؤه فوقه ومنهم أولو العزم، فمن الذرية مَن يتفوَّق على والده، ومن التلاميذ مَن يتفوق على شيخه.

رحَّب آدم بمحمد ﷺ وقال: «**مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ**»(٣٣).

الجمال ميزة ومطلب، وكان داود عليه السلام وضيئًا فسرَّ به آدم حين رآه،

وآدم نفسه كان جيلًا طويلًا.

كم عدد أولاد آدم؟ لم يستوعبهم كتاب جامع، ولم يأت فيهم نص قاطع، هل هم (٢٤٠)، أم (أو ٤٠)، أم (٢٥)؟..

عاش آدم مئات السنين على الأرض، وشاهد الأولاد والأحفاد ومَن بعدهم. خلَّد الله آدم بذريته، فهو معروف في معظم الثقافات والأديان ولدى كل الشعوب.

كيف تم التكاثر بينهم؟

هل كانت حواء تلد توائم (ذكرًا وأنثى)؟ ثم يزوِّجون الذكر من التوأم، الأنثى من التوأم الآخر نظرًا لضرورة الحياة وعدم وجود غيرهم؟ وقبل أن تنزل الكتب السماوية بتحريم ذلك: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾.

- وفي الحضارات القديمة المصرية وغيرها كان الأخ يتزوج أخته، وكما تكتمل التشريعات مرحلة بعد أخرى بتطور الحياة البشرية، فكذلك الفطرة تأخذ جاهزيتها واكتمالها مع الزمن وتستقر مفرداتها، فتعافُ بعض ما كانت تقبله من قبل!

- والجينات البشرية كانت نقية ولا توجد فيها أمراض وراثية.

وكان كل توأم يختلف عن الآخر في النشأة والطعام والعادات.

- أم كان الله تعالى يخلق لهم ما يناسبهم بقدرته، كما خلق عيسى من أم بلا أب؟

تلك قضية موغلة في القدم، ولم يأت فيها نص هادٍ، فلتبق إذًا متروكة للمزيد من الأدلة، خاصة وهي قضية لا ينبني عليها عمل.

في أبناء آدم لصلبه الطيب والخبيث، فيهم قابيل القاتل، وفيهم (شِيْث) النبي الصالح الذي ورث والده وحفظ عهده وأحيا سنته،

وبعضهم يعده أبا البشر الثاني.

مؤرِّخون يضربون في التيه بلا هادٍ ولا دليل حين يتكلمون عن تاريخ العالم، ومدة الكون من آدم إلى قيام الساعة، ويسردون روايات بلا زمام ولا خطام عن الأرض وخلقها والسماوات ووقت الخلق والدخان، وما بين آدم ونوح عليهما السلام، بينما القرآن يقول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾!

الأخوة الإنسانية قائمة على النسب الواحد لآدم وحواء، وعلى الفطرة والطبيعة الواحدة، حيث يسهل فهم الآخر؛ لأنه نظيرك في الخلق، وقد يكون المرء أخاك لأمك وأبيك ولكنه على غير دينك، فتسميه أخًا، وأخوة الدين أخص: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

علينا ألَّا نتنكر للنسب الواحد، ولا نتجاهل الفطرة المشتركة، وعلينا ألَّا نجور على حقوق الأخوة الإسلامية التي تجمعنا بشركائنا في التوحيد لله والإيمان برسله وبخاتمهم ﷺ.

أنتاكم

oooo

"فرحة وابتسامة"

وجنة نعيم ...







نَفْخة

تعرف كتاب «الروح» لابن القيم؟

كنتُ أسمع مَن يشكِّك في نسبته لابن القيم حتى قرأته قبل سنة، فأدركتُ أن روح ابن القيم تسري في الكتاب، وطريقته في التأليف وسرد الأقوال والترجيح، حتى إنه ذكر اسم شيخه «ابن تيمية» عدة مرات في الكتاب، ولا يوجد ما يدعو للشك في صحة نسب الكتاب، فهو ابنٌ صريح لابن القيم لا يختلف عن سائر أبنائه!

ووجدت أن الروح عند ابن القيم: جسم نوراني علوي خفيف حيّ متحرِّك يسري في الأعضاء سريان الماء في الورد والدهن في الزيتون والنار في الفحم.. وساق نحو مائة دليل على ما ذهب إليه.

واليوم بمقدورك أن تقول: تسري الروح في الجسد سريان الكهرباء في الموصلات، أو النت في الأجهزة!

ويظل النص المحتكم إليه هو: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ

رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فالروح في ماهيتها وجوهرها من عالم الغيب الذي استأثر الله به، وهذا لا يمنع البحث في تأثيراتها وأنواعها وصلتها بالجسد وعلاقتها بالنفس.. وهو موضوع كتاب ابن القيم، وبَحْث الغزالي في «الإحياء»، وفي «معارج القدس في مدارج النفس».

ومع تقدم العلوم الطبية والمادية ظلت الدراسات المتعلقة بالنفس والروح بعيدةً عن تحقيق تقدم ملموس أو اختراق علمي يناسب ما تحقق في سائر العلوم!

حتى يقال: إن علم النفس أقرب إلى الملاحظات من كونه علمًا قائمًا بذاته، وهو في الحقيقة علم مهم، ولكنه لم ينضج بعد.

ولا يبعد أن يطلق لفظ الروح على معنى عام وآخر خاص، فالروح التي نُفخت في آدم هي روح خاصة، سرت في الطين سريان الماء في الورد، فحوَّلته خلقًا آخر.

وليست من ذات الله تعالى الله، فقصة آدم مثل قصة عيسى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾، ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

نفخةٌ علوية مخلوقةٌ حادثة قطعًا بعد أن لم تكن، وليست جزءًا من الله كما يتوهَّم مَن لا يعلمون.

وهي بهذا (معنى عام) تحقق به شيئان:

أولهما: الحياة، فتحول الطين اليابس إلى حيٍّ متحرِّك يأكل ويشرب ويحس.. وهذا قدر يشترك فيه مع غيره من الدواب والبهائم الحيَّة، ولذا تسمَّى: (ذوات الأرواح)، وتُقاسِم الإنسان بعض خصائصه وأحكامه، مثل:

عدم إيذاء ذوات الروح أو العدوان عليها أو حرمانها من حقها المشروع، حتى يحرم إزهاق روحها إلا لمصلحة من أكل أو نحوه، ويجب توفير المأكل والمشرب والمكان وسائر الاحتياجات اللازمة لها، ويؤجر العبد على رحمتها والإحسان إليها، و«**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**». والكبد الرطبة هي الحياة.

«**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ**».

و«**مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ**».

وبعض الفقهاء يُحرِّمون تصوير (ذوات الأرواح)، فهو حكم عندهم يشترك فيه الإنسان وغيره من الطير والحيوان.

فالروح بهذا العموم تعني الحياة فوق النباتية أيًا كان مستواها، حيوانيًا أو إنسانيًا..

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيَّ- ﷺ قال: «**لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا**»[٣٤]. فيحرم جعل الطير أو الحيوان هدفًا للتدريب على الرمي، أو السباق والتنافس في إصابة الهدف.

فهذه الروح هي التي بها يحيا الإنسان، ويصبح عقله وقلبه وجسده وسائر مضامينه في وضعية الجاهزية والقدرة على أداء المهمات الموكولة إليه أيًا كانت، إذا لم يكن ثمَّ عائق آخر.

الثاني: المعنى الذي به تميَّز الإنسان عن الحيوان وأحدث عنده قابليةً واستعدادًا للتعقُّل والفهم والإدراك، وهذا ما حدث بالنفخة ذاتها وليس بشيء آخر، والله أعلم، مع اختلاف الجهاز البشري عن بقية الحيوان.

ولأن النفخة علوية تحقَّق بها الأمران؛ أمر الحياة العادية الموجودة في سائر الأحياء، وأمر التميز الخاص الذي به تفوق الإنسان عن بقية المخلوقات

وهو موجب السجود لآدم والتكريم والاستخلاف.

ويُضرب المثل بمسؤولية الجسد والروح معًا برجل أعمى حمل رجلًا مقعدًا فدخل به بستانًا فسرق ثمرة فأكلاها معًا، فالذنب عليهما معًا، وكأن الأعمى يمثِّل الجسد والمعاق يمثِّل الروح!

ومع أن الروح مخلوقة محدثةٌ فهي باقية لا تفنى، والموت هو انتقال فحسب، فالنعيم والعذاب يكون عليها وعلى البدن، وقد يضمحل البدن ويتلاشى وتبقى الروح؛ كما نصَّ ابن القيم، وابن حزم في مواضع من كتبهما[٣٥].

ومن الجميل الرائع أن بقاء أرواح الصالحين في النعيم السَّرمدي الأبدي يوم الدين هو قول كافة العلماء، فهو إجماعٌ معروف مقطوع: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾. بينما أرواح المجرمين والطُّغاة قد يلحقها الفناء والانقراض والزوال على قول طائفةٍ من أهل العلم.

الروح أثمن ما يملك آدم، وأثمن ما ورثت ذريته، وحين نريد التعبير عن حبِّنا العميق لولد أو صديق أو حبيب نناديه: (يا روحي)، وأرقى مستويات التضحية أن تفدي مَن تحب بروحك:

مَا لِي سِوَى رُوحِي وَبَاذِلُ نَفْسِهِ ... فِي حُبِّ مَن يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ

فَلَئِنْ رَضِيتَ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِي ... يَا خَيْبَةَ المَسْعَى إِذَا لَمْ تُسْعِفِ[٣٦]



لغز!

اقلب يلع، اذا أنقلع تستقبلني!

هَبطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ ... وَرْقَـاءُ ذَاتُ تَعَـزُّزٍ وَتَمَنُّـعِ

مَحْجُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقْلَةِ عَارِفٍ ... وَهْـيَ الَّتِي سَـفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرْقَعِ

وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ إِلَيْكَ وَرُبَّمَا ... كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهْيَ ذَاتُ تَفَجُّعِ

حتى إذا قَرُبَ الْـمَسِيرُ مِنَ الْحِمَى ... ودَنَا الرَّحِيلُ إلى الفَضَاءِ الأَوْسَعِ

سَجَعَتْ وَقَدْ كُشِفَ الغِطَاءُ فَأَبْصَرَتْ ... مَا لَيْسَ يُدْرَكُ بِالعُيُونِ الهُجَّعِ[٣٧]

هذه القصيدة العينية من أشهر قصائد التراث، ولذا كثرت معارضاتها على ذات الوزن والقافية، وتعدَّدت نسخها، واختلفت رواياتها، وشرحها كثيرون، وأُضيف إليها ما ليس منها، وتُرجمت إلى لغات العالم الحيّة..

القصيدة لابن سينا الفيلسوف، وهو يتحدَّث عن «وَرْقَاء» أي: حمامة؛ محجوبة عن العيون، وصلت إلينا كُرْهًا: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾، وتذهب كُرْهًا: ﴿إِنَّ الْـمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾، وعند قرب

الرحيل يُكشَفُ الغطاءُ فتبصر ما لم تكن تبصر من قبل: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

إنها الروح إذًا.. وهي لغزٌ، وأي لغز!

- التداخل ما بين الروح والنفس اشتباك يصعب الفصل فيه.. وهل هما واحد أم شيئان منفصلان؟

وتَرْكُ الباب مفتوحًا للبحث العلمي البعيد عن الأحكام المسبقة أدعى للخروج بنتائج مفيدة في عصر الانفجار المعلوماتي الضخم..

ومثله الحديث عن علاقة العقل والمخ بها.. وعلاقة الغرائز الإنسانية من الأشواق والحب والمواهب النفسية والحالات النفسية والإلهام والرؤيا.

الروح طاقة نورانية تشرق وتنتعش بالإيمان والمناجاة والقرآن والصلاة، فتمنح السعادة والرضا والإنجاز، كانت أمي تقول: على قدر المحبة تمشي الأقدام.

وتضعف بالغفلة حتى تعجز عن حمل الجسد، ذكر الشافعي أنه رأى رجلًا له سِنٌّ، شيخًا كبيرًا خَضِيبًا، يدورُ على بيوت القِيَان ماشيًا يعلِّمهم الغناء، فإذا حضرت الصلاةُ صلَّى قاعدًا[٣٨]!

الحب معنى روحاني؛ سواء حب الله تعالى، أو حب الناس، أو حب الخير والحق والجمال..

الحب الذي ربط حواء وآدم وقاد كلًّا منهما إلى الآخر مختلف عن الغريزة المحضة؛ التي تتناكح بها الدواب والطيور والحشرات.. هو اتصال روح بروح، وقد يلحقه أو يسبقه أو يصحبه اتصال جسد بجسد.

ولذلك صار الاتصال الجسدي محاطًا بالتشريعات والضوابط والأحكام التي تعطيه وضعية القداسة والعبادة.. «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ». وتبعد

عنه الإحساس بالاستقذار الذي يولِّد الكبت أو الشعور بالعار والتأنيب.

التقوى وإيثار رضا الله على شهوة النفس الحاضرة، انتصار للروح.

وطأة المعصية على الروح وإشراقة التوبة كما حدث لآدم.

الفِراسة؛ وكان شاه الكَرْماني ممن لا تُخطئ فِراسته، وكان يقول: «مَن غَضَّ بصرهُ عن المحارم، وأمسكَ نفسَهُ عن الشهوات، وعَمَرَ باطِنَهُ بدوام المراقبة وظاهِرَهُ باتِّباع السُّنَّة، وتعوَّدَ أكلَ الحلال، لم تُخطئ فِرَاسَتُهُ»[٣٩].

الحلم الذي يعيش عليه الإنسان ويموت من أجله، حلم المجد، الخلود، السمو، التأثير.. وهي التي أغرى الشيطان بها آدم.. فطرة إنسانية وخاصية متصلة بالروح، ومغروزة في أصل الخلقة.

والخطأ الذي وقع فيه الأبوان متعلِّق بالوسيلة، بالأكل من الشجرة الممنوعة، وهي ليست سببًا علميًّا صحيحًا لحصول المطلوب.

الروح هي النافذة المفتوحة للإنسان؛ ليُحلِّق ويسمو ويتجاوز جدران الواقع الضيق أو الألم أو القيد أوالإعاقة أو الظلم، فحين يعجز الجسد يملك الإنسان أن يشرق بروحه وينتقل إلى آفاق أسمى وأعلى.

ذات خلوة كنتُ أقول:

أَنَـا فِي السِّـجْنِ فِي نَعِيـمٍ دَانِ	لَيْـسَ تَسْـطِيعُهُ يَـدُ السَّـجَّانِ
إِنْ حُرِمْتُ الرِّيَاضَ خُضْرًا فعِنْدِي	فِي حَنَايَـايَ رَوْضَـةُ القُـرْآنِ
أَوْ حُرِمْتُ البَيْتَ العَتِيقَ فَيَارُبَّ	صَبَـاحٍ مَسَـحْتُ بِـالْأَرْكَانِ
أَوْ حُرِمْتُ الْحَدِيثَ لِلنَّاسِ حِينًا	فَحَدِيثِـي يَـرِنُّ فِي الآذَانِ
أَوْ حُرِمْتُ التَّطْوَافَ شَرْقًا وَغَرْبًا	إِنَّ رُوحِي تَقْوَى عَلَى الطَّيَرَانِ
سَابِحٌ فِي الأَفْلَاكِ أَشْهَدُ فِيهَا	صَنْعَـةَ اللهِ مُبْـدِعِ الإِتْقَـانِ

رؤيا منام من روح مجهدة واثقة بالله تقلب الموازين!

الروح تكريس للحق الإنساني، والطفل الذي يولد الآن يساوي أي شخصٍ آخر على الوجود في كرامته وحرمته وميراثه وحقوقه!

حق الحياة..

حق المعرفة..

حق العبادة..

حق التعبير..

حق الخصوصية..

حق الكرامة..

- الأرواح مجاميع، وفي الحديث: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[40].

من الممكن أن يكون إشارة إلى تلاقي الأرواح في عالم الذَّرِّ قبل وصولها إلى الأجساد، على أن الأرواح خُلقت قبل خلق الأجساد.

وربما كان إشارة إلى التشاكل في الخير والشر، وفي الطبع والمزاج، وفي نمط التفكير والاهتمام، وكانت عائشة رضي الله عنها قالت الحديث عندما سمعت أن امرأةً مزَّاحةً دخلت مكة فنزلت على امرأةٍ مزَّاحةٍ مثلها!

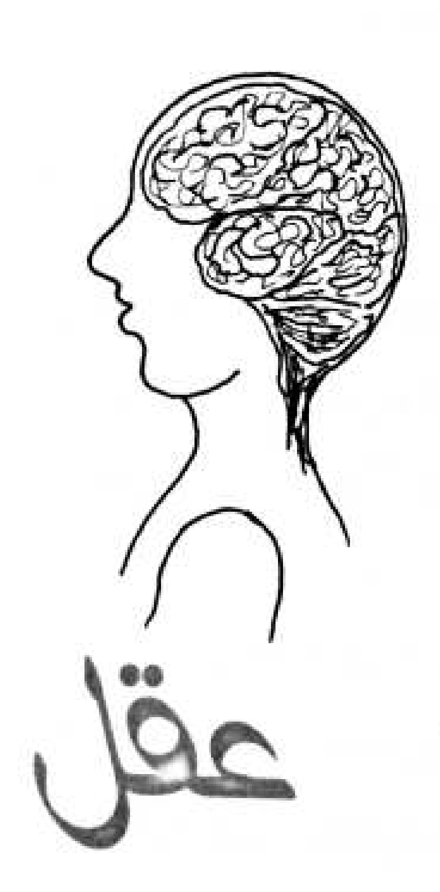
الحديث يلهم أن الروح تشكِّل شخصية الفرد وتميِّزه عن غيره، وتصنع جزءًا من هويته الخاصة به، وكذلك تفعل بالمجموع؛ بالفريق، وبالطائفة، وبالشعب، وبالأمة.

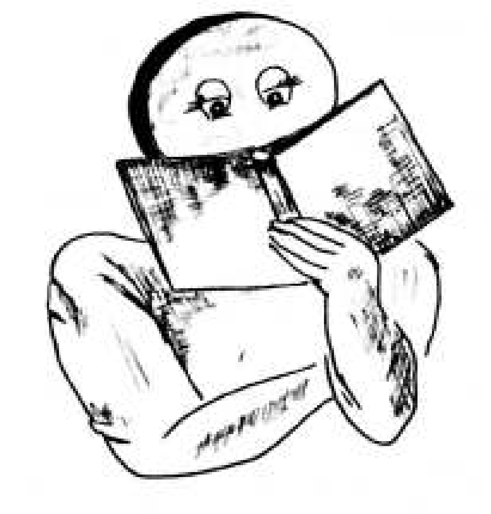
الروح محدثة بعد أن لم تكن.. وباقية لا تفنى، والموت هو مفارقة الروح للبدن، ولذلك فالملائكة أيضًا تموت، ولو فنيت الروح ما تنعَّمت ولا عُذِّبت..

حين نتخيَّل الموت انتقالًا للروح وتخليًا عابرًا عن الجسد نشعر بطمأنينة وتصالح مع منعطف ينقلنا إلى الضفة الأخرى، حضرت الوفاة أعرابيًّا فلم يكترث، وقال: إنما أنتقل من سلطان الله إلى سلطانه!

وقد تتشكَّل الروح في عالم الغيب بصورة ما؛ كما في «الصحيح» أن أرواحَ الشهداء في الجنة، وأنهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون، فعن مسروق قال: سألنا عبدَ الله بنَ مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾؟ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فأُخبرنا: **«أَنَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْـجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ؟ قَالُوا: رَبَّنَا أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي، وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْـجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟»**[٤١].

الإنسان روح أولًا ثم جسدٌ بعد، والعناية بتحرير الروح وتساميها وعافيتها وإشراقها هو المقصد الأول للرسالات بالتوحيد والعبودية والتقرُّب، والمقصد الأول للخلق والاستخلاف، وهو لا يتعارض مع حقوق الجسد والمادة.


عقل



بيان!

استمعتُ لمحاضرة للدكتور مصطفى محمود رحمه الله عن أقدم اللغات، فأعجبني إيمانه العميق بالعربية وحديثه الروحاني عنها، كان يعدّها فرعًا عن السُّريانية المنسوبة لسوريا والشام القديم؛ الذي يشمل بعض العراق أيضًا.. واستشهد بما يقول إنه أقدم مخطوط وعمره أربعة آلاف سنة، وهو موجود في مناجم الفيروز بسيناء..

وأفاض بسرد الكلمات ذات الأصول العربية الموجودة في اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية، وخاصة الكلمات العلمية والطبية والتشريحية، والتي غالبها عربي ويوجد في تتبعها كتب مفردة..

العربية لغة الكتاب الأخير والرسول الخاتم، ولأمرٍ ما جمع الله بين العربية وبين التعقُّل في قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فما بال العرب اليوم أبعد شعوب الأرض عن الحكمة والبصيرة بمصالح دينهم ودنياهم؟

العربية من أوسع اللغات وأكثرها ثراء بالمفردات، والأسماء، والقواعد، والاشتقاقات، والبدائل..

ومع كثرة الكلمات الدَّالة على معنى واحد؛ إلا أن هذا لا يعني الترادف المحض، فلكل اسمٍ معنى خاص، ومستوى يحدِّد الاستخدام؛ كما يسمَّى الماء النازل من السماء بالسيل، والمطر، والغيث، والوَدْق، والحَيَا، والوابل، والـمُزْن، والرَّش، والرَّذاذ، والدِّيمة.

في التنزيل امتنَّ الله تعالى على الإنسان باللغة فقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

- اللغة رحمة، ومنَّة ومنحة من الرحمن الرحيم..

والتدرُّب على جودة الكلام وانتقاء العبارات والسلامة من آفات اللسان اللفظية؛ كالتردد في نطق بعض الحروف من تمام النعمة، ومثلها السلامة من اللَّحْن في اللسان العربي، والسلامة من الآفات المعنوية؛ كالبذاءة والثرثرة واللَّغو والتأثيم!

- زرتُ مرة مدارس الصُّمِّ، فأحسست بالكلام يحشرج في صدورهم، وصوت النفس يتردد في حلوقهم من غير أن يستطيعوا البوح فيتحول إلى ألمٍ عميق. وأشد منهم ألمًا مَن يعرض له جلطة، أو حادث، فيعجز عن الحديث والرد والجواب والتعبير، فترى وجهه يتمعَّر ويتغيَّر ويتلوَّن.

وقريب من هذا وذاك مَن لا يجد أنيسًا يثق به، ويطمئن إليه، ويبثه شكواه، فينطوي على نفسه: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. ←

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

- فضجيج الصمت هو الكلام الثقيل الذي لم يقل، وبكاء القلب هو الحزن الذي لا يندلق من العيون.. بل يتراكم في القلب حتى يذيبه.. كما قال

الأديب الزيَّات في رثائه الموجع لابنه «رجاء»:

- «أفي مثل تحية العجلان يصمت الروض الغَرِد، ويسكن البيت اللاعب، ويقبح الوجود الجميل؟!

حنانيك يا لطيف! ما هذا اللَّهيب الغريب الذي يهب على غشاء الصدر ومَراقِّ البطن فيرمض الحشا ويذيب لفائف القلب؟!

إن قلبي ينزف من عيني عبرات بعضها صامت وبعضها معول! فهل لبيان الدمع ترجمان ولعويل الثاكل ألحان. إن اللغة كون محدود فهل تترجم اللانهاية؟!»[٤٢].

- والصمت الطويل على الأحزان قد يتحوَّل إلى علة تُثقل القلب، وتعمي البصر، وتصم الأذن، وتطرد النوم، وتُذهِب القدرة وتعجل بالموت:

- كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْـمَوتَ شَافِيًا[٤٣]!

البيان ميزة الإنسان، وله أدوات حسية جسدية مادية؛ الحنجرة واللسان والأسنان والحنك وتوابع ذلك؛ ولذا تختلف حنجرة الإنسان عن باقي الكائنات..

وله أدوات عقلية معرفية تظهر في الحفظ، والفهم، والوعي، والتمييز بين الأشياء، وإدراك الرموز.

سمعت مرةً من شيخي الراحل صالح الحصين رحمه الله من مقوله أو منقوله أن اللغة تفكير ناطق، والتفكير لغة صامتة.

والذين يزعمون أن أصل اللغة هو تقليد الإنسان لَمن حوله من الطيور والحيوانات، وما حوله من أصوات الطبيعة؛ كحفيف الأشجار، وخرير المياه.. ينسون أن الطيور والحيوانات لم تأخذ لغتها مما حولها، بل ألهمها خالقها منطقًا معبِّرًا عن حاجتها: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

وسمَّى الله ما صدر من النملة: (قولًا)، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا

مَسَاكِنَكُمْ... فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

وأصوات الحيوانات تكون تعبيرًا عن الخوف أو طلب النجدة أو الجوع أو طلب التزاوج أو الاحتجاج، وهي تتواصل بينها بهذه اللغة، ويتلقى عنها هذه الرسائل رعاتها والقريبون منها.

ولا يزال علماء الحيوان والطير يبحثون في طبيعة تواصلها فيما بينها مما لا يزال محجوبًا عن البشر..

- لغة آدم إلهامٌ ربَّاني وتفَرُّدٌ إنساني.
- وهي الركن الأساس في الحضارة والخلافة والعمران.

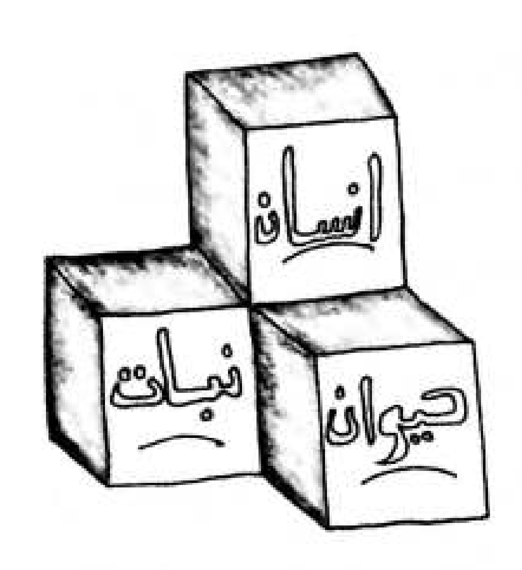
وتنوع اللغات كتنوع الشعوب والقبائل، أداة للتواصل والتثاقف والتبادل المعرفي، وبغض النظر عن كلام الإمام ابن تيمية في كراهة التحدث بغير العربية وضرره، إلا أن الظروف الإنسانية والحضارية تغيَّرت اليوم وأصبح تعلُّم اللغات ضرورة للشعوب الراغبة في خوض السباق الحضاري والاستعداد للتأثر والتأثير الإيجابي، وتدريسها للصغار مهم؛ لأن الطفولة هي الفترة الذهبية لتَلقِّي اللغة.

حجب كثيرين منا عن تعلم اللغات مبكرًا حديثٌ مكذوبٌ يتداوله العامة: **«لا تتكلَّموا بالأعجمية؛ فإنه يورثُ النفاقَ»**.

- وطالما شعرتُ بالندم على فوات تعلم اللغة الإنجليزية مما صنع حاجزًا كبيرًا عن أناس كان من الممكن أن أستفيد منهم أو أفيدهم، والمحاولات المتأخرة قد لا تعطيك أكثر من (أمشّي نفسي!)..

على أن هذا التعلُّم المهم والضروري يجب ألا يُضعف اعتزازنا بلغة الضاد، لغة القرآن، لغة أهل الجنة، لغة آدم؛ كما يقول بعضهم..

فاللغة هوية وانتماء.. اللغة أم.



أسماء

- قصة تعلُّق قيس بن المُلَوَّح بليلى العامرية؛ من الأخبار العجيبة المعروفة تاريخيًّا؛ كما ذكر الذهبي، والمؤرِّخون[٤٤]، وكانوا بنجد زمن الدولة الأموية، ومن جميل معانيه قوله:

تَعَلَّقْتُ لَيْلَى وَهِيَ غِرٌّ صَغِيرَةٌ ... وَلَمْ يَبْدُ لِلأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ

صَغِيرَيْنِ نَرْعَى الْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا ... إِلَى الْيَوْمِ لَمْ نَكْبُرْ وَلَمْ تَكْبُرِ الْبَهْمُ[٤٥]

يُروى أن ابن أبي مُليكة المؤذِّن سمع مغنّيًا من دار العاص بن وائل يترنَّم بهذه الأبيات فأعجبته، ثم ذهب ليؤذِّن فأراد أن يقول: حيَّ على الصلاة، فقال: حيَّ على البَهم، حتى سمعه أهل مكة، فغدا يعتذر إليهم[٤٦].

يُروى أن والد قيس حجَّ به لعله يرعوي ويفيق، فسمع وهو بمنى رجلًا ينادي بنته: يا ليلى.. فصاح قائلًا:

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالخَيْفِ مِنْ مِنًى ... فَهَيَّجَ أَشْجَانَ الفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي(٧)

كانت حبيبته ليلى العامرية، وكان يحب ترديد اسمها ويقول:

وَلَمَّا تَلَاقَيْنَا عَلَى سَفْحِ رَامَةٍ ... وَجَدتُ بَنَانَ العَامِرِيَّةِ أَحْمَرَا(٨)

وكان يقول:

أُحِبُّ مِنَ الأَسْمَاءِ مَا وَافَقَ اسْمَهَا ... وأَشْبَهَهُ أَوْ كَانَ مِنْهُ مُدَانِيَا(٩)

ولا تكاد قصيدة من قصائده تخلو من ذكر اسمها، وله ديوان مطبوع.

ولا غرابة أن يدخل في شعر المجنون ما ليس منه، ولكن أصل القصة ثابت مشهور، خلافًا لما زعمه الدكتور طه حسين.

الإنسان يحب الشخص فيحب الاسم، ويحب كل ما يتصل به؛ ولذا خلَّدت البشرية أسماء الأنبياء والعظماء والأبطال والمبدعين، ولكنها خلّدت أيضًا - ولكن بالذم- أسماء المجرمين والقتلة والطغاة..

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

علَّم تعالى آدم أسماء الأشياء وألهمه توليد الأسماء، وفكرة التسمية ذاتها، وأعطاه القدرة على ابتكار الأسماء المناسبة للأشياء، فلو لم يكن لها أسماء فكيف نعرفها وكيف نحدِّدها للآخرين؟ سنكون مضطرين لجلبها والإشارة إليها، وكيف لنا أن نجلب البحر أو القمر أو الصحراء أو الأموات؟!

ولذا صرنا نسمِّي كل شيء حتى الشوارع، والبيوت، والغرف، والقطط، والأشجار، وما لا يحتاج إلى أسماء؛ لأن فكرة التسمية تريحنا من عناء طويل!

بعضهم يقول: علَّم آدمَ أسماء كل شيء، والأقرب: أنه علَّمه أسماء الأشياء المتاحة المتوافرة عنده، وأهمها: أسماء الله الحسنى، ومنها معرفته

باسم نفسه، ومعرفته باسم حواء؛ لأنها خلقت من حيٍّ؛ كما قال ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما[٥٠].

معرفة الأسماء ليست منشطًا صوتيًا لغويًا فحسب، كلا؛ بل هي منشط إدراكي معرفي يعني القدرة على معرفة خصائص الأشياء، ووظائفها، ومكوناتها، والفروق بينها، فهي معرفة تقوم على أساسها الحضارة، وواضح أن هذا التعريف هو لتأهيل آدم للخلافة في الأرض.

معرفة الأسماء تقتضي معرفة الدلالة واللغة والقدرة على تخيُّل الأشياء وتصوُّرها، وعلى النطق بحروفها وأسمائها.

ميَّز الله آدم بالعلم، وأراد منه أن يسعى ويطلب المزيد، أما رواية العهد القديم فهي توحي بذم المعرفة، وأن الأبوين أكلا من شجرة معرفة الخير والشر فطردا من الجنة، المعرفة الحقة سبب للنجاة، وليست سببًا للحرمان والطرد.

نجح آدم فيما عجزت عنه الملائكة، واعتذرت بأنه لا علم لها لأن الله لم يُعَلِّمْها.

إدراك آدم للأشياء التي حوله والمتعلِّقة بالخلافة في الأرض تفصيلي، وإدراك الملائكة كُلِّي تعميمي، فهي ميزة آدمية وفضيلة بشرية واصطفاء ربَّاني؛ ولذا تولَّى آدم مهمة إخبار الملائكة بأسماء الأشياء!

ولذا كانت الموسوعية والمعرفة متصلة بحفظ الأسماء وإدراك معانيها، والذين يحفظون أسماء الناس ومعلوماتهم هم الأكثر قربًا منهم وتأثيرًا فيهم.

معظم كلامنا أسماء، وروابط بين الأسماء؛ ولذا كان أول ما نطق به آدم: «الحمد لله رب العالمين»[٥١].

(الحمد) اسم، و(الله) اسمٌ لذاته سبحانه، و(الربّ) اسم، و(العالم) أو

(العوالم) أو (العالمون) أسماء.

وحين نقول: الكلام اسم وفعل وحرف، فهذا يحتمل أن الاسم هو الأصل، وأن الأفعال والحروف مشتقة منه، والأفعال صادرة عن أشخاص، والحروف روابط..

حين أخبرني طفلي بأنه يحفظ أسماء صغار الغنم والإبل والبقر، بُهرت من ذاكرته، وأدركت أنه يتكلم بمعلومات صحيحة، ولكني لم أكن أحفظ تلك الأسماء، فذهبت أتعرَّف أسماء صغار الحيوانات والطيور وألقابها عند العرب مثل: صغير المعز: العَنَاق، صغير الأسد: الشِّبْل...

اسألنا نحن الفلاحين عن التمر تجد أسماء أنواعه، وخصائص كل نوع، وما نطلقه عليه في كل مرحلة، واسم الرَّطب واليابس منه، واسم المتفرِّق والمتجمِّع.. بينما عامة الناس لا تعرف إلَّا التمر فحسب.

واسألنا نحن البدو عن المطر، وأشجار البادية ونباتاتها، وهوامها وحيواناتها، وألوانها وأمراضها وأعراضها..

اذهب لليابان تجد معرفة أسماء المخترعات؛ كما قال حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:

وَسِـعْتُ كِتَابَ اللهِ لَفْظًا وَغَايَةً وَمَا ضِقْتُ عَن آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ

فَكَيْفَ أَضِيقُ اليَوْمَ عن وَصْفِ آلَةٍ وَتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتِ(٥٢)

اذهب للإسكيمو في المناطق القطبية تجد مئات الأسماء للثلج والجليد، بينما يفتقرون إلى الألوان الأخرى، مثل الأحمر؛ لأنهم قلَّما يرون الشفق الأحمر.

الأشياء التي نحفظها من التاريخ هي عبارة عن أسماء؛ اللغات، المدن، حتى النظريات تحوَّلت إلى أسماء؛ هذه نظرية آينشتاين، أو نظرية

فيثاغورس، المباني تحولت إلى أسماء، فهذا قصر الخَوَرْنَق والسَّدِيْر والحَضْر والمَضْمَك، والمعارك، والدول، والأيام، والسنين، والكتب، والمدارس.
أكثر حالات الجدل الدائم مرتبطة بأسماء، وأنت قد تلغي شخصًا بجرة قلم دون أن تُكلِّف نفسك عناء أن تقرأ عنه أو تبحث أو تتأكَّد من شخصيته، ويمكن أن ترفع شخصًا دون أن تبحث عنه؛ لأن الجدل يتمحور حول إنسان ممثَّل بـ(اسم)..
ذات مرة كنت أبحث عن (ابن تيمية)، وضعت اسمه في (Google)، فوجدت شيئًا مرعبًا مذهلًا؛ المؤيِّد، والمعارض، والمحب، والمبغض، والذي يعتبره من أعظم الأولياء، وأكبر العباقرة، والذي يحاول أن يخرجه من الإسلام.. وجدلًا في تفاصيله بحيث تحس بأنك لا تقرأ عن شخص يرقد في قبره منذ ثمانمائة سنة، وإنما عن حيٍّ حاضر له دوي أكثر بكثير من عامة الأحياء!
المرء يحاكي اسمه ويتفاعل معه ويذوب فيه حتى يصعب الفصل بين الاسم اللفظ، وبين المسمى المخلوق من لحم ودم، فأين هي حدود الاسم اللفظي، وأين هي حدود الجسد والروح، حدود الإنسان؟
الإيمان، الحب، التفاؤل، الأمل، الرضا، السلام، السعادة، الإحسان، التسامح..
التكفير، التخوين، التحوين (وصف الناس بالحيوانية)، التنفيق (اتهام الناس بالنفاق)..
أكثر الكلمات تأثيرًا في أشخاصنا وتحديدًا لوجهتنا وصياغة لمجموعاتنا.
أجمل الأسماء عندي: محمد، وعبد الله، أول ولد سميته: معاذًا؛ لأني مذ كنتُ طالبًا في الثانوية أحب التكني بأبي معاذ، ونشرت قصائد مبكِّرة

باسم أبي معاذ الخالدي.

عبد الرحمن فقدته في حادث سيارة - جعله الله شفيعًا وشهيدًا- ثم سميت آخر على اسمه.

- ليس مطلوبًا أن ننسى الراحلين، بل أن نتذكرهم فيحدث لنا الصبر ويتجدَّد الأجر كلما ذكرناهم.

وهو من الأسماء الفاضلة، فخير الأسماء: عبد الله وعبد الرحمن.

وكذلك أسماء الأنبياء عليهم السلام؛ حيث قال ﷺ: «وُلِدَ لِيَ اللَّيْلَةَ غُلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»(٥٣). وكان بنو إسرائيل يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم، والتسمية بأسماء الآباء جيد حين يكون نوعًا من البر.

قصة تغيير اسم الإنسان إذا أسلم ليس لها أصل إلا في حالة ما إذا كان الاسم معيبًا فيتم تغييره، وإلا فالسنة بقاء الأسماء على ما هي عليه.

وتغيير أسماء مَن أسلموا من غير العرب بأسماء عربية قد يفضي إلى تحويل الدين في نظرهم إلى دين عربي خاص بالعرب، مما يصنع فجوةً بينه وبينهم، وهي عقبة نضعها في طريق من يريد الإسلام.

بعض الذين يسلمون يقومون تلقائيًّا بتغيير أسمائهم لأسباب شخصية، وليس بطلب من غيرهم، فـ(جون) أو (خوان) يتحول إلى يحيى، و(إبراهام) يتحول إلى إبراهيم.

أذكر صديقًا تغيَّر اسم عائلته عندما كان طالبًا في الثانوية، فحدث له صدمة نفسية كادت أن تودي به، لولا لطف الله.

- من الحق على الأبوين العناية بأسماء البنات خاصة، ورب بنت سماها أهلها باسم البقعة التي وُلدت فيها، أو المناسبة، أو باسم غير مقبول اجتماعيًّا، ولو كان مستساغًا في الدائرة الضيقة، فسبَّب لها الاسم عقدة

نفسية وانسحابًا من المجتمع الدراسي أو الوظيفي بسبب السخرية الظاهرة والخفية والتعليقات السلبية التي تُطلق كلما مر الاسم.

مناداة مَن تلقاه باسمه مدعاة للسرور، وسبب للتقارب وتعزيز العلاقة.

للأسماء الحسنة تأثير في مسمياتها من البشر والمخلوقات والجمادات، وكان ﷺ يغيِّر الاسم السَّيِّئ إلى الحسن، حتى لو كان اسم جماد(٥٤).

أعظم المعرفة وأنفعها معرفة الله.

«الله» المفردة التي انتظمت المعجم كله.

«الله» الاسم الذي نقوله فتتحول الصحراء إلى حديقة، والعطش إلى رِي، والفقر إلى غنى، والهزيمة إلى انتصار، والضيق إلى سعة، واليأس إلى ثقة، والموت إلى حياة..

كيف السبيل إلى معرفته وقربه ومناجاته إلا بمعرفة أسمائه، وله من الأسماء ما لا ينحصر ولا ينتهي، وما لا يعرفه مَلَك مقرَّب ولا نبيٌّ مُرسَل، فاللهم لك الحمد لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك..

ومن أسمائه (٩٩) اسمًا وردت في الكتاب والسُّنة: «**مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٥٥)!

حين يخر النبيُّ ﷺ ساجدًا يوم القيامة يفتح الله عليه بمحامد وثناءات لم يكن يعلمها من قبل، فيقول الله له: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»(٥٦).

ومن الدعاء المأثور: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ...**»(٥٧).

طريق آدم في العودة إلى الجنة يمر عبر أسماء، والجنة لها أسماء فهي: الجنة، وجنة الخلد، وجنة المأوى، وجنات عدن، وجنات النعيم، وجنات الفردوس، والحسنى، ودار السلام، ودار المتقين، والغرفة، ودار المُقامة، ودار القرار، والمقام الأمين، ومقعد الصدق، وقدم الصدق.

وأهلها ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، فليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماءُ.

0000

وطاب نعيمها...



تعليم

ا يد أمي كانت تمسك بأصابعي الغضَّة وتصعد بي دَرَج البيت الصغير في القرية، وتلقِّنني مع كل درجة كلمة: بسم الله، الرحمن، الرحيم.. ويبقى المزيد من الزُّلَف فتكمل: العلي، العظيم..

تعليم عبر الاحتضان والحب، وفي بيئة محفوفة بالعطف والحنان..

مدرسة القرية كانت محضنًا أبويًّا وامتدادًا لتربية المنزل.. وكأن المدرسة بل القرية أسرة واحدة!

مكتبتي المنزلية المبكِّرة حوت كتبًا؛ كـ(فقه السنة)، و(رياض الصالحين)، و(ابن كثير)، إلى(السندباد)، و(الزير سالم)، و(قيس وليلى)، وقصص المغارات والكنوز..

طفلي اليوم يبكي كل صباح ويقترب مني محاولًا التجرؤ على إقناعي بأن مغصًا في بطنه، أو ضربةً في كوعه تقتضي أن يغيب عن المدرسة!

نحن إذن لم نغرس فيهم الميزة الأولى عند أبيهم آدم: الرغبة في التعلم

والاكتشاف و(الدهشة) من المعرفة الجديدة، ولا الحرية المسئولة، ولم نجرِ عملية التعليم في جو عائلي تتكامل فيه الأطراف، كما حدث هناك..

تلقَّى آدم تعليمه الأساس في أفضل بيئة (الجنة)، وتمكَّن من العيش على الأرض بسلام، كانت الأرض له مدرسة أخرى ولم تكن منفًى!

تعبير القرآن عن مزية آدم كان بـ(التعلم) وليس بـ(العقل)، والعقل هو الأداة الأساس في التعليم.

كان مزوَّدًا بمَلَكة التفكير والنظر والتحليل والفهم والفقه واللغة، ولم يأتِ لفظ العقل في نصوص الشريعة كمصدر، بل جاء هو ومرادفاته كفعل: (يَعْقِلُون، يَتَفَكَّرُون، يَفْقَهُون، يَعْلَمُون، يَنظُرُونَ..).

ثَمَّ غموض في مفهوم «العقل» إذ يُطلق على تلك الأداة، ويُطلق على ما تنتجه من علوم ومعارف، وحقائق وظنون، وموروثات ثقافية وحضارية، وأنماط تفكير.

العلوم العملية التطبيقية هي سر التفوق الإنساني وليس النظريات الفلسفية المجرَّدة.

فُضِّل آدم بالعلم، ولذا سجدت له الملائكة، وفُضِّل بنو آدم بعضهم على بعض بالعلم، فـ«**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ**».

كان في جيناته حروف أسبقية فطرية يبحث فيها عن حاجاته والمعرفة أهم حاجاته؛ كما يبحث المولود الجديد عن الثدي!

كان سالمًا من العقل الجمعي والموروث العريض؛ الذي كبَّل بنيه فيما بعد فأربك تفاعلهم، وعطَّل مَلَكاتهم وحرَّف فطرتهم عن مسارها، ووضع القيود والأغلال في أعناقهم، فلم يعد أكثرهم يفرِّق بين جيِّده ورديئه!

تعلَّم آدم حروف الحمد على النعم، ومنها نعمة الحياة، فحين عطس قال: «الحمد لله رب العالمين». معرفة الله بالقلب، والشعور بقربه ولطفه، وحضور معاني صفاته هي الأهم، وهي الركن الأول في الهوية الإنسانية.

استقبل الإلهام الرباني بمعرفة اللغات والأسماء وأعلن هذا العلم، وهو بهذا يثبت قدرته على التعليم وجدارته به وجرأته عليه أمام مَن لا يحصيهم إلا الله من الملائكة، والعجب أن التعقيب القرآني جاء بلفظ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فاختيار آدم كان على علم، زكَّاه الاختبار، وسؤال الملائكة كان سؤال مَن لا يعلم لَمن يعلم: «مَا تَعْجَبُونَ مِنْ جَاهِلٍ يَسْأَلُ عَالِمًا؟».

تعلَّم من الألم والندم، والتجربة والخطأ؛ فأسرع بالتوبة والتنصُّل والاستغفار.. وحوَّل الفشل والإخفاق إلى نجاح واستعادة للموقع، وتَقَدَّمَ أكثر..

تعلَّم وزوجه الخصف؛ وهو نوع من الصناعة احتاج إليه حين بدت له عورته، وسَرْعان ما اهتدى لفكرة الأخذ من ورق الشجر، فالحاجة أم الاختراع، والمعرفة يجب أن تكون مواكبة للحاجات المتجددة للإنسان، ولو كان الإنسان سببًا في حدوث الحاجات بتجاوزه وظلمه..

تعلَّم وزوجه طبيعة العلاقة بينهما، ونطقا أبجدية الحب الأولى بفصاحة لا تردد فيها، ومضيا مع الفطرة الهادية المهدية صوب الوصال الجسدي والروحي والعاطفي والتكامل والإنجاب: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

تابعوا أمر الحمل بدهشة رائعة، وفرحة غامرة، وداخلهم شعور يعز

وصفه لرؤية وجه التوأم الأول!

ربما سقط جنين فتعلَّموا منه مراحل نموه، أو كان غير سوي الخلقة فخافوا على المواليد من بعده؛ إذ هم يدركون أنهم على الأرض الجارية وفق السنن والنواميس والنظم الإلهية، وليسوا في جنة يكون الحمل فيها والوضع والنمو في لحظة واحدة.. ولهذا تضرَّعا إلى الله بالدعاء.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

والأقرب أن مقصود الصلاح هنا أن يكون المولود سليمًا معافى صحيحًا من غير عِلَّة ولا إعاقة ولا تشويه.

والقصة المروية بأن الشيطان وسوس لآدم وحواء واقترح عليهما تسمية المولود: عبد الحارث؛ حتى يسلم من الأذى، روايةٌ مضطربة المتن والإسناد[٥٨]، ولو صحَّت لكانت ذنبًا أعظم من أكلهما من الشجرة وأولى بالاعتذار.

فالجزء الثاني من الآية متعلِّق بكل أبوين أشركا مع الله غيره، وليس بآدم وحواء على التعيين، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ولذا قال الشيخ السعدي: «أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس»[٥٩].

تعلَّم قابيل من الغراب طريقة الدفن، والغراب طائر فاسق، وقابيل فاسق يتعلم من فاسق، فالعلم ليس محظورًا عن أحد، ويُؤخذ من كل أحد.

وتعلَّم النبي المعصوم سليمان عليه السلام من الهدهد، وتحقَّق من نبئه

وبنى عليه..

الزلازل والبراكين وبعض الظواهر يحس بها الحيوان قبل الإنسان..

الحضارة تراكم إنساني، وأسعد الناس بها مَن أسهم في بنائها، وانفتح على خيرها، وتخفَّف من شرها.

والأفراد كما الأمم يجب أن يقبسوا من أصلهم الأول ديمومة التعلم والتعليم، وطلب الزيادة من العلم، والتعبد بالمعرفة حتى الموت ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.



خيال

أطفالًا كنا نصنع بيوتًا وحدائق من لا شيء، نبنيها في الهواء والواقع الافتراضي، ثم نحاكيها في الواقع المعاش.

تلك الكلمات التي نكتبها على شواطئ الحياة فتمحوها أمواج النسيان تخاتلنا كل مرَّة فتعود على شكل أحلام حياة ورؤى مستقبل.

أطفالًا شاهدنا الصور أول مرة في مقرر دراسي.. وقبل أن تتسع الفرحة التقت الإرادة المدرسية والإرادة المنزلية على طمس الصور؛ لإفساح المجال لدخول الملائكة حسب رأيهم!

أطفالًا نشعر أحيانًا قليلة بقرب الملائكة حين ننام، وحين نمرض، وحين نخاف، وحين نفتقد الكتف التي تسندنا.

قصص ما قبل النوم؛ قصص الجِنِّيات والعوالم المسحورة، والمغارات والحيوانات المسكونة بالجن والعُشبان الطائرة؛ وحدها داعبت خيال طفلٍ قروي..

الثلاثة الأولاد صاروا بقدرة قادر أساتذةً وجعلوا من خلفية الباب الخشبي سبورة، واستخدموا بقايا طباشير مختلسٍ من المدرسة، وصنعوا أسماء وهمية لطلاب يُدرِّسونهم؛ هذا مؤدَّب، وهذا غبي، وهذا مشاغب، وهذا تم طرده..!

لا زالوا إلى اليوم حين يجتمعون يتذاكرون تلاميذهم الوهميين وانطباعاتهم السلبية والإيجابية عنهم!

ولعلهم نسوا أشياء كثيرة ومهمة حدثت فعلًا أمامهم..

لم يحدث أن قرأتُ كتابًا في تنشيط الخيال أو حضرت دورة.

في الثقافة الشرعية تزخر النصوص القرآنية بمفردات خاصة كأنها مصمَّمة لتحفيز الخيال؛ القصص، وأحداث القيامة، والوعود المستقبلية.

أكثر ما يحرِّك الخشوع في قلبي تصور الحدث وكأنه يقع أمامي وكأنني جزء منه، يحدث هذا مع قصص السابقين ومع أحداث يوم الدين..

وسيلة آدم لمعرفة الأسماء هي التخيُّل وبغيرها لا بد من إحضار الأشياء لمعرفتها؛ الجبل، والبحر، والكتاب، والشجرة، أسماء نسمعها فنتخيَّل صورتها ونعرف المقصود.

الخيال أهم من المعرفة ومن التعليم، وهو أساس التعليم والمعرفة.

الشيطان خاطب آدم وحواء بمفردات خيالية لم يروها.

الخُلْد..

الموت..

ما ليس بحسن.

لم يكتف بإلقاء الفكرة مجردة، بل كرَّرها وأكَّدها وحلف عليها، ولبَّسها أجمل الحلل؛ حتى استقرت في قلبيهما: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

يعمل الشيطان على تفعيل الخيال السلبي، وتسليط الضوء عليه، فهو يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء.

في قصة الشجرة والأكلة المشتركة أتذكَّر الخيال المتعلِّق بصلة الذكر والأنثى، التخيل يلهب المشاعر ويلح على الأحاسيس، ويصنع صورة أجمل من الواقع، ويعزل الجوانب المكروهة والمزعجة والمؤذية والمخاوف والمخاطر والآلام بشكل مؤقت.. ولذا يقع الإنسان في الفخ ثم يصحو..

الخيال هنا ساحرٌ مبدع ينقل لك الأشياء البعيدة ويصوِّرها ويلوِّنها حتى تبدو أحسن من أحسن منها!

في التدخين تكون الولاعات الذهبية والطفايات والسجاير والنكهات أكثر إبهاجًا، زد عليها الذكريات والرفقاء والأجواء؛ التي يستدعيها الخيال من مخزن الذاكرة مجردةً من مصاحباتها السلبية..

وغالبًا ما تكون مقدمات الشيء الجميل أحسن منه.

كما أن مخاوف الشيء المحذور أعظم منه وأكثر إثارة للقلق.

الخيال السلبي هو إلحاح أفكار مخيفة أو مقلقة مما يؤثِّر في الإدراك؛ سواء تعلق الأمر بالطهارة والعبادة، أو بالمعاملة، أو بالإحساس والخوف من شيء ما..

الخوف من الإخفاق والفشل هو إلحاح صور المعوقات حتى تصير هاجسًا يمنع التقدير والتفكير والمقارنة المعتدلة..

حين تضعف الإضاءةَ عن الاحتمالات السلبية؛ تغافلًا وإعراضًا وتجنبًا للخوض فيها والحديث عنها.. تخمل وتتراجع ثم تذبل أو تموت.

وحين تُسلَّط عليها ضوء التخيُّل والتصور والتفكير تصبح هاجسًا يلح ويتزايد..

خيال الطيران لم يتأخر للقرن السادس الميلادي، ولا كان فكرة في الصين، أو عند عباس بن فرناس.

في التنزيل: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

نَفْيُ العلم عن المولود؛ دليل على الاستعداد والقابلية للتعليم، ولذا عقَّب بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أدوات المعرفة: النظر والسمع والعقل (الفؤاد)، ومن ذلك ملكات التخيُّل والتفكير والتركيب والإبداع..

وبعدها مباشرة: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء﴾؟.

ومع الطير الذي يشترك البشر في رؤيته ومحاكاته، كان آدم يرى الملائكة تطير ذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع وما شاء الله..

التكيُّف مع الأرض لم يُنْسِ آدم الجنة، فهي منزله الأول وطموحه الآخر، وحلم العودة إليها يراوده ويلح عليه كلما واجه محنة أو لاقى صعوبة، دون أن يصرفه عن التكيُّف مع الأرض والرقي بها، ومحاكاة الحلم الجميل الذي عاشه.

كان دأبه الإصلاح والبناء وعمارة الأرض وتحسينها وتجميلها، ويقال إنه ما قطع شجرة قط؛ ولذا نهى الله ذريته عن إفساد ما أصلح: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

فيما يتعلق بالغيب المحجوب عن آدم كان مؤمنًا به دون أن يسمح لخياله بتصويره، فالله لا تدركه الأبصار، ولا يلحقه وهم ولا خيال، وكل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك، وحين يرفض أحدنا مسألة غيبية صادقة

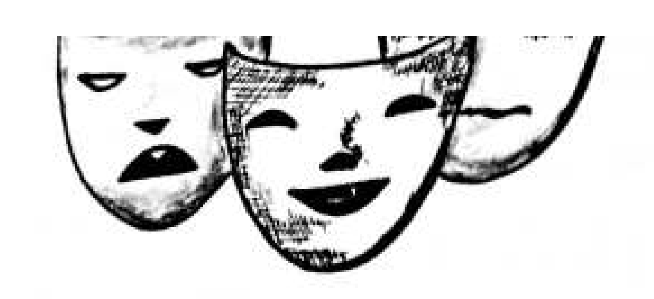
فذلك لأنه تصوَّرها وتخيَّلها أولًا، ثم استبعدها ثانيًا، وكان جديرًا به أن ينفي الصورة التي انقدحت في عقله، ورسمت ما لا يمكن رسمه، وأخضعت الغيب لمنطق الطبيعة والمادة وفيزياء الكون المشهود..

كما زُوِّد آدم بمَلَكة الخيال والتصور، زُوِّد بملكة التجريد، فالصدق والحب والمعارف والمعاني أشياء لا يبحث العقل عن صورها ولا يتخيلها.

ينقدح السؤال، ويعجز الخيال، ويقول الكليم: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فيأتيه الرد: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي..﴾.

تركيب العقل البشري الحالي مصمَّم لعمارة الكون وكشف نواميسه وسننه، وهو مسلَّط على ما حوله مما خُلق له، وما لم يؤمن بالآخرة فسيضرب في التّيه، ويسخر من حقائق الغيب وقطعيات الوحي دون أن يملك دليل النفي: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾.

0000



ذاكرة ونسيان!

لقيتُ صديقًا قديمًا، فذاكرته في بعض أمور كانت بيننا فضحك وقال:

لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرًا، فإني أنسى عشاي البارحة! ← يمثلني -^-

قلت: نعم؛ ولكن هيهات أن تنسى ذكرياتك الجميلة في حجر أمك، ومداعباتها، وقصصها التي كانت تحكيها..

حفظ الأسماء، والأخبار، والمبادئ، والأفكار؛ إحدى الميزات التي خصَّ الله بها آدم وذريته.

النسيان حدَثٌ طارئ.

نسي آدم معلوماتٍ وأحداثًا مرَّت به نسيانًا مؤقتًا أو نسيانًا دائمًا، ونسي حالة معينة كان يعيشها أول ما سمع كلام الله له، نسي عهدًا قطعه على نفسه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

لم يكن آدم من أولي العزم، ولذلك نسي، وأولو العزم: «نوح، وإبراهيم،

وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليهم وسلم»؛ يقع لهم شيء من النسيان في حياتهم وعباداتهم؛ كما حدث لخاتمهم ﷺ، وهو النسيان الذي يرفع عنهم المؤاخذة والعتب؛ لأنهم فعلوا أو تركوا من غير قصد.

أما نسيان آدم بالأكل من الشجرة فكان مقصودًا، وكان حالة استسلام لإغراء الشيطان وتصديقًا لزعمه، ولذا نزلت رتبة آدم عنهم.

هل نسيانه نعمة؟ أو رحمة؟ أو زلَّة مكتوبة لنفاذ القدر باستخلاف البشر؟

كانت حالة ضعف أو غفلة أو ذهول، حالة صراع وتردد بين الإقدام والإحجام..

حالة قصور في التذكر بسبب تحرك غريزة أخرى وسيطرتها، مثل: غريزة الاستكشاف أو حب البقاء أو التملك أو الشهوة..

نسي الحال التي كان عليها عندما عهد الله إليه.

- كثيرون يمرون بمرحلة إشراق وحماس ثم يعتريهم فتور؛ يجعل التأويل والتملُّص والبحث عن المخارج وسيلة للتجاوز.

لم ينس المعلومة، لكن نسي أهميتها وجدارتها وشعوره القوي تجاهها حين أدركها أول مرة.

في الأرض كان آدم وزوجه محتاجين إلى أن يتناسوا ما كانوا عليه في الجنة، ليتكيَّفوا مع الأرض وطبيعتها، ولا ينكفئوا على أنفسهم، دون أن ينسوا ذنبهم ولو للحظة.

ما هو النسيان؟

هو أن تفقد معلومة.

أو تفقد حيوية المعلومة وحرارتها وعمقها في قلبك وتأثيرها عليك.

- تشرق الفكرة عندي - أحيانًا- بصورة رائعة، وأتحدَّث عنها مع أصدقائي

بطريقة مؤثِّرة وفعَّالة ومقنعة..

- وبعد فترة أستدعي الفكرة فتأتي خاملة هامدة غير مؤثِّرة، حتى كأنها غير الفكرة الأولى.

بعض الكتب ليس فيها كثير معلومات، لكن فيها روح.

ولذا كانت الكتابة، وكان أول مَن خطَّ بالقلم إدريس عليه السلام، وهو من الأنبياء قريبي العهد بآدم، وسُمِّي إدريس؛ لكثرة دراسته للكتاب[٦٠].

نسيان الصداقة، والحُرُّ - كما قال الشافعي - مَن راعَى وِدَادَ لحظة، وانْتَمَى لِمَن أفادَه لفظةً[٦١]؛ اتصال القلب بالقلب، وهج الرؤية الأولى، والانطباع الجميل، والتعلُّق المفاجئ.

- نسيان المصيبة التي تبدأ كبيرة ثم تصغر عكس ناموس الأشياء التي تبدأ صغيرة ثم تكبر.

- نسيان المبادئ والقيم؛ التي طالما آمن بها وضحَّى في سبيلها، الحَوْر بعد الكَوْر، الرغاء بعد الهدير!

- من الجميل نسيان المعروف الصادر منك إلى غيرك؛ «انسه وانس أنك نسيته»، واستذكار المعروف الصادر من غيرك إليك، «اكتب المعروف على الصخر والإساءة على البحر».

والرجل يغفر وينسى، والمرأة تغفر ولا تنسى وجعها، فذاكرتها العاطفية لا تساعدها على النسيان!

بقي ذنب آدم أمام عينيه حتى هرب من ربه حياءً وخجلًا.

النسيان كان قبل، والذكر الدائم كان بعد، وظل إلى الأبد حتى يوم القيامة يذكر ذنبه ويعتذر عن الشفاعة!

الخطير أن يحيط النسيان بالعبد قبل الذنب وبعده، ويمضي قُدُمًا لا

يلوي على شيء.

تميز آدم بالذاكرة الإنسانية والحفظ، ولذا وُصف بالنسيان، النسيان استثناء في مقابل تعليم الأسماء كلها وإلهام اللغة، كما المعصية استثناء والأصل الاستقامة.

نسي ونسيت ذريته؛ نسي المعلومة المتعلِّقة بإعطائه داود (٤٠ سنة) من عمره؛ يُروى عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ مِنْ ذَرَارِيَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَجَعَلَ يَعْرِضُ ذُرِّيَّتَهُ عَلَيْهِ، فَرَأَى فِيهِمْ رَجُلًا يَزْهَرُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ، قَالَ: أَيْ رَبِّ، كَمْ عُمُرُهُ؟ قَالَ سِتُّونَ عَامًا، قَالَ: رَبِّ، زِدْ فِي عُمْرِهِ. قَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ أَزِيدَهُ مِنْ عُمْرِكَ، وَكَانَ عُمْرُ آدَمَ أَلْفَ عَامٍ، فَزَادَهُ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَلَمَّا احْتُضِرَ آدَمُ وَأَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ لِتَقْبِضَهُ قَالَ: إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ عَامًا، فَقِيلَ: إِنَّكَ قَدْ وَهَبْتَهَا لِابْنِكَ دَاوُدَ. قَالَ: مَا فَعَلْتُ»[٦٢].

«فَأَتَمَّهَا لِدَاوُدَ عليه السلام مِائَةَ سَنَةٍ، وَأَتَمَّهَا لآدَمَ عليه السلام أَلْفَ سَنَةٍ»[٦٣].

كما ورَّث ذريته الذاكرة الجيدة؛ المصممة لبناء الحضارة وتطوير المعرفة، ورَّثهم النسيان المساعد على التكيُّف والتجدُّد وتجاوز العثرات..

كلنا ننسى بعض أعمارنا، أو ننسى العمر كله؛ لأن العمر يطول ويتسع بالإنجاز والتأثير وعمل الخير.. وليس بعدد السنين فحسب.

قَدْ يَهُونُ العُمْرُ إِلَّا سَاعَةً ... وَتَهُونُ الأَرْضُ إِلَّا مَوْضِعا[٦٤]

أضف إلى عمر الطفل عند ولادته سنة فهي أهم مرحلة في حياته، وهي تحدِّد مساره، وصحته، وذكاءه، ومزاجه، وشكله، وأشياء كثيرة في حياته.

— الصينيون يعدُّون العمر منذ الحمل.

الذاكرة انتقائية متنوعة: ذاكرة الأرقام، أو الأسماء، أو الوجوه، أو الأفكار، أو المبادئ.

ما حُفظ في الطفولة يصعب نسيانه، هو نقش على الحجر.

التعويد والتربية لصغير على الأوراد، والصلاة، الكلمة الطيبة، الاعتماد على النفس، خدمة الغير، البر، والكرم، والجود، والفضيلة يحفظ حياته ويزكِّي عمره.

حتى حين يشيخ المرء ويفقد بعض وعيه يظل محتفظا بأخباره وقصصه القديمة، وقد يبوح لجلسائه منها بما لم يسمعوه من قبل!

oooo

أعمارنا أعمالنا —



خلافة



خليفة

كلمة السر التي تبعث الاهتمام والفضول في التعاطي الإعلامي اليوم، راية سوداء تعلن عن نفسها في رقعة محدودة مضطربة، وتصنع الإثارة الكافية للتغرير بشابٍّ لم يخض تجربة الحياة، وتمهِّد لتحريك جماعات وأمم من مواقعها التاريخية لتتحول إلى مخيمات لاجئة داخل بلادها، وتسوّغ الفوضى والتدخلات الأجنبية.

في الاستعمال القرآني ترد كلمة: (خليفة) بالمفهوم الحياتي البنائي الشامل.

مهمة الإنسان عمارة الأرض، ولهذا خُلق: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

الملائكة ظنوا أنفسهم أهلًا للخلافة بالتسبيح والتقديس، فكشف اللهُ لهم أن المهمة لا تتم بمجرد هذا، هي مهمة البناء والكدح والإحياء، مهمة لا يقوم بها إلا مَن كان مخلوقًا من الأرض!

المهمة منوطةٌ بمَن أصله الطين والتراب والماء.

الخلافة في الأرض هي عبادة آدم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فالصلاة والذكر، وإصلاح الأرض والضرب فيها وكشف أسرارها أعمال صالحة تتعاضد وتتكامل.

الخلافة لا تكون إلا حين يكون هذا الكائن يخلف بعضه بعضًا في عبادة تراكمية اختيارية تقوم على تلك الأمانة العجيبة التي أبت السماوات والأرض والجبال حملها فحملها الإنسان ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. خلافة تقوم على حريّة إرادة هذا الكائن وحرية اختياره: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

الخلافة والاستعمار في الأرض يجعل الكشف والبناء والعلم والاختراع لخدمة الإنسانية مهمة ربانية، وليست أمرًا هامشيًّا أو ثانويًّا.

الإنسان خُلق ليستخلف، وليس ليكون نسخة أخرى من الملائكة.

والاستخلاف هو عمارة الأرض بحسب نظام الله.

التسبيح والذكر عون ومدد لإنجاز المهمة والصبر على تبعاتها وتكاليفها ومشقاتها.

والصلة بالله هي للأمل، والحب، والتسامح، والنجاح، والسعادة في الدنيا والآخرة.

ليست الخلافة مهمة سياسية فحسب، بل هي تكليف معرفي وإنساني واسع.

الله حاضر لا يغيب، وفي حديث السفر: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْـخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ**»(٦٥). والإنسان ليس خليفة عن الله كما يتوهَّم بعضهم، بل هو خليفة من الله.

ويقرب جدًّا أن يكون آدم وذريته خلفًا لسلف من أمم كانت على الأرض وأفسدت وسفكت الدماء، كما في قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ

﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

- وجود حالات سابقة في الأرض ظلمت فأُبيدت أمر ظاهر، وإن اختلف في تفصيله.

تخوُّف الملائكة كان مبنيًّا على مشاهدة وليس مجرد حَدْس، وظاهر السياق أن ثمَّ مخلوقات على الأرض كانت من لحم ودم، ولذلك عرفت الملائكة الدماء وتخوَّفت من سفكها.

تحذير الله لآدم وحواء إن عصوا بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، يحتمل وجود ظالمين يحذر آدم وزوجه أن يكونوا منهم.

قول الشيطان: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، قد يكون تلميحًا إلى المُلْك الذي بلي وباد في الأرض قبل آدم.

- الطبري، والمسعودي، وابن كثير، وغيرهم ذكروا أجناسًا كانت في الأرض قبل آدم.

قال المسعودي: «خلق اللهُ في الأرض قبل آدم (٢٨) أمة على خِلَق مختلفة».

- وفي التنزيل: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾، والجن كانوا قبل الإنس ومعهم مخلوقات أخرى اختلف المؤرِّخون في أسمائها.

نُقل عن محمد بن عليٍّ الباقر أنه قال: قد انقضى قبل آدم ألف آدم. والله أعلم بصحة الخبر، فهو من الإسرائيليات، وانظر ما نقله محمد رشيد رضا في «المنار» في تفسير سورة النساء: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾(٦٦).

تقول بعض الدراسات ونتائج الأحافير بوجود مخلوقات منتصبة القامة كالإنسان قبل آدم، ولكنها أصغر جمجمة وأقل ذكاء.

ومنها ما يسمى بالنندرتالز الذي كشفت عظامه في مواقع أثرية في أوروبا والشرق الأوسط، وتزعم بعض المواقع التي نشرت هذه المعلومات أن

جيناته الوراثية تختلف عن الإنسان الآدمي.

وفي جبال الكرمل (فلسطين) مقابر مختلطة لكلا النوعين، مما يدل على أن ذلك المخلوق بقي على نطاق ضيق، ولفترة محدودة، وهي معلومات متداولة ولا بد من التثبت من صحتها، فليس كل ما يقال عنه (أثبتت الدراسات) هو صحيح قطعًا!

كان ذلك المخلوق، حسب المصادر، همجيًا سفَّاكًا للدماء كما تدل عليه أكوام العظام حول المغارات والكهوف، ولم يكن لديه أسرة بالمعنى الصحيح، ولا كان يلبس ويستر عورته.

واستمر لأحقاب لا يعلمها إلا الله، ثم انقرض لأسباب غير معلومة.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

من خصائص آدم المستخلف سعة العقل والتفكير، وعدم التسرع في النفي القطعي أو الإثبات القطعي إلا بحجة.

حين تقرأ عن مستخلف كان يزاحمنا على الأرض تشعر بالاتساع والتفوق والمزية، وتحس للكون طعمًا مختلفًا.

المعلومة ليست مجرد معرفة، إنها روح، وفرح، وانفعال، وتعاطٍ، وإيجابية، وتغيير، وتوظيف، وحب، وإيمان.

المعلومة هي (بشرى) كما لو بُشِّرت بمولود جديد أو خبر سعيد.

والكثيرون يبادرون برفض وجود مخلوقات في السماوات أو الكواكب أو في الأرض قبلنا أو معنا دون سبب.

عليك ألَّا تُكذِّب بما أخبر الله عنه من وجود الجن والملائكة ونحوها، أما المسكوت فهو قابل للنفي والإثبات، وليست المسألة شرعية يحاسب

عليها العبد يوم القيامة، ولكنها عادة علمية.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.

- سُئل عليٌّ رضي الله عنه: هل الكعبة أول بيت لله؟ قال: «لا، بل قبله بيوت، ولكنه أول بيت وُضع للناس»[٦٧].

○ استصحاب حالة الخليفة الأول حجاب عن الطغيان أيًّا كان، طغيان العلم أو القوة أو المال.

آدم بدأ فردًا وحيدًا مستوحشًا وتوالد وامتد وكثر، وينتهي كذلك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾.

وفي «سورة الانفطار» جمع البداية والنهاية: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾؟، وختم بـ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

○ مع توسيع مفهوم الخلافة، إلَّا أن القصة تؤكِّد أن الإنسان كائن سياسي.

- الإدارة أساس العمارة، ولا بد أن آدم أدار ما حوله من أمر الأسرة وتوزيع الأدوار وحل المشكلات بطريقة مناسبة، وسعى إلى معرفة نواميس الكون من حوله.

حين أغراه الشيطان بالمُلْك كان يدرك أن هذا المعنى يحرِّك وجدانه، وأنه يخاطب غريزة مركوزة فيه، وحين قال: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾، كان يدري أن البشر سيحرصون على ديمومة سلطانهم ويدافعون أسباب الزوال بحكمة حينًا، وبغضب وطغيان حينًا آخر.

○ سبب هلاك السابقين: الفساد، والقتل، وأساس النجاح هو حفظ الحقوق والإصلاح.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾، ولذا كان الله ينصر العَدْلَ ولو كان كافرًا، ولا ينصر الظُّلْمَ ولو كان مسلمًا.

الإنسان كائن مندهش، تحمله الدهشة على المراقبة والمحاكاة والتطوير والاقتباس، وهو سر اكتشاف الكون، وتراكم المعرفة وتداولها بين الأمم، وأحد شروط نجاح الاستخلاف.

في لحظة حماس كنت مهمومًا بالشأن البعيد حيث تنحصر دائرة تأثيري في كلمة.

هذه الكلمة كان يفتقدها القريب مني، ربما بسبب توتر الأعصاب من مشاهدة سياق الأحداث وكيف تسير..

قد يكون القريب أجدر بخيري، وكلمتي الطيبة يجب أن تسمعها زوجتي وبنتي وأختي قبل غيرهم.

قد أغامر في دعم مشروع مسئوليتي فيه محدودة، ونجاحه محتمل، فهل هذا يعفيني من زرع الفَسِيلة الصغيرة في حقلي؟ هل يعفيني من تعاهد طفلي؟ هل يسوغ الجفاء في حق أهلي؟

الخلافة ليست تسلطًا على الناس بالأحكام، فلماذا أقضي جزءًا من عمري في ملاحقة الآخرين واتهامهم وتصنيفهم، ألم يكن الأجدر بي أن أقوم بمهمتي عبر عزل غصن الشوك عن طريقهم؟ وأن أدع أمرهم لخالقهم؟

هل الإحساس الزائد بالاحتساب على الناس يربِّي فينا الفضول وشدة الملاحظة؟

هل هو ينمِّي الحاسة السادسة التي تجعلنا نشم ونتخيَّل ما لم تره أعيننا ولم تسمعه آذاننا؟

لِمَ نلمح الخطوة الأولى، وقد تكون من اللَّمم، فنتوقع أن صاحبها قد أفضى إلى الخطوة العاشرة؟

هبني رأيت امرأً على معصية، أفما كان ستر الله الذي وسعني يسعه؟

كنتُ أظن الخلافة معنى خاصًّا بآدم، أو بأصحاب المسئولية الكبرى، ثم تذكرتُ قول رسول الله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[٦٨].

حتى ذكر الرجل والمرأة والخادم.

سألت نفسي: ما الذي سيتغير في شخصيتي وحياتي وتعاملي مع الأشياء من حولي لو استشعرت مفهوم أنني مستخلف على هذه المسئولية مهما صغرت ومسئول عنها أحَفِظتُ أم ضَيَّعتُ؟ وأن بذلك نجاتي أو عطبي؟

ليبلوكم أيكم
أحسن عملا



هُوِيَّة

إذا كان من المسلَّم أن المسمَّى له حظٌّ من اسمه، فما السر في تسمية آدم ومن بعده بالإنسان؟

١- أهو مشتق من الإيناس بمعنى الإبصار، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾، فهو رآها عن بعد(٦٩)، ومنه: إنسان العين، وهو سوادها، وعليه فالإنسان هو الظاهر المرئي المشاهد، وليس المتخفي كالجن والملائكة؟

٢- أم مأخوذ من الأُنس، وهو ضد الوحشة، فالإنسان كائن اجتماعي يأنس ويؤنس به، وبوجوده أنست الأرض والنبات والجماد: «أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»، وكأن وجوده باح بسرّ هذه المخلوقات وفتق معناها؟

والمتشائمون يقلبون المعاني الإيجابية إلى ضدِّها، فيقول قائلهم:

الإِنْسُ مُشْتَقٌّ مِنَ الأُنْسِ ... وَالحَزْمُ أَنْ تَنْأَى عَنِ الإِنْسِ!

ثِيَابُهُمْ مُلْسٌ وَلَكِنَّهَا ... عَلَى ذِئَابٍ مِنْهُمُ طُلْسِ(٧٠)

والذئب الأطلس هو المائل إلى السواد، فهو يحذّر من الناس فهم عنده كالذئاب..

وعادةً مَن يطلقون هذه الأحكام السلبية يستثنون أنفسهم، وكأنهم ليسوا من فصيلة الآدميين!

أم مأخوذ من النسيان: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، كما اختاره ابن عباس رضي الله عنهما، والمَعَرِّي والكوفيون، ومع أن النسيان استثناء إلا أنه يثبت القاعدة الأصلية في ذاكرة آدم وعقله وحفظه، كما قال الشاعر:

وَمَا سُمِّيَ الإِنْسَانُ إِلَّا لِنَسْيِهِ ... وَلَا القَلْبُ إِلا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ[٧١]

وقال أبو الفتح البُستي:

يَا أَكْثَرَ النَّاسِ إِحْسَانًا إِلَى النَّاسِ ... وَأَكْثَرَ النَّاسِ إِغْضَاءً عَنِ النَّاسِي

نَسِيتُ عَهْدَكَ وَالنِّسْيَانُ مُغْتَفَرٌ ... فَاغْفِرْ فَأَوَّلُ نَاسٍ أَوَّلُ النَّاسِ[٧٢]

ثَمَّ ميزة أخرى لآدم في وعيه وذاكرته وعقله الظاهر والباطن..

أم مشتق من النَّوَس، وهي الحركة، فالإنسان كائن مكتنز بالطاقة مندفع إلى الحركة حتى وهو طفل؟

التكليف بمهام الخلافة متسق مع هذه الصفة الفطرية.

ولعله لكل ذلك سُمِّي إنسانًا:

١ - فالله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وقامته المنتصبة وأطرافه ومفاصله تميِّزه عن سائر المخلوقات، وفي تفسير: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة وإبراهيم النَّخَعي والضَّحَّاك ومجاهد وغيرهم ما محصله: خُلق منتصب القامة معتدلًا قائمًا على قدميه.

ولعل هذا لا يعارض المعنى الآخر للآية الذي هو الشدة والعناء والنَّصب والتعب ومقاساة الشدائد[٧٣]؛ فطبيعة الخلق الإلهي لهذا المستخلف لا بد أنها متناسبة مع التكليفات والمهام والمصاعب التي يلقاها.

الكَبَد ليس رديفًا للاكتئاب والتشاؤم والإحباط كما يظنه قوم.

٢- والدماغ هو أعقد أجزاء الإنسان، وهو المسئول عن معظم العمليات الذهنية كالتفكير واللغة والتعلم والوعي والانتباه والتخطيط واتخاذ القرار وحل المشكلات والإدراك الحسي، وهو يحرِّك القامة والأطراف ويتحكَّم فيها.

حتى العمليات العاطفية والنفسية متصلة به، فضلًا عن التعقل والحفظ والنسيان.

٣- ولأن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه فهو قادر على تنظيم العلاقات، بدءًا من الأسرة، وانتهاءً بالأمة، مرورًا بالتشكلات الفكرية والاجتماعية والصداقات.

٤- ولذلك فالإنسان كائن حضاري منذ البداية، ويعرف الناس حضارات ما قبل التاريخ وآثارها، كبرج بابل وبوابة عشتار وحدائق بابل المعلَّقة.. وفي عُمان كان المرشد يشرح لنا حول آثار هناك ويعزو بعضها لفترة ما قبل التاريخ.

٥- العواطف والمشاعر من مميزات السلوك البشري، الحب والغرام، والحقد والكره، والغضب والرضا، يضحي الإنسان حتى كأنه يفنى عن ذاته، ويخون حتى كأنه بلا ضمير، يحب حتى الثُّمالة، ويكره حتى المَقت، ينغمس في الحياة إحساسًا بالجمال وتذوقًا لتجلياته، وإبداعًا لفظيًّا وحركيًّا، ويتنكر للحياة فيتحول إلى وحش كاسر يقتل الملايين بلا رحمة

في حرب عمياء ليس لها معنى.

٦- كلمة (الإنسان) أساس المشتركات الفطرية بين البشر، فهي حتمية الرعاية؛ لأنها الصبغة الأولى قبل أن يطرأ أي إضافة أو تعديل أو لون آخر؛ الطعام والشراب والماء والهواء والسكن والأسرة والملبس والأمن والحلم والعدالة والأخلاق والبيئة مطلب لكل إنسان.

القواعد والأعراف المرعية لدى جميع شعوب الأرض في تنظيم الزمن وتقسيمه وخبرات الحياة المتراكمة هي موروث إنساني مشترك.

وللأستاذ راغب السرجاني كتابٌ حافل سماه: (المشترك الإنساني).

- يتكلمون عن الإنسان بمعزل عن الله، ويزعمون أنه اخترع الأديان لإشباع حاجاته، وهم بذلك يلغون الإنسان ذاته: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾.

وفي كتاب «الغصن الذهبي» لجميس فرايزر حديث مطوَّل عن السِّحر والوثنية في حياة الإنسان الأولى استغرق اثني عشر مجلدًا، بناه على الخيال، ولم يكن يتوقع أن علم الإنثروبولوجيا في القرن العشرين سوف ينسف معظم استنتاجاته وفرضياته.

الإيمان بالله هو الحرف الأول في أبجدية الإنسان وهويته، ومن دون الإيمان لن يستطيع أن يعرف ذاته ولا أن يعيش حياته، وكما قال الراحل عبد الوهاب المسيري: «إن عبارة نيتشه التي تتحدث عن موت الرب (تعالى الله) تؤدِّي إلى موت الإنسان، فإن نسيت الله أو قتلت فكرة الإيمان فأنت تقتل الإنسان والطبيعة؛ لأن الإنسان إنسان بمقدار ما يحوي داخله من مقدرات غير طبيعية وغير مادية، ولا بد أن يكون مصدرها غير طبيعي وغير مادي، أي مصدرها الله وحده».

كلمة (الإنسان) تمثّل وحدة الجوهر الإنساني وأصل المساواة بين البشر، القيمة الإنسانية أسبق وأثمن من الإضافات والإلحاقات المادية الطارئة.

الانتماء للإنسان لا يتنافى مع انتماءات أخرى لملة أو مذهب أو تيار أو وطن أو قبيلة أو عائلة، الانتماء الإنساني يُرَشِّد الانتماءات الداخلية ويضبطها ويفتح لها ميادين التعارف والتفاهم والحوار.

كل فرد في المجموعة الآدمية يملك أن يبتكر تعريفًا للإنسان يتكئ على تجربته الحياتية الخاصة أيًا كانت، وتجربتي الخاصة ألهمتني أنني أكون أعمق إحساسًا بإنسانيتي كلما كنتُ أقرب إلى الله، وكلما وقفت بين يديه وتنصلت إليه والتمست فضله ورحمته، تلك لحظة أكون فيها أقرب ما أكون انسجامًا مع نفسي، وانتماءً لأسرتي وأصدقائي والناس أجمعين، وإدراكًا لمعنى الحياة وسرها.

0000



لباس

وَلِباسُ التقوى ذلك خير...

تداولت المواقع صورة لثوب طويل؛ تخيَّل راسمه أنه يشبه ثوب آدم!

يا بني الكريم!

كان لباس والديك أول الأمر البراءة والغفلة عن معنى العورة، كما يحدث لوليدٍ يشم روح الحياة لأول وهلة؛ ولذا قال وهب بن منبه وغيره: «كان لباسهما النور»، وقال مجاهد: «نزع عنهما لباس التقوى»[٧٤].

وكأن لحظة الأكل من الشجرة فتقت معنى كامنًا من الغريزة في نظر بعضهم إلى بعض، وهو جزء من القدر الربَّاني في التوالد وامتداد الذرية.

ومال الإمام الطبري إلى التفسير باللِّباس المطلق بغير إضافة إلى شيء متعارف عليه بين الناس، وعليه: فيجوز أن يكون ظفرًا أو شعرًا أو نورًا أو غير ذلك..

وأول لباس مستقل ظاهر لبسوه كان من ورق الجنة، وتمت صناعته بطريقة الخَصْف، مثل الخرز، ويشبه الخياطة، ويعني ضم أطراف الشيء

بعضها إلى بعض ثم شبكها بعود أو نحوه..

لم يأخذوا من ورق الشجرة ذاتها، بل من ورق الجنة، قيل: لأنهما أمعنا في الهرب حياء من الله بعدما لحظوا انكشاف سوءاتهم، والله أحق أن يُستحيا منه، ولكن إلى أين المفر؟!

وبهذا أصبح اللِّباس سترًا يواري عورة الإنسان ويُعبِّر عن احتشامه، حتى من نفسه وزوجه إذا لم يكن ثَمَّ حاجة تدعو إلى ذلك، وكان آدم وحواء يستتران من بعضهما بهذا الورق المخصوف!

كشف العورة بين الزوجين من غير داعٍ مستهجن، واللِّباس يحقِّق الحشمة والسِّتر، ويحقِّق الجمال والزينة والجاذبية في الوقت ذاته!

وبهذا أصبح اللِّباس من أول مظاهر الإنسانية المترقِّية المتحضِّرة، وكانوا يسمون يوم العيد: ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾.

وصار إنسان الغابة يُعرف بالعري وعدم المبالاة بانكشاف سوءته، حتى جاءت الحضارة الحديثة فأدخلت عنصر (التزيين)، وجعلت فتنة التعرِّي الجسدي عبر الاستعراض والرياضة والرقص والموضة وفنون الجسد.. فلسفةً تحتال فيها على اللباس العلوي الكريم؛ الذي ألهم الله آدم وحواء.

والشيطان يريد من الذرية ما أراد من الأبوين أن تنكشف عوراتهم وتنفرط شهواتهم، ويتشبَّهوا بالبهائم العجماوات؛ التي تجري وراء غريزتها دون إدراك.

وبهذا أصبح اللِّباس رمزًا للفطرة الإنسانية منذ نشأتها الأولى، فهو كان مع آدم وحواء أول ما تفتَّقت فيهما روح الاجتماع والوصال واشتياق بعضهم لبعض، وتمَّ التوازن بين الطين الأرضي والروح العلوي.

وبهذا أصبح اللِّباس جمالًا وزينة، ويكفي أنه من شجر الجنة.

في الأرض كانت ثيابهم من شعر الضأن، جَزُّوه، ثم غزلوه، فنسج آدم جُبَّة، ونسجت حواء درعًا وخمارًا، كانت تلك بداية الصناعة، ومباشرة العمل باليد، لتدبير أمر اللِّبس، فهو من ضرورات الحياة والصحبة والتعبد.

وقد يجوز أن يكون ما نسجوا ولبسوا غير هذا، ولكنه من جنسه!

وتوارث الأنبياء حب اللِّباس الجميل - حتى لبس خاتمهم ﷺ - الجُبَّة والحُلَّة والإزار والرِّداء والقميص، وكان أصحابه يحبون أن تكون ثيابهم حسنة ونعالهم حسنة، وخافوا أن يكون هذا من الكِبْر، فقال لهم: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»(٧٥)!

وكان يلبس أحسن ما يجد من الثياب، حتى إن عمر رضي الله عنه رأى حُلَّةً من الحرير فائقة الجمال تُباع في السوق، فأخذها فأتى بها رسولَ الله ﷺ ليشتريها؛ لما يعلم من حبه للتجمل، ورغبةً أن يلبسها للعيد والجمعة والوفود، فبيَّن له النبيُّ ﷺ حرمة الحرير(٧٦)!

وبهذا أصبح للباس وظيفة معنوية تشعر الإنسان بهويته البشرية، وميزته الإنسانية، وتذكِّره بالعهد والميثاق الإلهي: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾.

فثمَّ لباس ظاهر من الثياب الخاصة الشخصية أو العامة؛ التي هي الريش.

ولباس باطن من الحب والمودة والرحمة كما سَمَّى الله الزوجين: لباسًا، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لهن﴾، ولباس الطيبة والخير والصلاح والتقوى والحياء؛ كما قيل:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى ... تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيَا

وَخَيْرُ خِصَالِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ ... وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ للهِ عَاصِيًا(٧٧)

وإنزال اللِّباس قد يعني إنزال المادة التي يُصنع منها، أو المطر الذي ينبته، أو إنزال الامتنان به وإباحته وتشريعه للبشر.

ولذا كان الأصل في اللِّباس الحِل والجواز، وكان النبي ﷺ يلبس لباس أهل زمانه، ولبس جبةً رومية[٧٨]، وجلس على قطيفةٍ فَدَكِيَّةٍ[٧٩]، وفَدَك كان فيها يهود، ولم يكن للمسلمين لباس يميِّزهم عن غيرهم، ولا كانوا يلبسون اللباس الخاص بطائفة ما والمعبِّر عن هويتها وثقافتها وخصوص مذهبها.

ولا كان للنبي لباس يميِّزه عن غيره، حتى كان الغريب يأتي المجلس فلا يعرف الرسول ﷺ من غيره حتى يسأل: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ[٨٠]؟!

والتميز عن عامة الناس ليس مطلبًا شرعيًّا، وكان العلماء يكرهون ثياب الشهرة المبالغة في الغلاء والثَّمانة، أو المبالغة في الرخص والزَّهادة.

والعرف معتبر في هذا بحسب البيئة والمجتمع وما تواضع عليه الناس، والعرف اليوم سريع التغيُّر؛ بسبب التواصل الإنساني، والشبكات الاجتماعية، والقنوات، ومرحلة القرية الواحدة!

والأجيال تتجدَّد وتتغيَّر أمزجتها؛ خاصة في مجتمعات الوفرة والغنى ومراكز الاستقطاب العالمي؛ كدول الخليج، وما كان من اللباس مرفوضًا بالأمس قد يغدو مقبولًا اجتماعيًّا؛ لتوارد الشباب على استخدامه واستحسانه وهم أغلبية المجتمع.. ما لم يكن من المحرّمات الأصلية.

بعضهم يلبس أفخر الثياب للتجمعات، ويذهب للصلاة بثياب النوم، وهذه غفلة عن وظيفة اللباس: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، ومَن نزلت عليه هذه الآية صلَّى حاسر الرأس، وذلك مقبول شرعًا وعرفًا في كثير من المجتمعات.

ليس من الجيد أن أتميز كطالب علم أو داعية بعباءة في أطرافها (الزري)

العريض المذهَّب، وأطل عليهم عبر شاشة لأحدِّثهم عن الزهد في الدنيا!
وقد كتب عنِّي أحدُهم يومًا مقالًا ناقدًا بهذا الخصوص فأزعجني، وقلت: هل انتهت قضايانا ولم يبق سوى بشت الداعية!، ثم تقبَّلت الفكرة بعدُ، واستذكرت أن العاقل يأخذ الحكمة ولا يضره من أين خرجت، ولا يتساءل عن الدوافع والنيات والمقاصد.. النصيحة مقبولة ما دامت وافقت صوابًا بكل حال، وإذا كنتُ أزعم أني داعية فلأدرِّب الآخرين بفعلي على الأريحية والسَّعة وقبول الآخر، وتجاوز التصنيف والمرادّات السطحية!
اللِّباس الجميل فضل ونعمة، والاعتدال فضيلة، و«**الْبَذَاذَةُ مِنَ الإِيمَانِ**».
التواضع في اللِّباس ورثاثة الهيئة، وترك الزِّينة، والرِّضا بالدُّون من الثِّياب قد يكون ميلًا مناسبًا لنفسية زاهد متواضع عازف عن الدنيا.
والشرع قد يأتي بخيارات متعدِّدة تناسب اختلاف طبائع الناس وميولهم، فأبو ذر رضي الله عنه يختلف عن تَميم الدَّاري رضي الله عنه!
وقد اشترى تَميم الدَّاري رضي الله عنه ثوبًا بألف درهم فكان يصلِّي فيه[٨١].
اللِّباس الخشن ليس بمستحب، ولا هو لباس التقوى كما ظن قومٌ، ولبس الصوف ليس بمشروع بخصوصه كما يظن بعض الصوفية..
والله يحب أن يُرى أثرُ نعمته على عبده، وهو لا يحب المسرفين، ولا يحب المبالغين في البحث عن النفيس، ولا لابسي الحرير والذهب من الرجال، ولا يحب المتشدِّدين المحرِّمين بغير علم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.
الحياء والحشمة للمرأة أوجب وألصق وأليق، واليوم نشكو من إسبال

الرجال وتشمير النساء.

وكشف المؤمنة البالغة لشعرها لغير ضرورة محرَّم ومعصية، وهو مثل مخالفات يرتكبها الرجال علانية ويخالفون فيها شريعة الله، وليس هذا ولا ذاك من الكفر، وليس مدعاة للوصم بالفجور، ولا الاعتداء والوقوع في أعراض المؤمنين والمؤمنات وإهدار حقوقهم..

oooo



الإنسان معنى..

بنى النازيون أثناء احتلالهم لبولندا معسكرًا اسمه: (أوشفيتيز)؛ ووضعوا فيه اليهود من أنحاء أوروبا إضافة إلى ١٥٠ ألف بولندي و٨٠ ألفا من الرومان السوفييت والجنسيات الأخرى، وقُتل في هذا المعسكر ما لا يقل عن مليون ومائة ألف شخص بطريقة بشعة، حسب تقديرات بعض المؤرِّخين..

أحد المسئولين عن المعسكر آنذاك قال: قتل هذا العدد ساعدنا على توفير مليون علبة مربى!

الهولوكوست أو المحرقة النازية قصة طويلة تختلط فيها الحقائق بالمبالغات بالإنكار، ويفرِّق باحثون بين إنكار المحرقة، وبين تنقيح المعلومات حولها، على أن التفاعل مع آلام الآخرين مبدأ إنساني وإسلامي، سواء كانت هذه الآلام في بولندا أو البوسنة أو فلسطين أو إفريقيا.

تضاءلت حظوظ الدكتور فيكتور إيميل فرانكل في النجاة بعد هلاك

أسرته، وذهاب كل ما يملكه أدراج الرياح.

تحطَّمت كل قيمه ليعاني الجوع والبرد والعري والقسوة، وفي كل لحظة كان يتوقع سماع اسمه ليذهب للموت، لم يكن لديه ما يفقده عدا حياته البائسة خيط رفيع تشبَّث به حتى في أقسى اللحظات كان سببًا في نجاته وخروجه من السجن، بل وخلود اسمه كأحد المنظِّرين في مجال التحليل النفسي والعلاج!

ظل حلمه قائمًا في أن يخرج ويستطيع صياغة مسودة كتابه في الطب النفسي من جديد وطباعته.

لقد أصبح الدكتور فيكتور فيما بعد زعيمًا لمدرسة فيينا للعلاج النفسي العالمية.

وتداولت الأوساط العلمية كتابه: (الإنسان يبحث عن معنى)، وهو مترجم إلى العربية.

تحدَّث عن: «السجين / الرقم»؛ حيث يُعطى الضعيف صابونة بيده لإيهامه أنه يذهب للحمام بينما يساق لفرن الغاز، وتنتهي إنسانيته بأن تكون دخانًا ينبعث للفضاء وتذروه الرياح، أما القوي فيُعزل للعمل.

تحدَّث عن مبادئ العلاج بالمعنى؛ فحين يكون للمرء هدف يعيش له يكون أقدر على مقاومة التعذيب والضغوط مهما كانت بشاعتها.

الشعور بالعائلة، الحنين إلى الحب والزوجة، الارتباط بجماعة أو أصدقاء، الموهبة، العطاء ومساعدة الآخرين، الذكريات، الحلم وتخيل مستقبل أجمل.. أحيانًا الحرمان بأي صورة كان يؤدِّي إلى إحساس مضاعف بالجمال والمتعة.

يقول الدكتور فيكتور: وبالنسبة لي: فإن مصادرة مخطوط كتابي الذي كان في طريقه للنشر عند اعتقالي واهتمامي بإعادة كتابته هو ما ساعدني على

البقاء وسط أهوال السجن.
كان يتمثَّل حكمة نيتشه: (مَن كان يعرف لماذا يعيش، يستطيع أن يتحمَّل كيف ستكون حياته).
تحدَّث عن التسامي بالذات أو تجاوز الذات، فالسعادة ليست غاية لسعي الإنسان ولكنها نتيجة وأثر لتحقيق الهدف وبلوغ الغاية، فمعنى الإنسان هو ما يضيفه إلى العالم والحياة، و(ستبدو حياة الإنسان جوفاء إذا كانت دون معنى، فلن يكون شقيًّا فحسب، ولكنه سيصبح غير قادر على أن يعيش أيضًا)، كما يقول آينشتاين.

ماذا كان يهم آدم من الخلود؟

إنه ليس العيش المجرد بزيادة عدد الأيام والليالي، فالمرء يهرم ويمل وتضعف قواه ويستثقل الحياة ويستبطئ الموت، كما يقول زُهير:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ[٨٢]!

الخلود الذي طمع فيه آدم أبعد من ذلك، إنه خلود التأثير، وصناعة البصمة، وتعاهد الذرية، وديمومة البناء والعطاء، واتساع التجربة، والاعتبار من مرور الليل والنهار، وهذا تحقَّق له في واقع الأمر، أو أكثره.
ماذا كان يهمه من المُلْك العريض الذي لا يَبْلى؟ إلا الأثر الطيب والعدل والسيرة الحسنة في الرعية، والحيلولة دون الانحراف والظلم ومجاراة الشهوات.
لم يكن آدم طينًا صِرْفًا لتكون الأرض وحدها منتهى طموحه، كان نفخة علوية روحانية جعلت للطين قيمة جديدة ومعنى مختلفًا فأصبح جسده في الأرض وهمته في السماء:

وَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَـةُ هِمَّتِـهِ فِي الثُّرَيَّـا[83]!

من تجربة شخصية فالعمق الروحي، والمناجاة مع الله، والإحساس بالقرب والرعاية: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، هو أعظم معنى؛ التعبئة الروحية قيمة ضرورية للصحة النفسية وطول العمر والنجاح والمقاومة.

سحق إرادتك من قبل الآخرين لا يلغي قدرتك على اتخاذ موقف في كل ظرف.

اختيارك للطريقة التي تتفاعل فيها مع ما يفعله الآخرون بك هو ما تبقَّى من حريتك، إنها (حرية روحية) حتى في الظروف المريعة، وعندما تبلغ القلوب الحناجر.

يستطيع ذلك عدد قليل من الناس، ولكنهم ملهمون ومؤثِّرون.

أهم المعارك الإنسانية تقع في الثواني التي تفصل ما بين فعل الآخرين ضدك وبين ردة فعلك تجاههم.

هنا تبرز قيمة الإنسان:

- يمتاز الإنسان بأنه يجعل من ذاته ميدانًا للبحث، والتأمل، والدراسة، والتجريب.

الإنسان وحده هو المدرك لمعنى الحياة والوجود ومفهوم الموت والفناء، وأسرار الخلود.

سمو الإنسان هو في إدراك محدوديته وعجزه، وحسن توظيف ذلك: «وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

- مشاعر الإنسان ليست غرائز محضة كالحيوانات بل مشاعر راقية، فالخوف من الله وتأنيب الضمير عند الخطأ، والخوف على الآخرين المحرومين والمظلومين والمعذَّبين هو تسامٍ إنساني صرف.

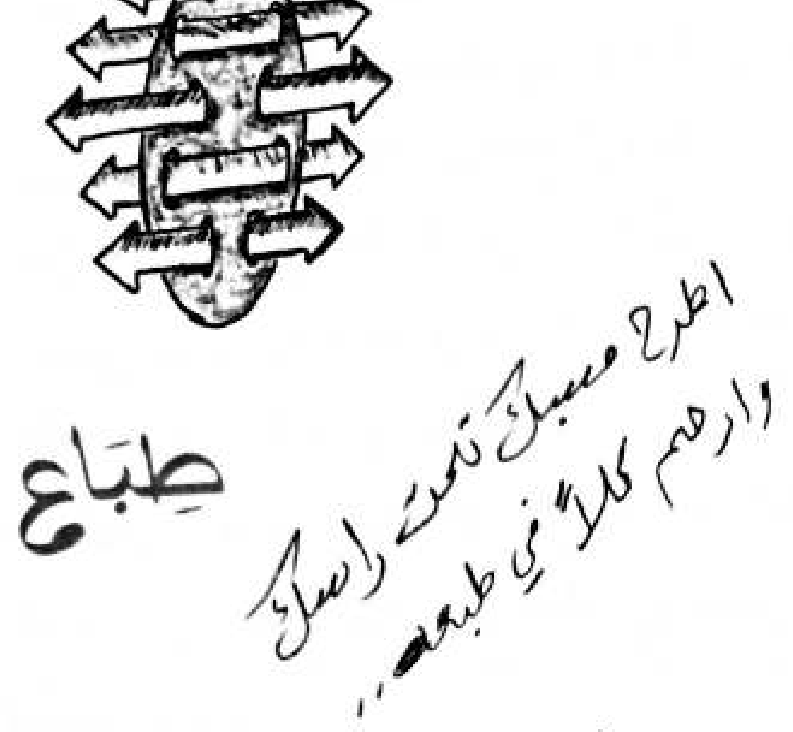
والحب ليس غريزة الحيوان وسلوكه الجنسي البدائي، هو سمو روحاني ورقي بالنفس.

الصبر والمصابرة، والقدرة على التكيُّف مع الأوضاع والمتغيِّرات، والتعلم السريع والدائم.. معانٍ زوَّد الله بها الإنسان الأول وذريته.

حديث «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ الله» ليس بثابت[٨٤]، ولكن يقول ابن القيم: «مَن تعلَّق بصفة من صفات الرَّب أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، والرب هو الصبور، بل لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، وقد قيل: إن الله تعالى أوحى إلى داوود: (تخلَّق بأخلاقي؛ فإن من أخلاقي أني أنا الصبور)، والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته ويحب مقتضاها وظهور آثارها في العبد، فإنه جميل يحب الجمال، عفو يحب أهل العفو، كريم يحب أهل الكرم، عليم يحب أهل العلم، وِتْر يحب أهل الوِتْر، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، صبور يحب الصابرين، شكور يحب الشاكرين.. »[٨٥].

وقال ابن تيمية: «من أسمائه وصفاته ما يحمد العبد على الاتصاف به؛ كالعلم والرحمة والحكمة.. ومنها ما يذم على الاتصاف به؛ كالإلهية والتجبر والتكبر»[٨٦].

أي معنى للتسامي وتجاوز الألم والتفوق على الذات وتحقيق قيمة الوجود الإنساني أعظم من الشعور بأنك تقترب من الله بالتخلق بالأسماء والصفات التي أخبر بها عن نفسه وأثنى على عباده المتخلّقين بها؟



طِبَاع

أعرفُ توائم منذ سنوات، هم كالأبناء لي، ولا زلت أخجلُ حين أخفق في التمييز بينهم، والغريب أن هذا التشابه الشديد هو مدعاة إلى قراءة الفروق الدقيقة بينهم في الوجه والصوت والضحكة.

والتطابق في الشكل بينهم يحكي تطابقًا في الطباع والأمزجة والميول..

عشرات الكتب صدرت حديثًا عن علم الطباع، قرأت منها: (علم الطباع) للدكتور سامي الدروبي، ويمتاز بسرد نماذج من التراث الأدبي العربي.

الطبع يعني الاستعداد الفطري الأساسي، ويغلب عليه الثبات؛ ولذا يقال: (غيِّر جبل ولا تغيِّر طبع)، ولكن تغيير الجبال أصبح ممكنًا اليوم!

القبضة من طين الأرض متفاوتة في لونها وتماسكها ورائحتها وخصبها، والماء الذي عُجنت به متفاوت، وامتزاج الطين الكثيف بذبذبات الروح العالية ولَّد كائنًا معقَّدًا مختلفًا متميِّزًا عامرًا بالأسرار، قادرًا على

اكتشاف نفسه متى أراد.

حين أتعرَّف على طباعي الأصلية كإنسان أولًا، ثم طباعي الخاصة التي ترسم هويتي الذاتية وشخصيتي أكون أقدر على التعامل معها بشكل أفضل، وعلى اتخاذ القرار الصحيح في وقته.

الحرية طبع إنساني: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، الأصل هو (نعم)، الأصل الإذن والإباحة، و(لا) جاءت استثناءً، ولو كانت (لا) هي الأكثر لعوقت ملكاته وأشواقه وامتداداته.

قد يكون القيد طريقًا إلى الحرية، وجدت هذا في خلوتي القسرية حين اقتربت من نفسي أكثر، واستمعت إلى بعض همسها، وتخففت من ضجيج الناس.

من الحرية أن تكون أنت أنت ولست غيرك.

التغيير طبع: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ ولذا قالوا لموسى: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، التنويع في المأكل والمشرب والملبس والتنقل مصدر للمتعة لدى الإنسان.

ومقاومة التغيير طبع، وهل يمكن تغيير الطبع؟

يقولون لك: (يستطيع الذئب تغيير جلده ولا يستطيع تغيير طبعه)، و(اطرد الطبع من الباب يدخل من الشباك)، و(الطبع أغلب).

وَكُلٌّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى ... وَلَكِنَّ طَبْعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدُ[٨٧]

جميل قطعًا أن تكون مطبوعًا على الفضائل ميَّالًا إليها، وقد قال ﷺ لأشجِّ عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ». قال: يا رسولَ الله، أنا أتخلَّق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا». قال:

الحمدُ لله الذي جَبَلَنِي على خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهما اللهُ ورسولُه[88].

على أن تهذيب الطباع مقدور عليه بالمجاهدة والصبر الطويل والمعرفة، وليس طبع الإنسان كغريزة الحيوان التي لا ينفك عنها، كالافتراس في الأسد واللَّدغ في العقرب!

يُحكى أن أعرابية أخذت جرو ذئب وربتّه وسقته من لبن شاتها، فلما كبر عدا على الشاة فبقر بطنها، فجزعت لذلك، وأنشأت تقول:

بَقَرْتَ شُوَيْهَتِي وَفَجَعْتَ قَلْبِي ... وَأَنْتَ لِشَاتِنَا وَلَدٌ رَبِيبُ

غُذِيتَ بِدَرِّهَا وَرُبِيتَ فِينَا ... فَمَنْ أَنْبَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذِيبُ

إِذَا كَانَ الطِّبَاعُ طِبَاعَ سَوْءٍ ... فَلَا أَدَبٌ يُفِيدُ وَلَا أَدِيبُ[89]!

الأعرابية خلطت بين الغريزة الراسخة التي لا تتبدَّل وبين الطبع العارض القابل للتحويل والتعديل، ولعلها أخطأت من شدة الألم!

قال أبو الدرداء رضي الله عنه وغيره: «إنما العلمُ بالتعلُّم، وإنما الحِلْمُ بالتحلُّمِ، مَنْ يتحرَّ الخيرَ يُعْطَهُ، ومَن يَتَّقِ الشرَّ يُوقَهُ»[90].

وفي «الصحيح» عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: **«مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»**[91].

الندم والتأسف على الفائت طبع: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾، وليس هذا عائقًا عن التدارك ومدافعة القدر بالقدر.

اشتهاء الممنوع طبع: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾، والممانعة شرع، قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «ما وجدتُ من أمرٍ هو ألذُّ عندي من حقٍّ وافق هَوًى»[92]، وطوبى لمَن كان هواه تبعًا لما جاء به الوحي.

الأنس بالإنس طبع: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، فالإنسان كائن مدني اجتماعي، والبشر يتفاوتون في حبِّهم للاختلاط أو الانفراد، عاش الأبوان على الأرض ولم يكن فيها أنيس سواهم، وعيونهم على المستقبل: الذرية والإعمار.

شرَّع لنا الأبوان التعايش مع المختلف والمناقض، وتبادل المنافع والمعارف: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

العجلة طبع: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾، يُروى أن آدم همَّ أن يقوم قبل اكتمال نفخ الروح فيه(٩٣)!

التدريب والتجربة والخبرة والسِّن تمنح قدرًا من الأَناة لعجول مثلي!

البراءة في آدم طبع: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾، لقد ظنوا ألَّا أحد يقسم بالله كاذبًا!

العفوية والانطلاق على السجية دون تكلف: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، تصرف مباشر يستجيب للحاجة الطارئة دون تطويل أو تردد.

تختفي شخصية الإنسان وموهبته حين يعتاد على لبس الأقنعة، وتطغى عليه شخصيات الآخرين من حوله.

حب الحياة طبع: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، وكلنا نكره الموت، كما قالت عائشة رضي الله عنها(٩٤)، وجمال الحياة حين تستشعر معناها ورسالتها، حين تستمتع بالعطاء.

حب الاستطلاع والتساؤل طبع: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾، ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، المعرفة كنز، والفضول ليس من المعرفة، أي قيمة لاشتغال الإنسان ودخوله فيما لا يعنيه.

الانفعالية والاندماج في حدث ما مؤلم مثلًا، حتى يتوقف عن معايشة الحياة، أو التعاطي الرشيد معه دون استسلام، نموذجان إنسانيان، الأبوان عَبرَا قصة الشجرة، فالهبوط، والغربة، ومواجهة تحديات الحياة، وخلافات الأبناء..

قضايا اليوم في عالم العروبة والإسلام فجائع لا تحكيها مفردات اللغة، والتعاطي الرشيد معها ضرورة إنسانية وواجب شرعي وانتماء وطني، وليس من ذلك أن نفقد صوابنا ونتحول إلى كائنات مكتئبة، أو عدمية، أو يائسة، أو أن نطالب بإيقاف عجلة الحياة!

الفعالية والطاقة طبع يتفاوت فيه البشر، فيهم الجَلْد القوي المولع بالحراك، ينتهي من عمل ليشرع في آخر، ويمنح الطاقة لَمن حوله، وفيهم البليد الكسول الذي إن تُرِك تَرَك.

التسامح والتعافي والتجاوز طبعٌ حسنٌ يحرِّرك من قيود الحقد والانتقام والتربص، وما أعظم أن يستطيع المرء قراءة طباعه وشخصيته، وما أجمل أن يكون كما حكى أبو ماضي:

حُرٌّ وَمَذهَبُ كُلِّ حُرٍّ مَذْهَبِي ... مَا كُنْتُ بِالْغَاوِي وَلَا الْمُتَعَصِّبِ

تَأبى طِبَاعِي أن تَمِيلَ إِلَى الأَذَى ... حُبُّ الأَذِيَّةِ مِن طِبَاعِ العَقرَبِ

لِي أن أَرُدَّ مَسَاءَةً بِمَسَاءَةٍ ... لَوْ أَنَّنِي أَرْضَى بِبَرقٍ خُلَّبِ

حَسْبُ الْمُسِيءِ شُعُورُهُ وَمَقالُهُ ... فِي سِرِّهِ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُذنِبِ

إِنِّي إِذَا نَزَلَ البَلَاءُ بِصَاحِبِي ... دَافَعْتُ عَنْهُ بِنَاجِذِي وَبِمِخلَبِي

وَأَرَى مَسَاوِئَهُ كَأَنِّيَ لَا أَرَى ... وَأَرَى مَحَاسِنَهُ وَإِنْ لَمْ تُكْتَبِ

وَأَلُومُ نَفْسِي قَبْلَهُ إِنْ أَخْطَأَتْ　　وَإِذَا أَسَاءَ إِلَيَّ لَمْ أَتَعَتَّبِ
مُتَقَرِّبٌ مِن صَاحِبِي فَإِذَا مَشَتْ　　فِي عِطْفِهِ الغَلْوَاءُ لَمْ أَتَقَرَّبِ(٩٥)

oooo



الضحكة الدامعة!

حين وقع الأبوان في الخطيئة بكيا حتى بلَّ دمعهما الثَّرَى، إنها دموع التائبين، ويُروى أن مَلَكًا قال لهما: هذا أطيب ماء على وجه الأرض!

قالوا: وكيف؟

قال: لا أطيب من دمعة تائب نادم على ذنبه.

هل تذكر أنك ذرفت دموع ندم على مقارفة ذنب أو تفويت طاعة؟ تلك الدموع يثقل بها ميزانك، ويبرأ بها قلبك من جراحه.

لم ترقأ عين آدم حين خرج من الجنة حتى عاد إليها.

في قتل قابيل هابيل بكيا على فقْد هذا وعلى جُرم ذاك.

الإنسان كائن شاعر، يحس بالفرح فيضحك، وبالحزن فيبكي.

هو الكائن الوحيد الضاحك الباكي، المتعة والفرح جزء أصيل في تكوينه، والجد الصارم ينافي الفطرة.

الألم عابر لا يجب أن نبني له تمثالًا، ولا أن نجعله أساس مشاعرنا.

كان أبو ذرٍّ رضي الله عنه يُحدِّث أن رسولَ الله ﷺ قال في قصة المعراج: «فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ. وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى»(٩٦).

قلب آدم كبير؛ اتسع لفرحة الصالحين من أبنائه إلى يوم الدين، وتألَّم للتائهين، وبكى من أجلهم.

أكثر ما يُحزن الأبوين هو حال الأبناء، والخوف على مستقبلهم.

أما حكاية بكاء آدم مائة سنة حتى نبت الدارسين (القرفة) والقرنفل من دموعه، فهي تهويلٌ ليس له أصل، وجعل اللهُ في الأبوين القدرة على التكيُّف مع الأوضاع المختلفة.

ومثلها رواية بعضهم أشعارًا في رثائهما لابنهما القتيل:

تَغَيَّرَتِ البِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا ... فَوَجْهُ الأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ

تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي طَعْمٍ وَلَوْنٍ ... وَقَلَّ بَشَاشَةُ الوَجْهِ المَلِيحِ

وهي من الأكاذيب، والشِّعر المذكور رَكِيك ومعيب ومنحول(٩٧).

على أن شعر الرثاء من أصدق المعاني، كما في قصيدة ابن الرُّومي:

بُكَاؤُكُمَا يَشْفِي وَإِنْ كَانَ لَا يُجْدِي ... فَجُودَا فَقَدْ أَوْدَى نَظِيرُكُمَا عِنْدِي(٩٨)

وقصيدته في رثاء يحيى العلوي، وفيها قوله:

وَلَيْسَ البُكَا أَنْ تَسْفَحَ العَيْنُ إِنَّمَا ... أَحَرُّ البُكَاءَيْنِ البُكَاءُ المُوَلَّجُ(٩٩)

بكاء القلب أقوى من بكاء العين.

وقصيدة أبي الحسن التهامي:

حُكْمُ المَنِيَّةِ فِي البَرِيَّةِ جَارِي مَا هَـذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَـرَارِ[١٠٠]

ومن قصيدة لي في رثاء فقيدي (عبد الرحمن) رحمه الله:

وَدَاعًا حَبِيبِي لَا لِقَاءَ إِلَى الحَشْرِ وَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِي عَلَيْكَ لَظَى الجَمْرِ

رُكِّبَ آدم وحواء على اعتدال المزاج، وهو محمود في الفرح والحزن: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

التعبير الفطري عن الغرائز حسن: «إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ- أَوْ يَرْحَمُ».

والإيمان بالقَدَر يعدل المزاج: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾.

وفي الحديث: «فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»[١٠١].

وقِلَّته تقتل الحب.

للحيوانات مشاعر محدودة تجاه نفسها أو ولدها أو مَن يحتك بها، وقد يبكي البعير فتدمع عينه، قال المُثَقَّب العَبْدي:

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَيْلٍ تَـأَوَّهُ آهَـةَ الرَّجُـلِ الحَزِيـنِ

أَكُلَّ الدَّهْـرِ حِـلٌّ وَارْتِحَـالٌ أَمَا يُبْقِي عَلَيَّ وَمَا يَقِينِي[١٠٢]

والفن البشري في جملته تعبير متنوع عن مشاعر الفرح، والألم، والحزن، والندم، والاشتياق، والحنين، والفقد..

الدموع رمز النبل والصدق: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾.

إنهم يحاولون ألَّا يرى الناس دموعهم، فيتولون من غير إعراض ولا صدود.

استحضار الكآبة والألم ليس محمودًا ولا متعبَّدًا به، إنما يُؤجر العبد على

الصبر والرضى.

جربت أن أدعم عوامل السعادة والمتعة حتى تتغلَّب على نقيضها، فوجدت السعادة تفترش حياتي حتى في المواقف الصعبة، وصار السرور مزاجًا عامًّا لا يُلغيه ألم عابر.. وصرت أُعبِّر عن حالة السعادة وأتحدث عنها حتى تبرمج عقلي الباطن عليها.

الحزن مؤلم في لحظته، ولكنه كثيرًا ما يصبح ذكرى ممتعة تعبِّر عن زوال الهم والبلاء، وتبدُّل الحال، والروح والفرج، وتعطي سببًا للحديث عما كان وما صار.

أعجبني تعبير شعبي عن ألم الفراق لم أقرأه إلا وتجدَّد تفاعلي معه، وكأنني أطالعه للمرة الأولى.

تلكم هي قصيدة عابرة سبيل من الكويت لزوجها قبيل وفاتها إثر مرض عضال:

ترى الذبايحْ واهلْها ما تسلينى ... أنا ادري ان المرضْ لا يمكنْ علاجِه

أدري تبي راحتي لا يا بَعَدْ عينى ... حرامْ ما قصَّرتْ ايديكْ في حاجِهْ

خذها وصيةْ وامانةْ لا تبكّينى ... لو كانْ لكْ خاطرٍ ماودّي ازعاجِه

ابيكْ بيديكْ تَشْهدني وتَسْقيني ... وأمانتْك لا يِجِي جِسْمي بِثَلاّجه

لفّ الكَفَنْ في يديكْ وضفّ رِجليني ... ماغيركْ أحْدٍ كَشَفْ جِسناه واخراجِه

ابيكْ بالخَير تَذْكرنى وتطْرينى ... يجيرني خالقي من نارْ وهّاجِهْ

همي عيالي وأنا اللي فيّ كافيني ... علمهم الدين توحيده ومنهاجِهْ

سامحْ على اللي جَرَى مابينكْ وبينى ... أيامْ نمشي عَدِلْ وايامْ مِنعاجه!

إنها دموع النهاية التي لا تنسى ضحكات البداية!



الإنسان أولًا

ركب إلى جواري في الطائرة شابٌّ غريبٌ، بدت عليه ملامح الحزن والكآبة والانعزال عن الآخرين، وكأنه يتوجَّس خيفة من كل أحد يجالسه أو يحادثه أو يصافحه.. ويتساءل عن نوع الأذى الذي ينوي إلحاقه به !

افتعلت أكثر من سبب لكسر الحاجز النفسي واللُّغوي ولم أفلح.

لم أحتفظ عنه إذًا بأي ذكرى، ولم أصنع في ذاكرته أثرًا ولو دقَّ، إنها فرصة وذهبت.

هذا الشاب هو بيت مغلق بأقفال، ولكي تلج البيت لأي غرض كان عليك أن تبحث عن المفاتيح.

ربما تريد أن تدخل مع هذا الإنسان أو غيره في مشاركة تجارية، أو في مشروع تقني، أو منجز ثقافي، أو تطمع في دعوته إلى خير، أو حمايته من شر، أو تريد أن تنتفع منه بحكم وجود حالة إيجابية لديه يمكن توظيفها..

وهب أنك تريد أن تقدم له خدمة يحتاجها..

أنت هنا أمام ثري، أو مبدع، أو قارئ، أو منحرف، أو شحاذ، أو ما شئت..
هو إنسان قبل أن يكون أيًا من ذلك، ويوم وُلد لم يكن له لون ولا شيء معه.
وأي محاولة تواصل تتجاوز مبدأ الإنسانية ستمنى بالفشل.

ومن حسن الحظ أنك أنت إنسان أيضًا فلديك الكثير من المعرفة المفصلة والواقعية عن الإنسان وحاجاته وضروراته ومداخله ومشاعره وأحاسيسه.

الإنسانية ليست مذهبًا نظريًا، هي الإحساس الذي عاد إليه قابيل حين أحس بالندم، وظل يفكِّر كيف يواري سَوْءة أخيه..

هي المشترك بين الظالم والمظلوم حيث سماهما القرآن: إخوة.

هي الغائب الذي تسبَّب فقده في الجرأة على إزهاق الروح.

ذرية آدم هم: (البشر، الناس، الآدميون، الإنس..)، وكلهم- حتى الأنبياء والرسل والأولياء والصديقون- يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتزوَّجون وينجبون، ويصحون ويمرضون، وتصيبهم اللأواء.

ولكل إنسان أسوار لا ينبغي تقحمها ولا تجاوزها، ومداخل تناسبه، بَيْدَ أنها تحتاج إلى اللُّطف والبصيرة وحسن التأتِّي.

وحين قال الرسول ﷺ: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ..**»(١٠٣). كان يرسم منهجًا رائعًا في التعامل مع الآخرين، أن تضع نفسك في موضع الإنسان الذي أمامك وأنت تتعامل معه.

حين كشف هابيل عن موقفه من أخيه وأنه لن يبادله بسط اليد بالعدوان، كان يحرِّك إنسانيته ليكف عن أخ لم يضمر له السوء.

ما الذي يروق أخاك ويعجبه منك؟

أن تثني عليه بخير، ولا أحد إلا ولديه من الخير ما يمكن أن يُثنى به عليه، وبصدق، دون خداع أو تزيُّد.

أن تعرب له عن محبتك وتقديرك لشخصه الكريم.. وكيف لا تقدِّر إنسانًا كرَّمه ربه واصطفاه وأحسن خلقه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

انظر في عينيه، وابتسم له بصفاء، وصافحه بحرارة، وتحدَّث إليه وأنت منبسط هاش باش، واختر الكلمات الجميلة السحرية

أُضَاحِكُ ضَيْفِي قَبلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ... وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالمَحَلُّ جَدِيبُ

وَمَا الخَصْبُ لِلأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ القِرَى ... وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الكَرِيمِ خَصِيبُ[١٠٤]

قبل أن تعطيه المال، أو توفر له الاحتياج، أو تجود عليه بما يطلب، أعطه وجهك وقلبك واحترامك وتقديرك، ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾.

اصنع هذا لزوجك التي تدوم معها عشرتك طوال الحياة، واصنعه لولدك الذي خرج منك فأصبح كيانًا مستقلًّا له شخصيته وتكوينه وحسابه ومسئوليته الكاملة في الدنيا والآخرة.

واصنعه مع زميلك في العمل أو شريكك أو جارك الذي تلقاه كل يوم أو كل صلاة.

واصنعه مع الخادم أو السائق، دون ازدراء لإنسانيته أو تحقير لشخصيته،

واعتقد في داخلك أنه إن كان الله فضَّلك عليه في الدنيا بمال أو منصب، فربما يكون فضَّله عليك في الآخرة بتقوى أو إيمان أو سريرة من إخلاص أو عمل صالح.

واصنعه مع الغريب الذي تراه لأول مرة، وربما لا تراه بعدها لتوفُّر لديه انطباعًا إيجابيًّا عنك، وعن الفئة أو الجماعة التي تنتمي إليها، ولتمنحه قدرًا من الرضا والسرور والفرح والاغتباط، وتبعث إليه برسائل من السعادة سوف يكافئك الله العظيم بما هو خير منها عاجلًا، فالمعطي ينتفع أكثر من الآخذ؛ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا.

واصنع ذلك بصفة أساسية لأولئك الناس الذين تريد أن توجِّههم أو تنتقدهم أو تقدِّم لهم نصحًا يحميهم من رَدَى أو يحملهم على هُدَى وأنت عليهم مشفق بار راشد، فإياك أن تتعسَّف أو تتَّهم أو تجفو في أسلوبك فتحكم على محاولتك بالفشل المحتم حتى قبل أن تشرع فيها، وكان الإمام أحمد رحمه الله يقول: «ما أغضبتَ أحدًا فقبل منك»[١٠٥].

- حين تصنع ذلك أو بعضه، فأنت تجعل لحياتك معنى، وتصل رَحِمَك الأولى: حواء، وتؤدِّي حق قرابتك التي تجتمع معك في أبوّة آدم.



ملائكة



ملائكة

يُروى أن الملائكة حين أخبرهم ربُّهم بخلق آدم قالوا:

- ربنا، وما يكون حال الخليفة؟

قال الله: تكون له ذرية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضُهم بعضًا. فاستغربوا وقالوا متسائلين: لم خلقته إذا؟

عندما عجزوا عما قدر عليه آدم من المعرفة والمَلَكات الخاصة والقدرة على فهم الأشياء الكونية وتسميتها، وأدركوا فضله بالإرادة اعترفوا وقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

وسارعوا بالسجود لآدم عندما أمرهم الله بذلك.

وكان هذا إيذانًا بتفضيل الأنبياء وصالحي البشر على الملائكة، ورسمًا للعلاقة القادمة القائمة على تولِّي الملائكة أمر الإنسان: الحفظ، المطر، الوحي، النبات، الحمل، الولادة، الموت، التسجيل والرقابة.

الملائكة المخلوق الوفي للإنسان الرحيم به، يحبُّه ويحبُّ الخير له ويحفظه

في يقظته ومنامه بإذن الله.

وجودهم يوحي باللُّطف والرحمة، وأن وراء العالم المادي المحسوس عالمًا غيبيًّا آخر له شأن في التدبير والتصريف وفق إرادة الله.

من الأنانية والغرور أن يختزل الإنسان العالم في محيطه الضيق.

«الله» من علم الغيب، فمَن آمن بالله فما دونه أيسر.

ثم عوالم هائلة غيبية، وفيها حشد وحراك ضخم، وأحداث وأنظمة يؤمن البشر جميعًا بقدرٍ منها يزيد أو ينقص[١٠٦].

الملائكة مبرمجون حسب التكليف الإلهي، وليس من مهمتهم توليد المعرفة وتطويرها واستخدامها بالشكل الذي تميَّز به آدم؛ لأنهم خُلقوا من نور بحت، فهم مخلوقات واضحة غير معقَّدة، بخلاف الإنسان فهو الكائن المعقَّد المكوَّن من نقائض الطين والروح، والمزوَّد بالقدرات العقلية الخاصة.

بهذا كان فضل العالم على العابد.

ولذا استغربوا خلقه ابتداءً، وتحدَّثوا عما يعرفون من التسبيح والتنزيه والتقديس.

وربما فُوجئوا بأكله من الشجرة، وكأنها كانت صدمة.

بعض الصالحين قد لا يستوعب القَدَر، أو لا يستوعب الخطأ البشري من الآخرين؛ لأنه يعيش في عالم روحانيٍّ سامٍّ.

قال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

لو استقرت الملائكة في الأرض وسكنوها وشمُّوا ترابها وغبارها لاعتراهم ما يعتري آدم، واحتاجوا إلى الرسل من السماء لإصلاحهم

وتهذيبهم وتأهيل روحانيتهم مرة أخرى.

قصة هاروت وماروت وكيف فُتنوا بالمرأة- حسب الرواية الإسرائيلية المشهورة- تُوحي بذلك.

جميع الشرائع أقرَّت بوجود الملائكة وأعمالهم، وسمَّت بعض مشاهيرهم، كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت، (ولم يثبت أن اسمه: عزرائيل) عليهم السلام.

وفي القرآن أنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورُباع، لكن لا نعرف كُنْهها، وليست أجنحة مادية من الريش كأجنحة الطيور، ولو كانت كذلك لرآها الناس، ولكنها أجنحة من نور، وأصحابها خُلقوا من نور.

جمال خلقتهم معلوم بالفطرة ولذا قالت النسوة حين رأين جمال يوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وهو نقيض ما في الفِطر من استقباح خلقة الشياطين: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

المَلَك هو مَن نفخ الروح فينا حين كنا أجنَّة في بطون أمهاتنا، وهذا سبب كافٍ لحبِّهم والقرب منهم.

يصحبون الإنسان ويقتربون منه حال الطاعة وحال المعصية، ويكتبون، ويحفظونه من الأعراض، حتى يأتي القدر فيخلون بينه وبينه: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، ولذا قد يسلم الإنسان وهو مظنة العطب، وما قصة الطفل الذي نجا بعدما سقط تحت القطار، أو قصة الطفل الذي كان في أعلى نوافذ الفندق يذهب ويجيء ويلعب حتى اختطفته يد حانية فنجا، إلا نماذج للسالم المعزول بحفظ الله ولطفه.

منهم الحَفَظة والكَتَبة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾، وهم يهتمون بلغة الإنسان وما ينطق: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

حين تهم بالنطق وتستشعر أن مَلَكين على شِدْقيك، سيكون للكلمة قيمة وحساب.

عن بلال بن الحارث المُزني رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١٠٧).

وكان علقمة بن وقَّاص اللَّيْثي يقول: كم من كلام قد مَنَعَنِيه حديثُ بلال بن الحارث.

ليس اسم المَلَكين: الرَّقِيب والعَتِيد، بل هو وصفهما؛ أي: مراقبان حاضران لا يغيبان، ولا يغفلان، ومهيَّآن لتسجيل كل شيء.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «**إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**». ثُمَّ قَرَأَ: «﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ...﴾ الآية»(١٠٨).

الإلهام الحسن يكون من المَلَك، ويساعد الإنسان في المواقف الصعبة.

السَّكينة الرُّوحية وانشراح الصدر من المَلَك.

الرُّؤيا الصالحة من المَلَك.

الخواطر الإيجابية المشجِّعة على التفاؤل وتوقع الخير والنجاح والسعي في إسعاد الآخرين من المَلَك.

الانفساح والانشراح والنور والمحبة والإيثار من لَمَّة المَلَك.

غرس الأمل بالشفاء والعافية عند المريض من المَلَك.

مساندة الإنسان عند الصعاب من المَلَك، ومن أشدها حالة النزع والفراق: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

والملائكة هنا تخاطب بني آدم، لكن سمعها لا يكون بالأُذن الحسية، بل بيقظة الروح.

تثبيت الإنسان: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الملائكة تحب المؤمن: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ».

وتبادر الملائكةُ الإنسان في بدايات الأشياء في أول عمره، وفي أول صحوه من النوم، وتقول له: افتح بخير. وتشجِّعه على ذكر الله في تقلباته من قيام وقعود ودخول وخروج وأكل وشرب وسفر..

وتبادره عندما يخرج من منزله، ليكون مسعاه خيرًا، وتكون رايته بيد مَلَك[109].

الملائكة تحب المتطهِّرين وأصحاب الألسنة العفيفة، وتنفر من النجاسات الحسِّية والمعنوية.

وتحب السِّتر وتكره التعرِّي لغير حاجة، عن عليٍّ رضي الله عنه: «مَن

كشف عورته أعرضَ عنه المَلَك»[110]. ولهذا سعى الشيطان إلى ظهور سوءة آدم وحواء.

تحب المتواضعين وتنفر من المتكبِّرين، وهيهات أن ينسى آدم وحواء أصلهما الترابي وهما حديثا عهد به.

تنفر الملائكة من الصحبة الفاسدة وأصحاب النوايا الشِّرِّيرة.

تكثر مشاهدتنا للملائكة في الأساطير والكتب والمواقع الغربية وتشبيهها بالإناث، ويعتاد رؤيتها الشباب في الدراما، وفي محركات البحث كـ(Google) وتبدو تصاوير متنوعة يزعم رساموها أنها تحكي صورة الملائكة، وهم غيب لا يملك الإنسان أن يتخيلهم على الحقيقة؛ لأن خياله مطبوع على الأشياء المادية التي لم ير غيرها ، والقرآن يدحض هذه الصورة: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

قليلًا ما أستشعر قرب الملائكة مني، ويحدث ذلك عندما أحس بالافتقار والخوف والضعف.

هل أشعر في خلوتي بالحياء منهم كما أشعر لو أن صديقًا أو قريبًا فاجأني دون توقع؟

للأسف: كلا.

هل أشعر بالاحترام والتقدير لشعورهم تجاهي وعنايتهم بحاضري ومستقبلي؟ ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

هل سعيتُ في توفير الجو المناسب لهم ليقتربوا مني؟

عندما آوي إلى فراشي هل أندمج في أدعية وأذكار تجعل المَلَك يتقلَّب

معي في فراشي ويلهمني الرُّؤيا الصالحة؟

في السجن والخلوة يطول ابتهال الإنسان طلبًا لفرج، وتعبيرًا عن العجز، حتى يستشعر قرب الملائكة، وربما خطر في باله أنهم صفوف خلفه وهو في التراويح، أو همَّ أن يناشدهم مشاركته في الدعاء والتأمين عليه، وكيف لا وهم يؤمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، ويقولون: «وَلَكَ بِمِثْلٍ؟»(111). وكيف لا وهم يستغفرون لَمن في الأرض؟

كثيرون يتوهَّمون رؤية الجن والشياطين، ولكن من النادر أن يحدثك أحدٌ عن مشاهدة مَلَك.. لماذا؟

رؤية الملائكة ممكنة، حيث لا حجاب ولا أبواب ولا جدران من الإسمنت أو الحديد أو الزجاج يمنعهم، ويقع بذلك التثبيت في حالة ضعف أو قلق، وليست مجالًا للادِّعاء والفخر، فمَن يراهم غالبًا لا يجد ما يدعو للحديث عن ذلك!

وادِّعاء رؤية الملائكة أو وقوفهم مع فصيل معيَّن في معركةٍ ما أخبار تلتبس فيها الحقيقة بالوهم، وعلينا الوقوف فيها على الأخبار اليقينية فحسب.

الخيال السلبي والتربية بالخوف وقصص الجن والعفاريت قبل النوم تطبع حياتنا في الطفولة وإلى الموت..

وفي الخيال العلمي الحديث تطوَّرت قصص ما يسمونه بالعوالم الموازية، وهي كائنات مختلفة قريبة مما يؤمن به المؤمنون بالملائكة والجن والشياطين، حيث كل عالم له مداخل محدَّدة وضيقة، وكل عالم له معرفة بعوالم معينة، بينما عالم البشر في مربعات خاصة لا يرى البشر فيها إلا البشر أو الكائنات المشاهدة في عالمهم، ولا يستطيع أحد رؤية تلك العوالم إلا بتجاوز الصفائح المعنوية المخلوقة للتمييز بين تلك العوالم وعدم

التداخل بينها.

وعلى أية حال، ففكرة العوالم الموازية فيها شيء من الحق في إثبات أن الجن يروننا من حيث لا نراهم كما ذكر القرآن، وأننا لا نرى تلك العوالم الأخرى مع وجودها.. وربما عوالم لا نعرفها ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

oooo



سجود

كيف سجد الملائكة النورانيون للمخلوق الطيني؟

شيء عجاب أن يكون سر تفضيل آدم هو النفخة العلوية التي سرت في الطين.. وأن تسجد له الملائكة؛ التي هي محض نور لم يلامسه أثرٌ من طين الأرض وغبارها!

إنه تفوق الأبعاد المتعدِّدة والمتداخلة والمتناقضة أحيانًا، على البُعد الواحد والنمط المبرمج.

تفوق الإرادة الحرة المسئولة المعتمدة على المعرفة والعقل والتعلم والتعليم والاختيار، وإن كان هذا التخيير والتكليف قد يؤول إلى عثرات وفترات وهفوات.. فهذا المسجود له سرعان ما اقترف حوب الأكل من الشجرة، واتباع غواية الشيطان، وسرعان ما تاب وأناب!

تفوق واقعية التدافع والحركة والألم والسعي نحو الأفضل والتجربة والمحاولة والخطأ والتصحيح، على نمط التمحض للخير والعبادة

المطلقة والتسيير!

وهو درس في التربية والدعوة والسياسة..

امتزاج النقيضين سرٌّ إلهي بديع، وحكمة ربانية بالغة.

والتعايش المتوازن الرشيد بين المختلفات من أسرار الإبداعات..

إنه سجود تكريم لا سجود عبادة.

فهو شبيه بقوله تعالى في شأن يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

اتفاق وإطباق علماء الملة أن العبادة لا تكون إلا لله، والسجود على وجه العبادة لا يكون لملَك مقرَّب ولا نبي مرسل، هو لله وحده.

هل كان آدم قبلةً لهم في السجود؟

لو كان كذلك لكان الأنسب أن يقال: اسجدوا إلى آدم.

والسياق استعمل لفظ: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، في جميع المواضع التي وردت فيها القصة.

هل كان آدم إمامًا لهم وهم يسجدون وراءه؟

هذا لا يساعده السياق، وهو قول متكلّف.

هل كان السجود بمعنى الانحناء؟

يُشكل على هذا قوله سبحانه: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

والوقوع ظاهره الخرور إلى الأرض.

هل السجود تعبيرٌ عن توكيل الملائكة بشأن آدم والقيام على أمره وأمر ذريته وحياتهم ومماتهم؟

في التنزيل بيان تكليف الملائكة بأمر نفخ الروح، ونزع الروح، وأمور الرحمة، وأمور العذاب، وما شاء الله من أمر كتابة الأعمال والأحوال

والحسنات والسيئات..

وهذا من آثار السجود ودلالاته، ولا يعني هذا قصر معنى السجود عليه.

يشير عبد الصبور شاهين في «أبي آدم» إلى أن سجود الملائكة يعني تكليفهم بحياطة الحياة الإنسانية ابتداءً من آدم، وهو تكليف ماضٍ إلى يوم القيامة؛ تولّى فيه الملائكة المحافظة على الإنسان وإلهامه الخير ووعده به، في مقابل عمل إبليس وذريته في الإغواء والوعد بالشر والأماني الكاذبة..

وتكليف الملائكة بذلك حق ثابت، ولكن لا يحسن قصر معنى السجود عليه، فثَمَّ موقف غيبي أُمر الملائكة فيه بالسجود لآدم ففعلوا وامتنع إبليس، وهو سجود حقيقي يناسب خلقة الملائكة وما جُبلوا عليه مما يعلمه الله ولا نعلمه نحن ولا نستطيع تكييفه.

فللسجود أوضاع وهيئات تتفاوت بتفاوت المخلوقات..

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ.. ﴾.

﴿وَللهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ...﴾.

وفي السُّنة سجود الشمس تحت العرش لا ينكر الناس من أمرها شيئًا(١١٢).

قال القرطبي: «وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم بوضع الجبهة على الأرض، ولكنه مبقًى على أصل اللغة، فهو من التذلل والانقياد، أي: اخضعوا لآدم وأقرُّوا له بالفضل»(١١٣).

والأقرب أن ما أُمروا به هو فعل زائدٌ على مجرد الخضوع والإقرار بالفضل، مناسب للمقام ولهم، أُمروا بأدائه إظهارًا لفضل آدم وذريته، وإعلانًا لحقبة جديدة يكون له ولعقبه فيها الخلافة في الأرض.

واللّائق بأمور الغيب إمضاؤها على ظاهرها دون إيغال في تصويرها أو

تصوُّرها أو تفصيلها أو تأويلها؛ رعاية لحرمة النصوص، وتقديرًا لطبيعة (تصميم) العقل البشري الذي يُبدع في الكشف والابتكار وينجح في ميدان المادة، ويُخفق حين يتحرك في ما وراء الطبيعة، وهو سرُّ تفوق آدم وعلو مقامه!

السجود لآدم طاعة للذي خلقه وفضَّله، وهو عبادة لله الذي أمر به، مثله مثل الطواف بالكعبة وتقبيل الحجر الأسود.

وهل كل الملائكة أُمروا بالسجود؟

كل الملائكة الذين أُمروا بالسجود سجدوا أجمعين بلا استثناء: ﴿فَسَجَدَ الْـمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

وهل كان الأمر بالسجود موجَّهًا لجميع الملائكة، أم لبعضهم ممن هم موكَّلون بالحياة الآدمية من نفخ وقبض وحفظ.. ؟

ظاهر السياق أن عامة الملائكة أُمروا بالسجود فسجدوا، من ملائكة الأرض وملائكة السماء، وأشراف الملائكة؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل..

والأمر فيه مجال واحتمال.

السجود طواعية للآمر المتفرِّد جل وتعالى، وعبر الرسالات كلها كان السجود على الجبهة من أعظم مظاهر الخضوع والدينونة لله، و«**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ، أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَلَهُ الْـجَنَّـةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ، فَلِيَ النَّارُ**»[114].

في مطلع سورة العلق الأمر بالقراءة والتعلُّم بالقلم، وفي ختامها الأمر بالسجود والاقتراب: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ...﴾، ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾.

العودة إلى الجنة تمر عبر بوابة السجود، وبقدر نزول الجبهة يرتفع الشأن،

فعن رَبِيعة بن كعب الأَسْلميِّ رضي الله عنه قال: كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيتُهُ بوَضُوئه وحاجته، فقال لي: «**سَلْ**». فقلتُ: أسأَلُك مرافقتَكَ في الجنة. قال: «**أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ**». قلتُ: هو ذاك. قال: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»(١١٥).

ويوم القيامة يُدعى الناس للسجود فيسجد المؤمنون، ويحاول غيرهم فلا يستطيعون، وتَأْبى ظهورهم أن تنحني لله.. وهي التي طالما انحنت لغيره!

oooo



حتى الملائكة تسأل!

ظل جفري لانج مسيحيًّا بحكم النشأة حتى بلغ الثامنة عشرة حيث تحوَّل إلى ملحد؛ لعدم قدرة عقله على استيعاب فكرة الألوهية المثلَّثة، وفي سن الثامنة والعشرين قرأ كتابًا في تفسير القرآن، فوجد إجابات متماسكة ومنطقية دعته إلى إعلان إسلامه..

وهو بهذا يتفق مع ما يقوله محمد أسد؛ من أن فكرة التثليث والتجسد الإلهي لا تبعد الناس عن الكنيسة فحسب، بل عن الإيمان برمته.

عنوان الكتاب الذي اقتبسته منه: (حتى الملائكة تسأل) جاذب ومعبِّر وواقعي، ففي سورة البقرة تجد الملائكة تسأل ربَّها عن الحكمة في خلق آدم.. وهذا إلهام للبشر أن يتأمَّلوا ويتفكَّروا في حكمة خلقهم، وفي أنفسهم، وفي الكون من حولهم.

سألت الملائكة، ولم يسأل آدم ولا حواء.. لم؟

لم يبدآ بالسؤال، بل حاولا الاكتشاف وفق الإلهام والقدرة على التفكير،

وقد سأل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾، وسأل موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾.

حين يكون السؤال معنى متحرِّكًا داخل الإنسان فهو لا يُطرح للاستعراض أو التعجيز أو التعنت أو الترف الفكري أو المغالطة أو التكلُّف.. ولا يتقحَّم ما لا سبيل له إليه من الغيوب والمتشابهات..

حين يكون السؤال ضرورةً معرفية وحقًّا إنسانيًّا بل وواجبًا إيمانيًّا فلن يتوقف موسى عند شرط الخضر عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، على أنه وعده ابتداءً بالكشف عما أشكل، ولكنه لم يصبر!

حين يكون السؤال استزادةً من الفهم، وتوسيعًا لدائرة الوعي؛ فهو منهج نبوي يسمع ولا يقمع، وحين قال ضِمام بن ثعلبة رضي الله عنه: إنِّي سائلُك فمُشَدِّدٌ عليك في المسألة، فلا تَجِدْ عليَّ في نفسك. أجابه ﷺ بقوله: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ»(١١٦)!

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم رسولَ الله ﷺ عن مسائل كثيرة وأجابهم عليها، ومنها ما جاء جوابه في القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ.. ﴾، وما أرشد الله نبيه ﷺ إليه: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ... ﴾، ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

توجيهٌ مذهلٌ في معالجة الشك بالسؤال.. والغالب أن المراد به أمته ﷺ، وتقرير أن المعرفة الصادقة تُؤخذ من أربابها مَنْ كانوا..

حين يكون السؤال كُوَّةً ينبثق منها النور؛ لأنه بحث في الممكن والمقدور، وليس في المتشابهات والغيبيات؛ التي لا سبيل للعقل إليها.. فهو يستدعي الجواب الحكيم المناسب، ولا يجعل العالم رهينة الجاهل، ويبقي

الباب مفتوحًا للمزيد من التحرِّي والتدقيق والبحث، فختام الجواب: (والله أعلم)، وقد يكون الجواب كله: (لا أعلم.. لا أدري..).

من الخير أن تبقى بعض الأسئلة مفتوحة؛ لتنشيط حركة العقل، وترك فراغات معرفية تحفز على التزوُّد: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

مشكلة العلم، ومشكلة الإيمان، ومشكلة الحياة هي: التقليد الأعمى، والتوقف عن النمو، والغرور بقليل المعرفة وظاهرها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

ثَمَّ مسائل عويصة وشائكة من الغرور التسرُّع فيها بجواب يُغلق الباب ويشل الفكر، أو الخروج منها بحالة من الانسلاخ ونبذ الإيمان.

أبقِ للمستقبل حقًّا.. وربما عثرت على الجواب، أو عدلت عن السؤال، أو نقلته إلى ميدان آخر..

أمر الله بالسؤال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وعَدَّه النبيُّ ﷺ شفاء للعِيِّ[117]، وسمَّاه الخليل بن أحمد مفتاحًا لأقفال العلوم، وتواصى به العلماء، حتى لحظ عبد الله بن المبارك طالبًا لا يسأل فمازحه وقال:

إِنْ تَلَبَّثْتَ عَنْ سُؤَالِكَ (عَبْدَ اللـ ـــهِ)تَرْجِعْ غَدًا بِخُفَّـيِّ حُنَيْنِ

أَعْنِتِ الشَّـيْخَ بِالسُّـؤَالِ تَجِدْهُ سَلِسًـــا يَلْتَقِيـــكَ بِالرَّاحَتَيْنِ

وَإِذَا لَمْ تَصِـحْ صِيَـاحَ الثَّـكَالَى رُحْتَ عَنْهُ وَأَنْتَ صِفْرَ الْيَدَيْنِ[118]

شيوخ كانوا يُعلِّمون تلاميذهم كيف يلحُّون في السؤال، وليس التلقِّي والتلقين وهز الرؤوس والسمسمة!

المعرفة الإنسانية هي حرث الأسئلة الملغومة داخل كل جوابٍ جاهز،

وتوليد الأسئلة في رحم كل تقليدٍ أعمى، واستفهام البرهنة خلف كل ادعاءٍ مطلق.

وقد عقد القاضي ابن خلَّاد الرَّامَهُرْمُزي بابًا (القول في السؤال) وذكر آثارًا وأخبارًا، من أحسنها قول الزُّهري وابن سِيرين: «للعلم خزائن وأقفلة، مفاتيحها المسألة»(١١٩).

ليس صحيحًا أن الله أحرق أولئك الملائكة الذين سألوا..

سؤال الملائكة جاء منسوبًا لجميع الذين خُوطبوا بالنبأ العظيم، خلافة آدم، وهل كان سؤالهم قياسًا على مشهد أثار استغرابهم من قبل، وعلى الأرض ذاتها؟ محتمل.

وسؤالهم يفتح للإنسان ميدان البحث عن معناه، وسر كينونته، ومقصد وجوده.

لم يُخلق آدم للتسبيح والتقديس المجرَّد كمَلَك، خُلِقَ ليعمر ويبني ويكتشف ويبدع ويحاول، ويحقِّق ذاته عبر السعي المتواصل للخير والحق والحب والعمل والعطاء، وصلته بالله زاده ووقوده وعصمته من اليأس والضياع، ومن البغي والعدوان.

سؤال الملائكة يبدو اليوم، وعبر الأحقاب، مشيرًا إلى الفساد العريض والتظالم وسفك الدم تحت ذرائع شتَّى؛ الذي حفل به تاريخ الحضارة!، فكيف بتاريخ التخلف والبدائية والجهل؟

والجواب الإلهي داعٍ للتأمل فيما هو أبعد، من المعاني الإيجابية، وقراءة الوجه الآخر في وجود الإنسان.. الوجه الذي ترجَّح مصلحته بيقين قاطع وإن كان ثَمَّ مفسدة.

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فإن كنتم أعملتم القياس، وظننتم آدم في

ميزان الأقوام المتخلِّفين المتوحِّشين ناقصي العقول، فالله يعلم من فضله وذريته ومزيَّته وتكريمه ورحمته ما لا تعلمون.

إنه عبد موصولٌ بالله؛ معرفةً وحبًّا وخوفًا ورجاءً، وموصول بالأرض؛ إعمارًا واكتشافًا وإبداعًا.. خُلِقَ ليُضيف للأرض قيمةً، وللشمس وللقمر وللنجوم وللسماوات، فوجوده فيها كشف إعجازها، وأظهر تسخيرها، وجلَّى مقاصدها وحِكَمَها ومراميها، وفتق أسرارها.

عبر قرون متطاولة كان الأنبياء عليهم السلام والأولياء والصِّدِّيقون والشهداء، وكانت الصلوات والدعوات والخلوات والخشوع والدموع، وكان الابتلاء والصبر، والكرب والفرج، والضيق والأمل، والحزن والسرور، والمحاولة والخطأ والصواب، والذنب والمتاب، والوصل والصدّ والعتاب.. وكان وكان وكان!

عبر قرون متطاولة كان الكشف والتعلُّم، والمغامرة والإبداع، والنجاح والفشل، والمشكلة والحل، والبحث والتعثُّر، والوصول والخدمات، والتسهيل والتطور، والنظريات المعرفية..

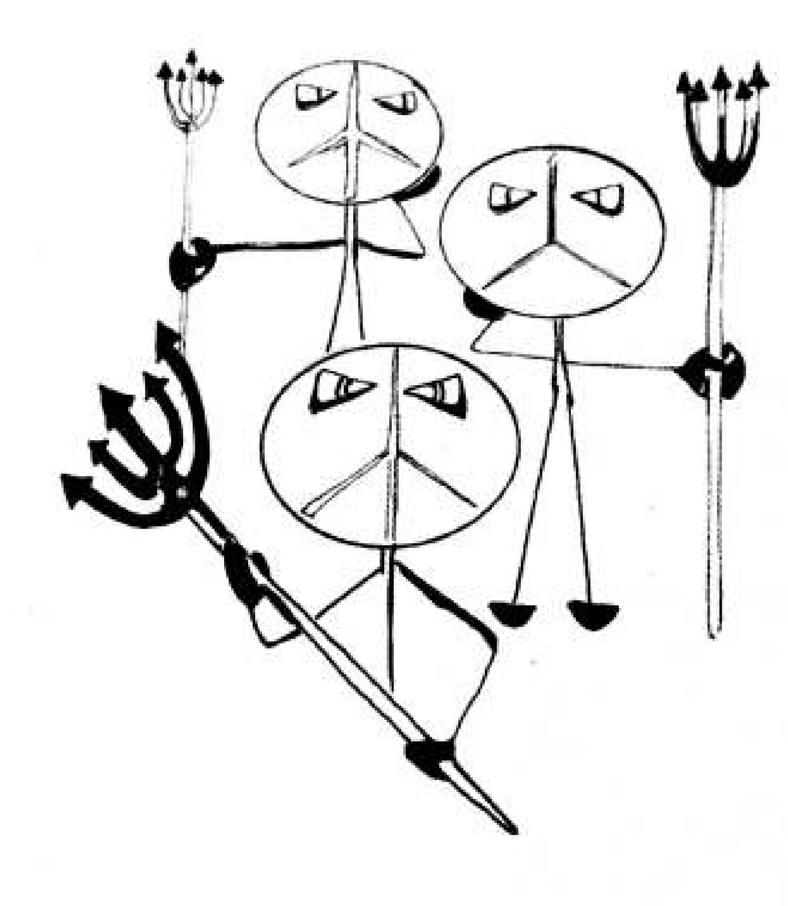
لكل منًّا أن يقرأ في حراك البشر وجهًا جميلًا طيبًا.. بعدما غلبت لغة التشاؤم، والتشاتم، والمؤامرة، والصراع، والقطيعة.. حتى نسينا نحن المسلمين- أو كدنا- حكمة الباري في خلق الحياة والبشر برهم وفاجرهم، خاطئهم ومصيبهم، مؤمنهم وكافرهم.

لكل منًّا أن يستشعر شيئًا من أسرار خلقه تحت ظل هذا الجواب الرباني: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، بدلًا من اليأس والقنوط، وطول المثول أمام مصاعب الحياة ومتاعبها، وإخفاقاتها وابتلاءاتها.. أو الرغبة في اختصار المسير، وانتظار المصير، واستعجال الرحيل.

لنؤمن بحكمة الحياة وجمالها؛ لأنها صادرة من الله الحكيم الجميل الطيب الصبور، وليكن هذ الإيمان دافعًا للاستمتاع بها وتذوق جمالياتها، دافعًا للإضافة الإبداعية علميةً أو أدبيةً، ولو كانت يسيرة، فالجود من الموجود، وليكن فعلنا للخير، وإحساننا لشركائنا فيها، وصبرنا عليهم تأويلًا حسنًا للجواب الإلهي العظيم.

ولنردِّد مع الملائكة، فيما أعيانا فهمه وإدراكه، جواب العجز عن معرفة الأسماء: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. ولنقتبس من آدم سر الإلهام والتفوق، والجرأة في عقله، والتواضع في خَلْقه وأصله، فلا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبر.

OOOO



شیاطین



عزازيل!

اشتهر الشاعر بشَّار بن بُرد بالمجون والفجور، وكان يقول بتفضيل إبليس على آدم، ومن شعره:

إِبْلِيسُ أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ ... فَتَبَيَّنُوا يَا مَعْشَرَ الفُجَّارِ!

النَّارُ عُنْصُرُه، وَآدَمُ طِينَةٌ ... والطِّينُ لَا يَسْمُو سُمُوَّ النَّارِ(١٢٠)

والحق أن الطين فيه التماسك والبناء والتواضع والتنوُّع، بينما النار فيها التآكل والتحريق..

والطين ينتفع من النار ويزداد قوة وصلابة، بينما النار لا تنتفع من الطين..

ويبدو أن إبليس ينتمي إلى مجموعةٍ كان لها حضور ونشاط، ثم عاثت في الأرض فسادًا، فاستبدل الله بها آدم وذريته.

وجاء عن ابن عباس وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم والسلف أنه كان لإبليس سلطان على أهل الأرض وقوة، فوقع منهم الفساد.

ولعله لهذا قالت الملائكة ما قالت؛ فقد رأت في الأرض فسادًا عريضًا ودماء تُسفك، في حقبةٍ ساد فيها التوحُّش والاعتداء والفساد.

لا غرابة إذن أن يكون جوهر فساد إبليس الكِبر ورفض السجود والاعتراض على الله في شريعته وحكمته، وأن يكون الكِبر مانعًا من دخول الجنة: «**لَا يَدْخُلُ الْـجَنَّـةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**».

وأن تكون الأنانية العمياء والتعاظم وانتفاخ الـ(أنا) نقيض العبودية لله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، وأن يكون التواضع وخفض الجناح سيماء المؤمنين الصالحين القريبين من ربهم.

وأن يكون الحسد من شرِّ الأدواء؛ التي تمنع من قبول الحق والانقياد له، كما فعلت يهود حين رفضوا دعوة النبي ﷺ: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

وأن تكون العنصرية البغيضة المقيتة، والتفاخر بالأصل والفصل، والأب والجد والقبيلة من أسباب الفساد العظيم: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

ولذا لا تكاد تجد أحدًا يكثر الحديث عن نسبه وقبيلته إلا ويعتقد بفضلها وتفوقها وكثرتها وتميزها عن سواها.

لم يجعل الله تميز آدم بالطين ولا بالعنصر الذي خُلق منه، أيًا كان، وإنما بالنفخة العلوية التي حوَّلته إلى إنسان مكرَّم مختار، وأهَّلته بفضل ربه للنبوة..

ولا غرابة أن تكون المقارنات العشوائية الخاطئة المتحيِّزة من أهم عوامل بغي بعض الناس على بعض، وظلم بعضهم لبعض، وتكدر عيشهم.

وكم زوج أعرض عن زوجته لأنه قارنها جسدًا بسواها، ونسي جماليات روحها وصبرها وعفافها وطرفها المقصور عليه!

وكم ولد غَاضَبَ والديه أو تمرَّد عليهما لظنه أنهم يُفضِّلون آخر عليه، ولعله لم يتحقَّق من ذلك، أو لم يتفطَّن لأسبابه.

وكم إنسان شرق بتفوق غيره واعتقد بأن رتبته دونه، ونسي أن الفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء!

التمرد ليس معنى جميلًا بذاته، ما لم يكن خروجًا على الفساد والطغيان، وفي ملحمة (الفردوس المفقود) لجون ميلتون المعنية بقصة آدم وحواء وصراع الخير والشر يسمي إبليس والشياطين بالملائكة الفسقة المتمردين!

إبليس لم يكن من الملائكة قط، كان من الجن[١٢١]، ولكن غاظه أن تسجد الملائكة لغريمه؛ وعرف أن السجود لآدم يوحي بالسيادة والتسخير والحفظ والمعاني الكريمة.. فتمرَّد على الأمر الإلهي والإجماع الملائكي وأَبى أن يسجد.. وصار يُمثِّل الدولة العميقة؛ التي هُزمت ظاهرًا ولا زالت تحاول استعادة وجودها.

أنصفه ربه حين سأله - وهو سبحانه أعلم- : ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾.

وحين باح بغروره وإعجابه بنفسه، واعتقاد تفوقه وفضيلته عاقبه بالطرد واللَّعن، وأجاب طلبه بالإمهال، جعل له سلطانًا على: ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

ولذا سُمي: إبليس، وهو مشتق من الإبعاد والغضب، أو من التمرد والرفض، وظاهر أنه اسم جديد له بعد الحادثة، وكان قبلها يسمَّى: عزازيل، على ما هو مشهور في الدواوين[١٢٢].

كرَّس الشيطان نفسه بعدُ في إغواء آدم وذريته، ومخاطبة غرائزهم ونقاط ضعفهم، وتثبيطهم عن الخير وتحريضهم على الشر، وتضخيم الصفات السلبية فيهم حتى تكون غالبةً ظاهرةً متحكمةً؛ كالحرص، والخوف،

والجبن، والبخل، والشهوة، والاعتداء..

وأعظم ما يوسوس به التشكيك في الله والآخرة وسائر الغيوب التي لا يراها الناس، والتشكيك في وجوده ذاته!

وسلاحه في ذلك الوسوسة وتكرار المحاولة: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾.

والتزيين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

فالفساد متفرِّع عن استحسان البشر للأشياء السيئة نتيجة الإغراء الذي يخاطب جانبًا من حاجة الإنسان أو غريزته، وأدواته تتطوَّر مع الزمن حتى تصبح أجهزة مصاحبة له في حضره وسفره ويقظته ومنامه!

ها نحن نجد أنفسنا نقضي الساعات الطوال في مشاهدات أو أحاديث أو مُتع أو برامج لا مردود لها، وربما كانت سيئة العُقبى، فإذا قمنا لصلاة أو ذكر أو قرآن شعرنا بالتثاقل والملل، وصرنا نُقلِّب عيوننا في الساعة ونحسب الدقائق!

ها نحن نُنفق الأموال بلا حساب على المتع والشهوات وملذات النفوس، فإذا هممنا بالصدقة حضرت المخاوف والحسابات والتساؤلات؛ قد أحتاجها.. وهذا كثير.. وهاالإنسان ما يستاهل..!

والشيطان يسعى في إشاعة الحزن والهم والغم والتوتر: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وعصيانه بإشاعة الفرح والرضا والسرور والتفاؤل والأمل، وتوقُّع الخير من الرب الكريم الرحيم.

ما شكل الشيطان؟

في القرآن الكريم وصف الله ﴿شَجَرَةَ الزَّقُّومِ﴾ بقوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾، وهو تقبيحٌ للصورة بما لم يره الناس، كما قال الشاعر:

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي ... ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغوال[123]؟

وأنياب الأغوال مجهولة الشكل، ولكن النفوس تستبشعها وتخاف منها.

وفي الأفلام الكرتونية وغيرها تتنوَّع صور الشياطين وفق خيال الرَّسام، فتكون أحيانًا بقرون، وفي الحديث أن الشمس تطلع بين قرني شيطان[124]، والصور المتخيَّلة له في العادة قبيحة المنظر مخيفة منفِّرة..

لكل إنسان شيطانه الذي يوسوس له، وفي الحديث: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْـمَلَائِكَةِ**». قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: «**وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»[125].

والأقرب أن أسلم بمعنى: استسلم وكفَّ عن الوسوسة[126].

وشيطان إبليس هو إبليس ذاته، وهو اختار بإرادته طريق الغواية.

والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[127]، ويصل إلى قلبه بالوسوسة والتلبيس والتثبيط عن عمل الخير والإغراء بالشر.

والعصمة منه بالاستعاذة، والذكر، والتسبيح، والصلاة، والأوراد الصباحية والمسائية، وعند النوم، وفي تقلُّب الأحوال.. وجعل ذلك عادة: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِن ذِكْرِ اللهِ**»[128].

والمسُّ الشيطانيُّ جاء على لسان نبي الله أيوب عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

والنصوص تدل على أن الشيطان يدنو من الإنسان، ويحاول إيذاءه، ويسمِّيها بعضهم بالملاطفة؛ لأنه اقتراب خفي متدرِّج..

لكن المبالغات التي يتداولها بعض الناس ويكثرون من روايتها، ويضيفون إليها من الخيال ومن الروايات والقصص الغريبة؛ تسبِّب حالة من الذُّعر والخوف

ليس عند الأطفال فحسب، بل عند كثير من النساء والرجال؛ الذين يعتقدون أن الشياطين تكمن لهم في كل منعطف، وتتربَّص بهم في كل ظلمة، وتنقض عليهم كلما انفردوا... وتقتحم أجسادهم وتعطِّل إرادتهم وتتكلَّم باسمهم!

والشيطان يفرح بهذا الشعور ويزداد رَهَقًا، وكم مرة نقول عن مريض: إن الشيطان قد صَرَعه، مع أن النبيَّ ﷺ نهى عن ذلك، فعن رجل رَدِف النبي ﷺ قال: كنتُ رَدِيف النبي ﷺ على حمار، فعثرَ الحمارُ فقلتُ: تَعِسَ الشيطانُ، فقال: «**لَا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الْـجَبَلِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ. وَلَكِنْ قُلْ: بِاسْمِ الله، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: بِسْمِ الله، تَصَاغَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**»(١٢٩).

إرخاء ستر البيت مع ذكر الله يحمي من الشيطان، وعرض عودٍ على الإناء مع الذِّكر يحجبه، ولا يزيد قُوَّته مثل الاعتقاد بقوّته: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

عن الجن والشياطين يختلط الصواب بالخطأ، والحقيقة بالوهم، والأحاديث الصحيحة بالضعيفة المنكرة، والتأكد والتحرِّي هو سبيل المؤمن، وللشيخ عمر الأشقر كتاب مفيد هو (عالم الجن والشياطين).

جديرٌ بالمؤمن أن يكون ذكر الله على لسانه، وأن يقول بسم الله كلما ابتدأ أو دخل أو خرج أو عثر، وألَّا يعطى الشيطان حجمًا أكبر، وألَّا يعطي أولياء الشيطان حجمًا أكبر.

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.



صراع!

مضى زمن كنا نسمع فيه وصف التوجه السياسي لشخص ما بأنه تَقَدُّمي أو رَجْعِي، وهذه صارت قديمة؛ لأنها حكم على الآخر بالنظر إلى موقفك أنت منه.

أو يميني ويساري، وهذه قسمة من زمن الثورة الفرنسية؛ حيث كان أهل الجانب الأيمن مؤيدين للملكية بخلاف الضفة الأخرى.

أيًا ما كان فهي جهات أربع توعَّد الشيطان بني آدم بإتيانهم منها.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ بالتسويف، والأمل الكاذب، والغفلة، والإحالة إلى المستقبل.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ باستحضار الماضي وإشغالهم به، وتزيين ما وقع فيه من الغيِّ، والدعوة لتكراره، والتعلق بالأموال والأولاد، وكم من الناس

يعوقهم الالتفات الدائم إلى الماضي وعثراته وأخطائه ومشكلاته عن الانطلاق والنجاح!

﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ بالإعجاب بالنفس والعمل، والرِّياء، وتبغيض الطاعات إليهم، وتشجيعهم على استثقال الصلوات والخلوات والأذكار.

﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾؛ بالمعاصي والإغراء بها، وتحسينها وتزيينها.

ولذا كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»(١٣٠).

هذا التوعُّد قاله إبليس لربه انتقامًا من آدم، حيث أدرك أنه سيكون له ذرية تهيمن على الأرض وتخلف فيها، فهو وعيد بالثأر من الهزيمة التي حاقت به وبمجموعته!

ولعله لم يتوعَّد آدم شخصيًا في هذا الموضع؛ لأن آدم قد تاب وأناب وتلقَّن الدرس جيدًا!

كان الوعيد للذرية:

﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

توعَّد أن يقود الذرية ويسيّرها حيث شاء، وكأنه يقود دابة ويضع اللِّجام في حنكها.

وهو تمثيل غريب من الشيطان في وعيده أن يتحكَّم بالبشر، وأن يتفنَّن في وسائل الإغراء والافتتان..

وأوضح ما يكون هذا في سيطرة العادات الشِّريرة على الإنسان، واستسلامه للإدمان على مشروب أو ممارسة أو انفعال يقود إلى تكرار

الذنب والوقوع في شباكه وشراكه..
حتى ربما فقد الإنسان الرغبة والدافع الفطري للفعل، ولكنه يظل يمارسه بحكم العادة والحنين والشعور بأنه لا يزال في نفس مرحلة الشباب!.
المعركة صاخبة وشديدة، وتستخدم فيها الأسلحة المختلفة؛ الخفيفة، والثقيلة، والمتوسطة!
﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.
قال ابن عباس: (بِصَوْتِكَ): كل داعٍ إلى معصية[١٣١].
ويدخل فيه الصوتان الأحمقان الفاجران:
صوت الشهوة والإغراء والإثارة والفتنة.
وصوت التسخُّط والصياح والاحتجاج على القضاء والقدر.
الصراع قائم ولا بد بين الخير والشر حتى بين الناس بعضهم وبعض.
والمقاومة تكون منذ اللحظة الأولى، منذ الخاطرة والنية والتردد، والله مع العبد ما لم يعجز أو يستسلم، فمَن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، ومَن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة!
الصراع بين البشر ليس هو الأصل المشروع، بل المشروع التكامل، والتعارف، والتعاون، والتواد، والتراحم، والتعاطف، والدفع بالتي هي أحسن.. وما شاكل هذا من المعاني الواردة بنصوصها في القرآن والسُّنة، وهو المطلوب من العباد.
والصراع هو نتيجة البغي والعدوان وطاعة الشيطان، حتى إنه يكون بين الزوجين عداوة أو بين الأولاد والآباء: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾.

البشر فقط هم الذين يقتل بعضهم بعضًا بخلاف معظم الذئاب والأسود والوحوش من جنسٍ واحد!

وَلَيْسَ الذِّئْبُ يَأْكُلُ لَحْمَ ذِئْبٍ ... وَيَأْكُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا عِيَانًا[١٣٢]

الإنسان وحده مَن يُحرِّض الوحوش والثيران والإبل والدِّيَكَة؛ لتتناطح وتتقاتل وتهلك!

وَمُـرَادُ النُّفُوسِ أَصْغَـرُ مِن أَنْ ... نَتَعَـادَى فِيـهِ وَأَنْ نَتَفَانَـى[١٣٣]

صناعة المعارك وإدمان الغارات يمنح الإنسان شعورًا مؤقَّتًا بالرضا، ويعطيه مكانةً متميِّزة لدى مجموعته أو طائفته، ولكنه يحرمه من العمل والإنجاز، ويجعله رهنًا لردود الأفعال، ويلغي شخصيته، ويجور على إنسانيته..

والحق ركنان بنَّاءٌ وهدَّامٌ.

والهدم لا يراد لذاته إنما يراد للتشييد والبناء.

تعلَّمت من تجربتي الصغيرة أن أفضل طريقة للفوز بالحرب هو ألَّا أخوضها.

ومن حِكَم العرب: أَبْقِ للصُّلْح موضعًا.

وتعلَّمت أن الصبر على أذى خصم أحمد عاقبةً وأروح للنفس وأبرأ للذمة من الدخول معه في عراكٍ لا طائل من ورائه.

ولو كانت النجاحات بالخصومات لكنا اليوم فوق أهل الأرض جميعًا!

oooo



"وظني فيك يا سندي جميل"...

حوار إلهي

قرأت قديمًا كتبًا في الحوار وضرورته، ووجدت بعضهم يستدلون بأن الله حاور إبليس.. تساءلتُ في نفسي: هل يسمى ما ورد في القرآن بهذا الشأن حوارًا؟

ولم لا يسمى حوارًا؟

وما هو الحوار؟

أليس نوعًا من الترادّ والتراجع في القول؟ وقريب منه الجدال، والعبد يجادل ربَّه يوم القيامة؛ كما في الصحيح(١٣٤).

أليس يحتشد في القرآن عدد ضخم من محاورة الله للملائكة؛ في قصة آدم، وفي غيرها؟ ولآدم وزوجه؟ وللنبيين من بعده: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وأيوب، وسليمان عليهم السلام؟

ومثل ذلك مع الصِّدِّيقين والشهداء والمؤمنين.

ومع الضالين والمشركين من ذرية آدم، ومن بني إسرائيل، ومن غيرهم..

منه ما مضى وانقضى، ومنه ماهو آتٍ يوم القيامة: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.

ماذا يسمى هذا النص؟:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟﴾.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

الله يُمهل الشيطان، ويسأله - وهو أعلم- ويسمع جوابه ومغالطاته، ويرى كبرياءه ويصبر عليه، وبيده إهلاكه فورًا..

الله يستجيب لطلبه بالإمهال والإنظار إلى يوم القيامة.. ويستمع إلى تحدّيه ووعيده لذرية آدم، ويجيب بقوله سبحانه: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

غاب المنطق عن إبليس؟ وبقي الحوار يُعلِّمنا كيف نصبر على طيش الخصوم؟ كيف نقيم الحجة بهدوءٍ وتروٍّ؟

كيف نسعى لإظهار الحق على لسان الخصم وليس لمجرد الإفحام والتوريط، وتدوين الهزيمة والفشل؟

كيف نُوصِّل المعلومة الصحيحة بالحوار، ونستخدم الإقناع بدل التلقين؟ كيف نصغي لمحدِّثنا ولو كان يقول ما لا يستحق الإصغاء؟

كيف نتيقَّظ لألاعيب الكلام ومخادعاته؟

كيف نتوقف عن الحوار حين يتحول من الحجة – ولو كانت واهية أو باطلة- إلى التهديد والوعيد؟

وفي شأن آدم وحواء:

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

عتاب محب، وجوابُ معترف.

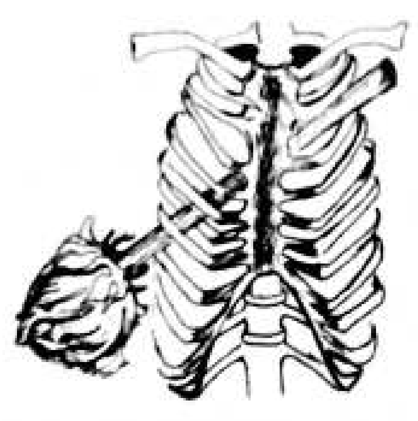
الحوارات الإلهية سؤال ممن يعلم السر وأخفى، ويعلم وسوسة النفس، والأمس واليوم والغد عنده سواء.

وهو يُربِّي خلقه على التعبير عن دخيلة نفوسهم ومشاعرهم، والكشف عن بواطنهم؛ أكانت صدقًا مطابقًا للأمر، أم توهُّمًا، أم كذبًا، أم ادعاءً؛ لأن حكمته اقتضت أن يكون الثواب والعقاب والرفع والخفض بموجب ما يحدث من الناس وليس بموجب العلم الإلهي السابق، ولذا خلق الناس ومنحهم الإرادة، وأعطاهم الخيار..

دعوة الأنبياء عليهم السلام كانت حوارًا بالتي هي أحسن، وصبرًا على الأذى..

لم يكن فيها تطميع بعاجل الدنيا، وما كان فيها من وعد بالنصر فهو للحق والإيمان وليس لأحد بعينه.


ولكلّ الناس يا أمي
مياهٌ ووحدكِ زمزمُ
لروي فؤادي
حواء



ضِلَع أعوج !

دأب الشيخ الذي يسكن جوارنا على مناداة زوجته كلما مرَّت بهذا الوسم الغريب!

وحين عاتبه أحدهم احتج بحديث خلق المرأة من ضِلَع، فردَّ عليه آخر: وهل ترضي أن نناديك بالتراب؟

خلق الله آدم فاستوحش لانفراده وهو قد فتق لسانه بالكلام فيحتاج إلى من يرد له الصوت، فخلق حواء؛ لتسكن إليه ويسكن إليها.

آدم وحواء زوجان قبل أن يكونا أبوين، الزوجية قبل الأبوة.

لسان حال حواء يقول: خلقني الله منك وأنت نائم.. أفلا تريد أن تستعيدني إليك وأنت يقظان!

ولسان حال آدم يقول: أحن إليك حنين الأصل لفرعه.

○ كيف خُلِقَت حواء؟ في العهد القديم والروايات الإسرائيلية أنها خُلقت من ضِلَع آدم الأيسر.

مسئولية هذا الحرف ليست على صريح القرآن ولا صحيح السنة، ولكن في القرآن: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

ظاهر هذه الآية أن حواء خُلقت من آدم، لكن دون تعيين الموضع.

في الحديث: «**إِنَّ الْـمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ**»[١٣٥]، وهذا يحتمل أن تكون خُلقت من ضِلَع آدم، أو تكون تلك إشارة إلى طبيعة المرأة وفطرتها وروحها وعاطفتها، كما في قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، ولذا قال بعده: «**وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا**».

وقيل خُلِقَت خلقًا مستقلًا من الطين كآدم.

بعد طول تردد في المسألة صرت أميل إلى أنها خلقت من ضِلَع آدم، فهو جارٍ على ظاهر المعنى، وليس فيه تنقيص للأنثى، فهي خُلِقَت من شيء حيٍّ متقدِّم على التراب والطين، وهو العظم اللين في جنب آدم، والذي هو بطبيعته مائل ليكون على استدارة الجنب وهذا من كمال الخلقة، ولولا اعوجاجه لم يكن ضلعًا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: خُلقت حواء من ضِلَع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم.

وعن مجاهد مثله، في «المبتدأ» لابن إسحاق[١٣٦].

كان آدم نائمًا يوم خُلقت واستُلَّت منه، وكأنها عملية استنساخ، ويبدو - والله أعلم- أنها خُلقت من نُخاع العظم، فلكل ضِلَع نُخاع، والإعجاز هنا استنساخ الأنثى من الذكر بعد أن كانت كامنة فيه لتتمحض رجولته وتستقل أنوثتها!

وكأن نومه يشبه التخدير لإتمام عملية الاستلال، ولله الحكمة البالغة.

تفصيلات الحقائق الماضية لا يلزم أن تمتلك دليلًا قطعيًّا يذعن له الناس

جميعًا، والخلاف فيها سائغ، وربما كان دليل الوجدان العاطفي القلبي الروحي لا يقل أهمية عن الدليل العقلي المنطقي.

الحنين المتبادل والاحتواء والحب يوحي بأن الزواج السعيد يمثل حالة عثور الشطر على شطره الآخر، وكما هو استكمال للدين فهو استكمال للشخصية.

مؤسسة الزوجية عريقة عراقة آدم وحواء، ولا بديل عنها شرعًا ولا فطرة، ويتحتم على كل طرف السعي في ترميم العلاقة وحمايتها.

آدم خُلِقَ من أديم الأرض، وتميَّز بالسمرة والصلابة.

وحوَّاء خُلِقَت من حَيٍّ، فالحياة فيها أكثر أصالة، واسمها يدل على الاحتواء، وهي روح الحنان والحب الذي تتفوَّق فيه المرأة، كما يدل على الجمال، فالحوَّة هي: سمرة الشفتين، وهو ضرب من الحسن تغنَّى به الشعراء.

تسميها العرب حوَّاء، وهي كذلك في الإصحاح الثالث، وبالعبرية: حواه، وبالإيطالية: إيا، وبالفرنسية: أي، ويبدو أن الأصل واحد.

خلقها الله من آدم ثم خاطبها خطابًا مستقلًا: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾.

خطاب الله المباشر لها تشريف وتكليف، وترسيم لمسئوليتها وذمتها المستقلة، وأنها ليست مجرد تابع للأب أو الزوج.

القاعدة في أوامر الشرع ونواهيه أنها للذكر والأنثى سواءً، إلا ما دل دليل على تخصيصه بأحدهما.

الخوض في تفضيل أحد الجنسين على الآخر لا لزوم له، بل بعضهم من بعض، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، وأوصى النبيُّ ﷺ الفتى بأمِّه ثلاثًا

وبأبيه واحدة[١٣٧]، والتفضيل الخاص للأم لا ينفي التفضيل العام للأب. الخطاب واحد، والعقاب واحد، والجزاء واحد، والشريعة واحدة، وليس الضعف واللِّين الذي تتميَّز به المرأة مدعاة لفضيلة مطلقة للرجل، فهاهم الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء، والضعفاء فيها أكثر من الأقوياء.

للرجل أخلاق وميادين، وللمرأة مثلها، وإذا كان الرجل يمتاز بالصبر على الشدائد وتبعات الحياة والعمل، فهو لا يطيق صبر المرأة على الحمل والولادة والحضانة.

الرجل الشديد يتبرم من حمل طفل لدقائق، ويعجز عن مشاهدة آلام المخاض فيمَن يحب، ويضيق بصراخ الأطفال عند نومه..

ثمَّ رجال يُضرب المثل بوفائهم لآبائهم وأمهاتهم، وثمَّ نساء يُضرب بهن المثل في الوفاء لأزواج أحياء أو غيَّاب أو أموات.

٥٥٥٥



هل ثَمَّ حواء أخرى؟

يُحكى أن آدم تأخَّر ذات ليلة، فلما أوى إلى سكنه بادرته حواء بالسؤال:

- أين كنتَ؟

- كنتُ في بعض شأني!

الغيرة

ثم أردف متسائلًا:

ولِمَ السؤال؟ أتخافين من حواء أخرى وما خلق الله على الأرض غيرك؟

تظاهرت حواء بالاقتناع، وحين غطّ في نومه بدأت تتحسس أضلاعه!

رحمك الله يا آدم، كيف لو رأيتَ ذريتك وقد سنَّ لهم ربُّهم سنة الزواج، وجعله مودة وسكنًا ورحمة، فجعلوه صراعًا وتنافسًا وتحسسًا وتجسسًا،

إلَّا مَن رحم الله!

هذه الأنثى التي خُلقت من ضلعك على حين سِنَةٍ من النوم تغشتك فرأيتها أول مرة فألفتها وأحببتها وفرحت بها، ثم طال العهد ببنيك فملُّوا وقال قائلهم لحليلته حين سألته:

- يا أبا فلان، أين أنت من حسن العهد وقد عشتُ معك أربعين سنة؟

فأجاب: والله ما لك ذنبٌ غير هذا!

حكى أحدهم في مجلس قصة رجل تزوَّج فتاة تصغره بعقود من الزمن، وأنجبت له أولادًا، وهي لا تحبه وتتهرَّب منه وتتفلَّت من بين يديه وتريد الطلاق، وهو يولول ويصيح ليله ونهاره متمسِّكًا بها مصرًّا على إبقائها في عصمته حتى المات لسبب بسيط..

- إنه يحبها!

وكفى بالحب سببًا.

عبَّر أحد الحاضرين عن الإعجاب والثناء على قلبه العامر وإصراره على بقاء الحبل موصولًا بحبيبته وأم أولاده، فكثير من الرجال تمنعهم كبرياء الرجولة من إظهار التمسك بالأنثى، ويرون هذا نقيصة ومسبة لا تليق برجولتهم!

وثنَّى آخر بالتفاتة ألمٍ لصبية صغار، يخشى عليهم من الضياع والشتات والتدمير العاطفي والنفسي، إن حدث الفراق ولم تلتف الساق بالساق، وما لم يحضنهم بيت واحد فهم على شفا اضطراب واكتئاب..

والتَفَتَ ثالث إلى الأم الفتية داعيًا إلى إعادة النظر في (قرارها)، والعودة إلى (قرارها): ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، والقناعة والرضا بما كتب الله وقضى وإن كرهتيه فعسى أن تكرهي شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرا!

ويكفي في حسنات زوجك أنه أحبك وجعلك دنياه كلها، وربط سعادته بوجودك، وأن مَن في مثل سِنِّه لا تطمح عينه إلى سواك، ولا يخطر بباله غير خيالك..

ولعله ليس من بابة رجال نسوا قديمهم، وتجاهلوا نديمهم، وتنكَّروا لأسرتهم الأولى، وتخلَّوْا عن أبنائهم وبيوتهم تحت ضغط الأنانية والرغبة

الشخصية والوطأة الغريزية.

أيًا ما كانت الوجهة فقد شفع النبيُّ ﷺ لدى بَرِيرة لتعود إلى زوجها مُغيث، وكانت تكرهه، فقالت: يا رسولَ الله: تأمرني؟ قال: «لا، إِنَّما أنا شَافِعٌ». قالت: لا حاجة لي به[١٣٨]!

الحب من الله، وربما كان بقاء أنثى فتية في عصمة شيخ ضعيف مدعاة لفتنتها.

يقال بأن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لما تزوَّج مَيْسُون بنت بَحْدَل الكَلْبِيَّة نقلها من البادية وأسكنها قصرًا في دمشق، فقالت:

لَبَيْتٌ تَخْفِقُ الأَرْيَاحُ فِيهِ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مُنِيفِ

وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

وَأَكْلُ كُسَيْرَةٍ مِنْ كِسْرِ بَيْتِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرَّغِيفِ

وَأَصْوَاتُ الرِّيَاحِ بِكُلِّ فَجٍّ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْرِ الدُّفُوفِ

وَكَلْبٌ يَنْبَحُ الطُّرَّاقَ عَنِّي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِطٍّ أَلِيفِ

وَبَكْرٌ يَتْبَعُ الأَظْعَانَ صَعْبٌ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلٍ زَفُوفِ

وَخَرْقٌ مِنْ بَنِي عَمِّي نَحِيفٌ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ عَلِيفِ

خُشُونَةُ عِيشَتِي فِي الْبَدْوِ أَشْهَى ... فَحَسْبِي ذَاكَ مِنْ وَطَنٍ شَرِيفِ[١٣٩]

وكان كل ذلك لأنها لم تحبّه.

رحمك الله يا آدم، كيف لو رأيتَ بعض بنيك وهو يضرب في الأرض باحثًا عن المتعة، تحت مسميات شتَّى، وربما واقع الحرام أو قاربه، ثم هو يخشى أن يُبتلى بزوجه الطاهرة الحصينة فيتجسس عليها، ويفتش أوراقها وأجهزتها وتاريخها القديم، ويستحلفها بكل مقدَّس، وبالطلاق أن تصدقه

وتخبره عن علاقاتها وما مرَّ عليها، فإن كذبته صدَّقها وإن صدقته كذَّبها!
رحمك الله يا آدم، كيف لو رأيتَ بعض بناتك وقد حولت حياة شريكها إلى معاناة دائمة بكثرة التطلب والتذمر والعتاب، والغفلة عن حالة نفسية لدى زوجها ناتجة عن أزمة مالية أو صحية أو قهرٍ يحس به، ثم لا يجد من صاحبته إحساسًا بالتعاطف ولا مواساةً ولا مراعاة، فربما غضب أو هاجر فلا تجد في قاموسها كلمة تلطف أو تعطف أو اعتذار، وكأن اللغة عقمت أو المشاعر نضبت وجفت، فلم يعد لكلمة (آسف) مرادفات ولا ذيول.. صارت لا تقال، وإن قيلت فبلا رصيد ندم أو وفاء أو تدارك..
وكأن بيت الزوجية مصنوع من الريش أو القش، ولا يضير أن يتداعى أو ينهار، أو تسقط بعض جدرانه، أو تنهد بعض أركانه، أو يحجب عنه الماء والهواء والضوء..
بيت بنيتموه معًا وتعاهدتموه، ونبتت فيه أشجار وأزهار، أفمن السهل أن يُقَوَّض ويصبح أثرًا بعد عين؟
أو تعجز النفوس أن تحتمل تقصيرًا من الشريك، وهي ولا بد قد قصَّرت يومًا بقصد أو بغير قصد، ولو لم يكن إلا تقصير الطبع والفطرة والتربية التي لا تساعد أحيانًا، أو تجعل المرء يقصِّر لأنه لا يستطيع أن يقوم بالواجب.
كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول لزوجه: «إذا غَضِبْتُ فرضِّيني، وإذا غضبتِ رضَّيتك، فإذا لم نكن هكذا ما أَسْرَعَ ما نَفتَرِقُ»[١٤٠].
حين تَزِنُ نفسك وزوجك فلا تضع إبهامك على طرف الكفة.. دع الميزان يكشف الحقيقة.



هل تحبها؟!

إنها أول قصة حب في التاريخ، زعموا أن الملائكة سألت آدم: هل تحبها؟

قال: نعم.

وسألوا حواء: تحبينه؟ قالت: لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من الحب.

وفي أساطير العامة: لما أُهبطا إلى الأرض ظل آدم يبحث في النهار وينام الليل، وظلت حواء تبحث عنه الليل والنهار، وحينها التقيا قال لها: إنه كان يبحث عنها طيلة النهار، فأجابت بأنها لم تبحث عنه قطُّ!

إعلان الحب بين الزوجين ليس عيبًا، وحين عاتبت عائشة رضي الله عنها رسولَ الله ﷺ لكثرة ما يذكر خديجة رضي الله عنها قال: «إِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا»(١٤١).

أي تعبير أجمل من أن يكون الحب رزقًا يدخره المرء ويقتات عليه!

● كان الوصال روحيًا في الجنة والله أعلم، ولما ذاقا الشجرة جاءت الغريزة والاحتياج الجسدي، وليس عيبًا ولا عارًا، بل هو من الكمال الإنساني.

السكن في الجنة إذًا كان روحانيًا، وكان الأكل والشرب أعلى المتع الجسدية، ولذا قال: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

والزوجية قد تعني ما هو خلاف الفردية، كما في قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

والزوج هنا كناية عن القرين، أي قرنا بكل واحد نساءً حورًا عينًا، وليس فعل ﴿زَوَّجْنَاهُم﴾ هنا مشتقًا من الزوج الشائع إطلاقه على امرأة الرجل وعلى رجل المرأة؛ لأن ذلك الفعل يتعدَّى بنفسه يقال: زوَّجه ابنته، وتزوَّج بنت فلان، قال تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، وليس ذلك بمراد هنا؛ إذ لا طائل تحته، إذ ليس في الجنة عقود نكاح، وإنما المراد أنهم مأنوسون بصحبة حبائب من النساء كما أنسوا بصحبة الأصحاب والأحبة من الرجال استكمالًا لمتعارف الأنس بين الناس.

ولم تشر قصة آدم إلى معاشرة زوجية بينهما في الجنة، بينما أشارت إليها بعد هبوطهم إلى الأرض: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ...﴾.

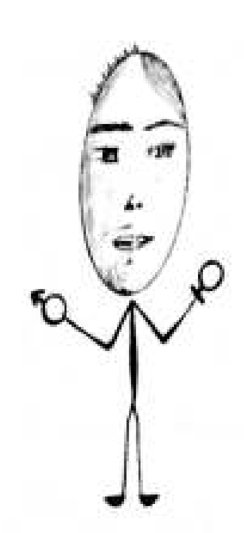
ولم يذكر في السياق ذريتهم في سكنى الجنة، وإنما ذكر الذرية على الأرض، فكأنها ثمرة للهبوط إلى الأرض وبدء مهمة الإعمار.

كان آدم أكبر من حواء لأنه خُلق قبلها.. وهكذا هي العادة الغالبة أن الزوج أكبر من الزوجة..

ولعله كان أطول منها وأمتن، وغالب الذرية يفضِّلون أن يكون الزوج أطول من زوجته..

- آدم ظل (موحدًا) طيلة عمره، ألف سنة وهو يعيش مع زوجة واحدة! فتَّحنا عيوننا على أسر ترى التعدد ضرورة للإشباع، ولحل مشكلات بعض النساء، ولتكثير الأولاد ليعملوا في الزرع أو الرعي، ويشكِّلوا قوة

وهيبة وسلطانًا لآبائهم.
تغيَّرت أحوال، وصار الإنفاق على الأبناء مشكلة عويصة، والرزق عند
الله، ولكن لطلبه أسباب، وكثيرون لا يملكون تلك الأسباب ويعددون
ويكثرون الأولاد ثم يتركونهم للفقر أو الضياع.
قال سعيد بن المسيّب: «قلة العيال أحد اليسارين»[١٤٢].
التجربة تجعلني أقول لأبنائي: إن المسئولية جسيمة، ومجرد إيقاظ الأولاد
من النوم هو عملية مجهدة على المدى الطويل؛ خاصة لِمَن يسهر ويكون نومه
ثقيلًا، فما بالك بجهد متابعة التعليم، والتربية، والعطاء العاطفي، والعلاج..
ليس بي تحريم ما أحلَّ الله، ولكنه سبحانه قال: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ
لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.
والعدل مهم لاستقامة الحياة وبر الأبناء، ومع تعدد الأمهات يقع التشاحّ
والتشاحن والشك في عدل الأب حتى لو بذل وسعه واجتهد.
رزقني ربي بأربع من البنات عرفت بهن طيب الحياة وسعادة العيش،
حضورهن أنس وبركة، وغيابهن شوق ودعاء، وعلاقتي بهن تفوق
علاقتي بإخوانهن الذكور، أشعر أن إيماني بالله جزء لا يتجزأ من هذه
العلاقة، ليست علاقة شفقة أو خوف، بل علاقة ثقة وتقدير.
حين تسيء إلى امرأة فأنت تسيء إلى نفسك؛ لأنها خُلِقَت منك.



شقيقتي !

ولِمَ يبدو هذا العنوان مستغربًا وكأنني سأتحدث عن أختي من أمي وأبي؟

أليست الأنثى شقيقة الرجل؟

«إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»(١٤٣).

أوضح ما ينطبق هذا الوصف على حواء؛ فهي مشتقة من آدم؛ ولذا فالأصل هو التوافق والتشابه بين الذكر والأنثى، والفوارق موجودة ولكن محدودة.

الاختلاف جوهر الائتلاف والتكامل بين الذكر والأنثى.

أن تكون المرأة واعية بقيمتها وذاتها كحال أم سلمة رضي الله عنها يجعلها مبادرة في الخير، حين نهضت سريعًا ومشت إلى المسجد وهي تسمع نداء النبي ﷺ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ»**(١٤٤)!

الاندماج في جنس واحد (الناس) يعني ألَّا حاجة لحكم خاص أو نظام خاص أو ثقافة خاصة للمرأة.

◯ على الرجل مسئولية السكن وتوابعه ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، والمرأة

تابعة له فيه، بخلاف الأكل ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾، والمسير ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

يشقى الرجل بالكد وتحمل المسئوليات الشاقة، وتشقى المرأة بشقاء الرجل: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.

- لكل من الزوجين خصوصيته التي يخفيها عن الآخر، ولو لم تكن إثمًا أو خطأ: ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، والزواج لا يلغي شخصية أحدهما[١٤٥].

- أيهما أغرى الآخر بالخطيئة؟ في الروايات الإسرائيلية أن حواء هي مَن فعلت ذلك، وفي القرآن حمَّلهما المسئولية معًا: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾، وجعل العقاب عليهما متساويًا ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿اهْبِطَا مِنْهَا﴾.

وقيل: كان ذنب حواء ترك النصيحة له، وقيل: هو بمجاراته.

وحين نقول إنها أغرته فنحن نتحدث إذًا عن طبيعة رجل يصغي لأنثاه ويجاريها فيما تقترح، ويقتنع بمشورتها.

وقد تكون حواء تعرَّضت لإغواء الشيطان بسبب بُعد آدم وغيابه عنها فوجدت فراغًا ملأه الشيطان بالإغراء، صمت الرجل الطويل، وانصرافه عن المنزل، وحضوره الصامت الممل سبب في استماع المرأة لغيره.

وقد تكون صدَّقت إبليس لما أقسم: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

استثمار المرأة وقتها في مناجاة الله وتسبيحه مهم وصارف لكيد شياطين الجن والإنس:

مَنْ لِي بِتَرْبِيَةِ النِّسَاءِ فَإِنَّهَا ... فِي الشَّرْقِ عِلَّةُ ذَلِكَ الإِخْفَاقِ

الأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدْتَهَا ... أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الأَعْرَاقِ[١٤٦]

من أسوأ الإسقاطات التربوية الإيحاء بأن الرجل يجب ألَّا يستمع إلى المرأة ولا يقبل رأيها أو مشورتها وكأنها تمثِّل الشيطان، وقد أخذ الرسول

ﷺ برأي أمهات المؤمنين في غير ما مناسبة[١٤٧].

- كانت النتيجة واحدة، وهي الهبوط، وكان من نصيب آدم اللَّهْث، ومن نصيب حواء الطَّمْث!

العقوبات الشرعية واحدة لا يثبت فيها تمييز - فيما أعلم- إلا أن يكون في مسألة اللِّعان.

المجتمعات العنصرية تفسح المجال لخطيئة الرجل؛ لأنه يحمل عيبه في جيبه، بينما توقع أقصى العقوبات- بما فيها جرائم الشرف- على البنات.

وتجد في العقوبة انسجامًا مع الطبع البشري، فلم يعاقبهما الله بما يضر؛ كذهاب العقل أو زوال الإنسانية.

- الأطراف الخارجية تعكِّر العلاقة، أول مشكلة بينهما كانت بسبب تدخل طرف خارجي (الشيطان)، وعادة ما تؤول إلى ألم مشترك، وشيء من التلاوم.

التفريق بين زوجين مهمة شيطانية لإفساد جنة الأسرة، وتفريق الأرواح المتآلفة.

على الزوجين السعي في التفاهم والحوار وعدم التسرع في إدخال طرف ثالث، حتى لو كان الأهل، إلا تدخل حكيم ينزع الفتيل ويعيد الانسجام، وحين سأل رسولُ الله ﷺ فاطمةَ عن عليٍّ رضي الله عنهما أخبرته بأنه غاضبها وخرج، فبحث عنه ﷺ ووجده في المسجد نائمًا والتراب على جنبه، فحرَّكه وداعبه ومسح التراب عنه، وقال: «**قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ**». فما كان لعليٍّ رضي الله عنه اسمٌ أحبَّ إليه من «أبي تُراب»[١٤٨].

وفيما سوى هذا فعلى الزوجين أن يكونا كنصلي (جزئي) المقص، يعاقبان مَن يتدخل بينهما!



ناقصة عقل ودين!

شكت أن زوجها كلما جادلها في أمر أو غاضبها رمى في وجهها هذه الكلمة

- ما عليك شرهة.. أنت ناقصة عقل ودين!

هي معلِّمة محترمة، محبوبة عند طالباتها، ناجحة في تدريسها وفي تخصصها (الرياضيات).

وهو موظف عادي يحمل شهادة الثانوية.

اتصلتُ به معاتبًا فقال:

- أنا ما جبت شيّ من عندي، هذا كلام الرسول ﷺ.

كلا يا بني لن تجد حديثًا يقول: (المرأة ناقصة عقل ودين).

لا يوجد - حسب علمي - حديث بهذه الصيغة، صيغة المبتدأ والخبر.

يوجد حديث آخر يقول: **«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ»**(١٤٩).

والجملة هنا أشبه بالجملة المعترضة؛ التي يتم المعنى بدونها، فالمعنى: ما

رأيتُ أغلبَ لذي لُبٍّ منكُنَّ!

والصيغة النبوية الكريمة جاءت لتحكي الأمر العجيب: أن المرأة الضعيفة في جانبٍ من شخصيتها تتغلَّب على الرجل اللبيب العاقل!

أَيَجْمَعْنَ ضَعْفًا وَاقْتِدَارًا عَلَى الْفَتَى ... أَلَيْسَ عَجِيبًا ضَعْفُهَا وَاقْتِدَارُهَا[150]

وليس في الحديث إشارة إلى نقص تدين المرأة، ولا نقضًا لقواطع القرآن في تقرير أصل المساواة بين الجنسين إلا ما استثني: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

فأصل الحساب والثواب والعقاب والتكليف واحد: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

كُلِّفت حواء بما كُلِّف به آدم، وخُوطبت كما خُوطب، وعُوتبت كما عُوتب، والتكليف شرطه العقل، وعقل المرأة الغريزي ليس أنقص من عقل الرجل[151].

والنبي ﷺ الذي قال هذا أثنى على كثير من النساء، ووصف بعضهن بالكمال؛ كآسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومدح عائشة الصِّديقة، وحفصة، وأمهات المؤمنين، ونساء المهاجرين، ونساء قريش، ونساء الأنصار رضي الله عنهن.

وفسَّر نقص الدين والعقل بأن المراد به: التخفيف وتسهيل التكليف؛ بحيث يسقط عنها الصوم والصلاة حال الحيض، وبأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل في المعاملات العامة؛ التي تغلب عليها الرجال، ولكن تقبل شهادتها منفردة بمسائل تخص النساء؛ كالرضاعة، والبكارة، ونحوها..

وليست مؤاخذة بهذا، بل لها أجر المصلِّي والصائم إذا كانت ممن يؤدِّي

واجبه عند زوال العذر.

وعليها قضاء الصوم؛ لأن القضاء لا مشقة فيه، بخلاف الصلاة ففي قضائها مشقة فسقط عنها القضاء.

هل ترى أيها الأخ الكريم من بِرِّك بوالدتك؛ التي نمى جسدك وعقلك وقلبك في حضنها أن تبادرها بهذا الوصف على سبيل التحقير والازدراء؟

أم ترى من حسن التربية لبنتك أن تطلق هذه العبارة في سياق الذم المحض؛ مفصولة عن سياقها النبوي المتوازن.. لتشعرها بتأخر رتبتها ومحبتها عن إخوانها، ولتزرع فيها الشك والقابلية للانحراف، وكأن نصيبها من الخطأ أضعاف نصيب أخيها، وربما كانت صالحة دَيِّنة وكان أخوها شابًا طائشًا؟

أم ترى من حسن المعاشرة مع زوجتك أن تقحم هذا النص مفصولًا عن سياقه حين تتحاور معها، وكأنك تحاول أن تجعل القرآن والرسول في صفِّك فتفتنها بذلك عن دينها، وتكون سببًا في كرهها للحبيب؛ الذي استمع إلى خَوْلة بنت ثَعْلبة رضي الله عنها في شكواها وصبر عليها، ثم أتاه الوحي بأن الذي في السماء - جل وتعالى- قد استمع إليها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١٥٢).

كان عمر رضي الله عنه يمشي في ملإٍ من أصحابه زمان خلافته فاستوقفته امرأةٌ، ووعظته حتى بكى رضي الله عنه، فانتهرها أحد أصحابه، فقال له عمرُ: «أوما تعرف هذه؟ هذه خَوْلة بنت ثعلبة التي سمع الله قولها من فوق سماواته، فعمرُ والله أجدرُ أن يسمعَ لها، والله لو حبستني إلى الصلاة، لاحتبستُ لها!»(١٥٣)!

أنت أمام نص بترته عن سياقه وما قبله وما بعده، ثم وظَّفته لشأن شخصي خاص بينك وبين زوجك لا ندري أيكما المحق فيه.

وما أسوأ توظيف النصوص المقدَّسة الشرعية الواجبة الاتِّباع لخصومة شخصية يختلط فيها الخطأ بالصواب..

ثم اقتصرت عليه وكأنه النص الأوحد الكاشف لموقف الإسلام من المرأة، بينما مئات النصوص المحكمة قرآنًا وسنة تبيّن مكانة المرأة وأنها شقيقة الرجل.

غفر الله لي ولك، وأرشدني وإياك إلى فهم شريعته وتأليف قلوب الناس عليها.

OOOO



تعافي من الحُبِّ!

أُجريت دراسة أمريكية على القلب المحطَّم؛ تبيَّن منها أنَّ الشعور بتحطم القلب وانكساره مرضٌ حقيقي ومقدورٌ على علاجه!

انكسار القلب تعبير يصدق على واقع مؤقت، سببه أزمة عاطفية، حتى يقول الخبير يورجن: عندما يقول شخص أن قلبه يؤلمه بسبب فقدان عزيز، فإن هذا الأمر صحيح للغاية بالمعنى الحرفيّ للكلمة!

المُخْلِصُون؛ هم الأكثر تعرُّضًا للصدمات العاطفية.

في الصين مقهى للحزن يتيح لروَّاده التعبير عن أحزانهم بالبكاء والعويل.. وحزين يتأسَّى بحزين!

البكاء تنفيس، ولماذا لا نبكي؟ وقد بكى الرسل والأنبياء.. بكى آدم وشِيث ونوح ويعقوب، وموسى، ومحمد؛ صلى الله عليهم وسلم.

في برلين معرض لمخلَّفات العلاقات المتهدِّمة؛ توضع فيه الهدايا والرسائل وكل الذكريات الملموسة لعلاقة آفلة!

في الصين إجازة يومين لكل مَن يواجه أزمة عاطفية.

وفي اليابان يسمونها: إجازة العودة إلى التوازن النفسي.

أيام عديدة كافية لتناسي الألم وبناء الروح من جديد..

عاشا معًا في الجنة، مشيا معًا خطوات وجلة على الأرض، كان آدم يرى من جمالها ما لا يراه في الكون، كان هو نهارًا مليئًا بالحركة والضجيج ظاهرًا للعيون، وكانت هي ليلًا ساجيًا هادئًا جميلًا ملهمًا، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾.

لم يقسِّم الله السعي بعد ذلك إلى سعي الذَّكَر وسعي الأنثى، بل سعي المتقين الأبرار من الجنسين، وسعي السيئين الأشرار من الجنسين.

نجاحات آدم كانت شريكة فيها، بيد أن له عالمه، ولها عالمها.

ألف سنة من الصحبة لم تحوِّل نار الحب إلى رماد، وعندما أتت الملائكة لقبض روحه لاذت به حواء خائفة وجلة من الفراق والوحدة!

ماذا لو رأيتما الذرية من بعدكما وقد لعبت فيها الأنانية وحب الذات، حتى لم يستطع زوجان حبيبان أن يواصلا رحلة الحياة معًا، وانشطر الطريق، وبقيت الذكريات القاتلة.

لا تربطي - أيتها الحزينة - مستقبلك بشخص واحد، فالذي خلقه خلق غيره، وخلق مَن هو أفضل منه، ليس هو آدم الوحيد في الكون!

افتحي عينيك، ويمِّمي وجهك شطر المستقبل، واطلبي من الله العون، وحضِّري قلبك لاحتضان تجربة جديدة أجمل، وأفضل، وأنضج، وأدوم..

تذكَّري كيف ستحكين هذه القصة لأولادك أو أصدقائك، كيف سيكون جميلًا أن تكوني قدوة، وتظهري قوتك، وصبرك، وإيمانك.

«الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى». فحين نستقبلها برضا ونردِّد: الحمد لله على

كل حال، سيكون ما بعدها أهون.

ستجدين أن التعايش مع الأزمة والتكيُّف مع تداعياتها أيسر مما كنتِ تظنين.

استشعري أن أنفاس الزَّفير تُخرِج التوتر والقلق، وأنفاس الشَّهيق تُدْخِل الهدوء والسَّكينة والأمل.

لا تحشدي مشكلاتك في لحظة واحدة وكأنها جيش من الغربان يحطُّ فوق رأسك.

تحدَّثي مع صديقاتك، واطلبي النصيحة دون خجل أو تذمُّر، دون أن تحمِّليهم عبء همومك.

تجنَّبي العزلة والوَحدة، واشغلي نفسك وعقلك قدر الطاقة.

لا تتحدَّثي عن الآخرين، ولا تُحمِّليهم مسئولية الأزمة - حتى لو كانوا قد ظلموك فعلًا- فهذا لا يصنع إلا الحقد والضغينة، ولا يزيدك إلا تأزُّمًا.

أكثري المشي على قدميك، وركِّزي الانتباه على ما حولك بدل الشرود والسرحان.

اعملي بصورة جيدة؛ سواء في الوظيفة أو المنزل أو أيّ مكان، وهذا يُفرغ الطاقة، ويسمح لك بالنوم الهادئ المريح.

كل هذا لا يعني تجاهل الأزمة وعدم الاعتراف بها، لا تُنكري القلق، ولا تدَّعي أنك قادرة أبدًا على حلِّها بنفسك دون مساعدة أحد.

امنحي الآخرين سعادة؛ لتجدي مردودها وانعكاسها على قلبك وروحك، أعطي طفلًا بالونة أو صديقة وردة، و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.

انتظار الفرج عبادة، والله عند حسن ظنك به، ولا شيء يُداوي جراحك مثل الخشوع وذرف الدموع بين يديه.

لا يكن دعاؤك انتقامًا من زيد أو عبيد، فهذا لا يليق بمؤمن يناجي ربه، وليكن تضرُّعًا إلى الله بأن يسكب في قلبك الرِّضا والسَّكينة، وأن يختار لك، ويضعك حيث يحب، ويُعوّضك خيرًا مما أخذ منك، ويغفر لك..

إلى متى يستمر الحديث عن الأزمة؟

هناك فضفضة لا بد منها، وشكوى لذوي المروءات الذين يستمعون إلينا، فيكون استماعهم شفاءً وتنفيسًا..

وهناك طلب المشورة والدعم.

ولا يجب أن تتحول إلى توقُّف عن الحل أو استجداء لمشاعر الآخرين.

تختلف الأزمات العاطفية بتفصيلاتها وتتشابه بنهاياتها.. أحلامنا الوردية تتحول - أحيانًا- إلى قلوب مكسورة محطَّمة.

ربما تنظرين إلى الحياة الآن على أنها مكان سيِّء ومحبط.. إلا أنه يجب ألَّا تعتقدي أنها ستظل كذلك إلى الأبد.

لقد زوَّدك الله بقدرات على تجاوز الأزمة، واستعادة اللياقة النفسية، ومواجهة الصِّعاب..

أنت مثل معظم الناس - لحسن الحظ- يتمكَّنون في نهاية الأمر من مغادرة المضيق، والوصول إلى فسحة السعادة والأمل؛ مستعينين بإيمانهم بالله ثم ثقتهم بأنفسهم ودعم أصدقائهم.

والرُّبَّان الماهر يمكنه أن يوظِّف الرياح العاتية لدفع السفينة بدل تحطيمها.

وإذا رماك القَدَر بسيفٍ؛ فعليك أن تحاولي إمساكه من المقبض، وليس من طرفه الحاد الجارح!

لا تصدِّقي أن آلام حواء هي بسبب الخطيئة، هي بعضٌ من سنة الله في الحياة، نحن نصنع الآلام أحيانًا بتسرعنا في قرارات مصيرية، والاتكاء

على عواطفنا المجردة، ثم نندم بعد فوات الأوان.

لا بأس!

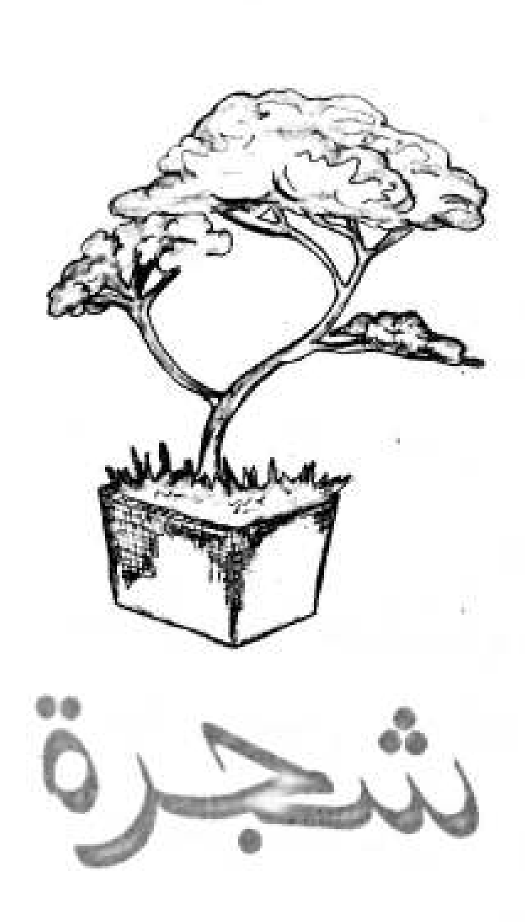
فالحياة تتسع للمزيد من المحاولات والتجارب الناضجة المدروسة.

كان أيوب عليه السلام عليل الجسد صحيح الروح..

ولكنَّ أيوبَ إن صاحَ صاحَ

لك الحمد يا راميًا بالقدر

ويا كاتبًا بعد ذاك الشِّفاء!



شجرة



الشجرة المحرَّمة!

لم يكن المتنبِّي موفَّقًا حين قال:

أبوكُـمْ آدمٌ سَـنَّ المَعَـاصِي وَعَلَّمَكُـمْ مُفَارَقَـةَ الجِنَانِ[١٥٤]

تلك رؤية ضيِّقة اختارت تسليط الضوء على لحظة الخطيئة، وتناست عمرًا مديدًا من الاستقامة والخير والصلاح.

خُلِقَتْ شجرة آدم وحواء ابتلاءً وامتحانًا، وخُلِقَتْ قضاءً مقضيًّا وقدرًا مقدورًا؛ لاستكمال نزول الأبوين إلى الأرض، وحصول الوصال الجسدي، وتوالد الذريَّة، والشيطان كان يدري أن ذلك حاصل؛ ولذا كان يهدِّد الذرية ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وفي هذا إلماح وإلهام ألَّا يضيق الإنسان بالمعصية إذا أعقبها توبة، فربما كانت خيرًا.

ولذا خلق الله المحرَّم من الشجر وغيره، وكما قيل:

وَرُبَّمَا كَانَ مَكْـرُوهُ النُّفُوسِ إِلَى ... مَحْبُوبِهَا سَبَبًا مَا مِثْلُهُ سَبَبُ[155]!

وقد يكون الشيء محرَّم الأكل ولكنه نافع لمصالح الناس؛ كاستخراج علاج أو زينة أو ظل، أو للمخلوقات الأخرى غير الإنسان.

الأكل من الشجرة نقلهما إلى مرحلة التكليف، وهي اللحظة المناسبة لسُكنى الأرض، ولذا أبلغهما ربُّهما بأنه سوف يبتليهم وذريتهم ويرسل إليهم الهدى ويخضعهم للحساب والجزاء والثواب والعقاب.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، كأنهما كانا ينظران إليها؛ ليكتمل الابتلاء ويتحقَّق المراد ويمضي القدر المقدور؛ ولذا كان النظر أول مراحل الوقوع في الشهوة، وقال الشاعر:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

كَمْ نَظْرَةٍ بَلَغَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ... كَمَبْلَغِ السَّهْمِ بَيْنَ الْقَوْسِ وَالْوَتَرِ

وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا طَرْفٍ يُقَلِّبُهُ ... فِي أَعْيُنِ الْعِينِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ

يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ[156]

وكانت رائعة المنظر، شهيَّة للعين، جذَّابة للنفس؛ ولذا نُهُوا عن مجرد الاقتراب، وهو نظير ما يسميه العلماء: سد الذرائع؛ لأن الاقتراب يغري بالتجربة والذوق، والتذوق قد يوقع في الإدمان.

الكأس الأولى هي الأخطر، والخطوة الأولى، والنظرة الأولى.

﴿لَا تَقْرَبَا﴾: لا أكلًا، ولا لمسًا، ولا شمًّا!

والأكل وما ينفذ إلى باطن الجسد أشد تأثيرًا من مجرد اللَّمس أو اللِّباس أو النظر..

ولعل الأمر لم يكن أكلةً كاملة مشبعة، بل لقطةً عجلى أورثت حزنًا طويلًا، ولذا عبَّر بالذوق: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.

استدراج يتكرر مع كل علاقة تبدو بريئة وتنتهي بالانتهاك، أو تساهل في معاملة ينتهي بالرشوة أو الاختلاس، أو تسرع في الحكم ينتهي بتضليل مسلم أو تبديعه أو تفسيقه أو تكفيره، أو خوض بلا علم في مسائل الجهاد ينتهي بالقتل واستحلال الدم.

الأكل من الشجرة ذنب، وسمَّاه آدم: «معصية»، في حديث الشفاعة[١٥٧]، والهبوط إلى الأرض مكتوب من قبل؛ ولذا سبق قول ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله أهبط آدم إلى الأرض قبل أن يخلقه، يعني خلقه للأرض؛ ولذا يجب التمييز بين كيد الشيطان وبين فعل الإنسان وبين قدر الرحمن.. كانا في الطَّور الأول، والخبرة لا تزال ضعيفة.

حديث العهد بالإسلام أو حديث العهد بالحياة أو حديث العهد بالتكليف، يتعرَّض للخطأ واللَّبس أكثر من غيره؛ ولذا خوطبا فيما بعد: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾.

صوَّر لهم إبليس أن الشجرة: ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، وخاطب الرغبة البشرية بالبقاء والخلود، ولعلهم علموا أن في الجنة شجرة اسمها ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾؛ يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها؛ كما ورد في الحديث: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا**»[١٥٨]، وورد تسميتها بذلك[١٥٩].

وهذا نقيض ما حدث، فالأكل تسبَّب في خروجهما من الجنة!

ومنَّاهما أن يكونا كالملائكة في الروحانية والخفة فيستغنون عن الأكل والشرب، وكان هذا نقيض ما حدث، فالأكل رسَّخ صفتهما البشرية الطينية..

والعابد قد يميل إلى الصفة الملائكية ويجاهد نفسه على التسامي عن طبع البشر، وكذلك المستعجلون رحيلهم للآخرة؛ هربًا من الفتن وعجزًا عن مواجهتها والصبر عليها، وخوفًا من تكرار الوقوع في جرائم سابقة.

والفضيلة في الصبر والتحمل والمجاهدة والنهوض كلما عثر وكثرة الاستغفار واستحضار رحمة أرحم الراحمين؛ ولذا ذمَّ الله مَن تركوا النَّفير خوف الوقوع في فتنة النساء وقال: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

إباحة شجر الجنة يعني أن الحلال يكفي لإشباع الغرائز والتطلُّعات والميول والأحلام، وحين نمنع شيئًا علينا أن نوفر البدائل المشبعة للحاجات الإنسانية الفطرية.

والتأنق في الحلال وحسن الاستمتاع به يملأ النفس ويغنيها.

وكل ما حرَّم الله ففي الحلال ما يغني عنه مما هو أحسن منه وأطيب، وأحمد عاقبة، وأروح للنفس، وأبقى للعافية، وأدوم للسعادة.. ولكن الشيطان يُزيِّن الحرام، حتى يقال: إن الفرزدق واعد امرأةً، ثم عرفها فإذا هي زوجته، فقال: ما أطيبك حرامًا، وأردأك حلالًا[١٦٠]!

(تفاحة آدم) رمز الجاذبية، وهي سر اكتشاف نيوتن للجاذبية، وشعار ستيف جوبز في شركته.

يميل الغربيون إلى ترميز التفاحة؛ أُسوة بما في كتبهم أنها شجرة آدم وحواء، ويختلف المفسِّرون الإسلاميون، فيراها بعضهم: السُّنبلة، أو البُر، أو التين، أو النخل، أو الأُتْرُجّ، وكل ذلك مروي عن السلف[١٦١].

ولعلها الكَرْم والعنب؛ الذي صار المادة الأساسية للخمر، والخمر أم الكبائر ومفتاح الذنوب..

شرع الشيطان لأوليائه سوء استخدام المعرفة ووضعها في غير موضعها،

وهذا سر تقبُّل الأبوين للإغراء، فالباطل المحض لا يروج حتى يكون مشوبًا ببعض الحق الذي يحمل على التأويل، ومن العجب ميل آدم إلى أن يكون من الملائكة مع أن الله أسجد له الملائكة!

رحم الله آدم وحقَّق له ما كان يريد من الخلود ببقاء ذريته في الأرض والاختصاص بها جيلًا بعد جيل، والانتفاع بخيراتها وثرواتها، وهذا المُلك الذي لا يَبْلَى كما يَلِي مُلْك إبليس وأشياعه بفسادهم وإسرافهم في سفك الدماء.

ورحمه بالتوبة النصوح المتقبَّلة؛ التي صار بها وبعدها أفضل مما كان عليه قبلها.

ورحمه بالنبوة ثم الجنة والخلود فيها مع الصالحين من ذريته.

هذه شجرة آدم وحواء..

فما شجرتك أنت؟

0000



غابة!

سألني صاحبي: ماذا كانت شجرة آدم؟ وما شجرتك أنت؟

لقد جعلت الشجرة بسؤالك هذا معنًى سلبيًّا يشير إلى منطقة الخطأ والإثم، وسألت عن الشجرة الخبيثة الملعونة في القرآن.

أما شجرة آدم وحواء فسأجيبك عنها قبل أن تقوم من مقامك، أما شجرتي فليست واحدة، هي أشجار شتَّى، بل غابة كثيفةٌ من المصايب والمعايب والعثرات، بدأت بآفة اللِّسان والمحاولات الشعرية الأولى؛ التي وظَّفتها في هجو أستاذ صدَّقت عنه الشائعات بلا تثبت، ورحمني ربي بأن اقتربتُ منه وصادقته وذببت عن عرضه قبل أن يغادر إلى الدار الآخرة!

بعض أشجاري يبست وماتت وصارت ذكرى تحمل على الاستغفار وطأطأة الرأس حياءً وخجلًا تأسيًّا بفعل الأبوين، وبعضها ضربت بجذورها في التربة وبسقت في السماء، وربما ظنها بعضهم من الطيبات بحسن الظن، والله أعلم بالمقاصد والنيات!

ومن هذه السقطات المكتوبة عليَّ في اللَّوح تعلَّمت أنه يجب عليَّ محاصرة الثمرة الفاسدة والتضييق عليها حتى لا تُفسد المحصول كله أو الحديقة كلها..

ومَن يُشابِهْ أَبَهُ فما ظَلَمْ!

فشجرة آدم ليست كشجرة إبليس؛ المنقوعة بماء الكبر، والحسد، وازدراء الخلق، وبَطَر الحق.

ذنب آدم كان انتهاك المحرَّم المنهي عنه، وذنب إبليس كان ترك الأمر على سبيل العلو والتكبر وتعظيم الـ(أنا)!

تعلَّمتُ أن أهم ما يجب عليَّ مباعدته تجنب الاستعلاء على الناس باسم الدِّيانة أو باسم العلم أو باسم الدعوة والاحتساب.

لكن دعني من الاستطراد في كشف ذنوبي، فلم أكشف ستر الله عليَّ؟ ولم أحشر نفسي في زمرة المجاهرين؟

هي أشجار لنا جميعًا منذ الطفولة الأولى وظَّفنا فيها العقل واللِّسان واليد والرجل والسمع والبصر في الشهوات والأنانيات، واسترسلنا وراء الدوافع الغريزية دون حياء من الخالق.. ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

الجنة هي الأشجار الملتفَّة، والماء الذي يسقيها، ويقال: إن آدم وحواء لم يقطعا شجرة قط؛ لأن النص أباح لهم الأكل وسكت عما وراء ذلك، والله أعلم؛ ولذا مُنِع قطع شجر الحرم(١٦٢)؛ تذكيرًا وتشبيهًا له بشجر الجنة، وحثًّا على حماية البيئة.

وقال بعضهم: إن آدم كان نباتيًّا يأكل من الشجر المباح له ومن طيبات الأرض، ثم أُحلَّت الأنعام بعد ذلك، والله أعلم بصحة ذلك.

المباح هو الأصل، والاستثناء شجرة واحدة، وكذلك الشرائع السماوية

أوسع دوائرها: المباح والحلال والجائز والمسكوت عنه، وأضيقها وأقلها: الحرام، وكل أشجار الدنيا حلال في الأصل، إلا ما أذهب العقل؛ كالمخدِّر والمسكر، أو أهدر الحياة؛ كالسموم.

النهي معلَّل بعلل ومتصل بحكم ومصالح وليس لمجرد التعبد، فالتعبد استثناء.

والتعبد ذاته معلَّلٌ بتحقيق التقوى وإصلاح النفس والناس، والله تعالى حكيم يمنع ويبيح بعلم وحكمة.

ومتى دار الحكم بين كونه تعبدًا أو كونه معلَّلًا معقول المعنى كان حمله على المعقول أولى، لندرة التعبد بالنسبة إلى الأحكام المعقولة المعلَّلة، كما يقول ابن دقيق العيد(١٦٣).

بعض المجتمعات الإسلامية مولعة بالتحريم والمنع ولو لم يرد دليل، وترى المنع دليل العلم الصادق والتقوى، وتتربَّى على رفض الجديد، وتتوجَّس منه خيفة، وتفزع إلى طلب الفتوى، فتضيِّق على نفسها وعلى المفتي، وربما كانت الفتوى مبنيَّةً على سؤال موجَّهٍ توجيهًا سلبيًّا؛ يستحضر المخاطر ويكاد يملي جوابًا بالمنع، حتى إذا وجدت مَن يتوسع في الحكم ويعيده إلى أصل الإباحة قالت: هذا متساهل!

أما الاكتشاف والسبق والمبادرة فتكاد أن تختفي في مجتمعات المسلمين اليوم!

من أين استقر في الأذهان أن علامة التدين الصادق المنع والحظر والتحريم دون حجة، بل لمجرد امتعاض الطبع والعادة والمزاج المبني على عدم الاعتياد؟

أليس العقل الضيِّق هو مَن حرَّم المطبعة؟ وترجمة معاني القرآن؟ وتعلُّم

بعض العلوم الحديثة؟ وحجر الانتفاع بالآلات والمخترعات والوسائل حتى فرضت نفسها علينا وأحاطت بنا، فأتينا طائعين بعدما سبقتنا أمم الأرض سبقًا يصعب تجاوزه.

يشطح العلم والإبداع حين يتعدَّى حدود الله ويحط من قدر الإنسان الكريم، فيتجه نحو الاستنساخ وتجارب (الإنسان القط)، و(الإنسان الفأر)، و(الإنسان الكمبيوتر)، أو يشجِّع على هدر الفطرة الآدمية بتحويل الجنس إلى جنسٍ آخر لمجرد التشهِّي!

حصول الأكل من الشجرة يعني أن الإنسان خُلق بإرادة وقدرةٍ تمكِّنه من انتهاك الخط الأحمر، وتحمِّله تبعة ذلك من وزر الآخرة أو عقوبة الدنيا: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

فالحرية هي الأصل مقابل المسئولية والحساب.

وتأسيس العلاقة الأبوية أو التعليمية أو السياسية على المنع والحجر تُفضي إلى ضعف التربية ونقص الرقابة الذاتية، وتؤدِّي إلى نوع من النفاق والتصنع والذوبان في شخصية الأب أو المربِّي أو المسئول!

الشجرة الأولى فتقت الجهاز الهضمي للأبوين، وكان موجودًا مخلوقًا مركَّبًا، ولكنه لم يفعَّل حتى تم الأكل من الشجرة؛ ولذا قال بعض السلف: هي شجرة مَن أكل منها أحدث.

وقال أبو العالية: كان للشجرة ثقل وتأثير وهضم يترتب عليه الحاجة إلى الخلاء[١٦٤].

الشجرة أيقظت الحمَأ المسنون، الحاجة إلى التخلِّي، إلى الجنس، إلى الحيض في الأنثى، والله تعالى أعلم.

الأكل من الشجرة يشبه حركة البلوغ، واكتشاف الميل الجنسي وكيفية

إشباعه والرؤية الكاملة للجسد، جسد الذات وجسد الآخر.

كانت الشجرة في وسط الجنة - كما يقول المفسِّرون- وموضع الشهوة البشرية في وسط الجسد.

حين أكلت حواء من الشجرة رأت آدم شيئًا مختلفًا؛ عضلات وعينين وقوة، وحين أكل آدم رآها أنوثة وجمالًا وجاذبية، وبدت له مواضع الفتنة والإثارة في جسدها، وهذا جزء من معنى بدوّ السوءة المذكور في القرآن، ولعل من آثاره شعورهما بالخجل والحياء، وخصف اللِّباس، والإمعان في الهرب..

oooo



خطيئة!

ما سوى الذنب والخطيئة الواحدة من آدم وحواء فهو عمل جيد، وكفى المرء نُبْلًا أن تعد معايبه!

الأبوان عملا أشياء كثيرة وعظيمة وتأسيسية، فلا يصح أن نختصرهما في خطأٍ عابر..

يجدر أن ندرك أن خطيئة الأبوين كانت مركَّبة من عدة زلَّات:

١- الاستماع والإصغاء إلى وسوسة الشيطان.

٢- التفاوض بينهما بشأن الفعل والتطاوع والتساعد عليه، فهو ذنب مشترك.

٣- مخالفة الأمر الإلهي الصريح.

٤- الشهوة الدافعة.

٥- الطمع في الشجرة الممنوعة وعدم القناعة ببقية أشجار الجنة، والغريب أن الأنهار كلها تصب في البحر، والبحر ليس بملآن.. بل هو يطلب المزيد.

يقول ابن الجوزي: «لو أن رجلًا قدر على نساء بغداد كلهن، ثم قدمت امرأة مستترة من غير أهل البلد ظنَّ أنه يجد عندها ما ليس عندهن»[١٦٥]!

مَنْ لا تكفيه امرأة لا تكفيه مائة!

٦- مخالفة العلم والمعرفة، فلم يكن الخطأ عن جهل.

٧- الفرار بعد الذنب..

وَكَيْفَ يَفِرُّ الْمَرْءُ عَنْهُ بِذَنْبِهِ ... إِذَا كَانَ تُطْوَى فِي يَدَيْهِ الْمَرَاحِلُ[١٦٦]؟

سبحانه.. أمني تفر يا آدم؟!

سبحانك يا رب.. أفر خجلًا وحياءً منك.

حين يسرف العبد في المعصية يشعر أن الطريق يطول ويطول!

واليأس حاضر..

ولو نجوت من ذنب فثمَّ ذنب آخر يتربَّص بك.. ويضعف إحساسك بلذة القرب والمناجاة.

الخطيئة ليست عاقرًا، بل تلد خطيئة أخرى، ولها أخوات وصديقات، وبعد ذلك الاستمراء والاعتياد والتأويل والاستحسان وذم مَن لا يوافقك!

أول الخيط خطرة.

ثم تردد.

ثم استكشاف.

ثم تذوق.

ثم تهاون.

﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ﴾.

القلب يلين بعد قسوته والمكانة عند الله تعود فلا بأس ولا يأس ولا تأس.. والذرية بعد والدها موعودة بالرحمة والتوبة والاجتباء.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

ورثنا عن آدم الطبع المزدوج، وإمكانية العصيان، ولم نرث عنه الخطيئة، وليس علينا من وزره شيء، ولا عليه من أوزارنا شيء.

وحتى هو فقد تاب وأناب وغُفر له ومُنح النبوة، ولم يتكرر عتابه على ذنب ندم عليه وأقلع عنه، ومَن عيَّر أخاه أو أباه بذنب ربما لم يمت حتى يفعله أو ما هو شرٌّ منه!

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

الطفل بريء من ذنب أبويه، وفي رؤيا النبي ﷺ لإبراهيم الخليل عليه السلام في روضة وحوله أطفال، فقال: «**وَأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ**». فقال بعضُ المسلمين: يا رسولَ اللهَّ، وأولادُ المشركين؟ فقال رسولُ اللهَّ ﷺ: «**وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ**»(١٦٧).

والقول بأن الأطفال الذين ماتوا قبل الاحتلام جميعًا في الجنة هو قول الجمهور، حسب نقل ابن حزم، وقول المحقِّقين، حسب نقل النووي، وقول كثير من السلف والمحدِّثين، كالبخاري، والمعاصرين، كالألباني(١٦٨).



قَدَر

ما علاقة القَدَر بآدم؟

هذه القصة تكشف عن ذلك: فقد سأل موسى ربَّه: «**يَا رَبِّ، أَرِنَا آدَمَ الَّذِي أَخْرَجَنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْـجَنَّةِ. فَأَرَاهُ اللهُ آدَمَ، فَقَالَ: أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: نَعَمْ. قَالَ: أَنْتَ الَّذِي نَفَخَ اللهُ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَعَلَّمَكَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا وَأَمَرَ الْـمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْـجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: أَنْتَ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي كَلَّمَكَ اللهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَسُولًا مِنْ خَلْقِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَفَمَا وَجَدْتَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي كِتَابِ اللهِ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فِيمَ تَلُومُنِي فِي شَيْءٍ سَبَقَ مِنَ اللهِ تَعَالَى فِيهِ الْقَضَاءُ قَبْلِي؟**

قَالَ رسولُ الله ﷺ عند ذلك: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**»(١٦٩).

كانت حجة آدم أغلب وأقوى.

ولعل قوة الحجة التي قالها آدم مبنية على:

١- أن الكلام كان في أمرٍ مضى وانقضى، ولا سبيل إلى رده، فهي مصيبة وقعت وليس أمام العبد إلا أن يرضى ويسلِّم: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾.

٢- أنه ذنب قد تاب منه آدم وأناب وقبل الله توبته، فلا سبيل إلى معاتبته أو توبيخه، وهو بعد التوبة خير منه قبل الذنب، و«**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»، وهذا يكون في المصائب، ويكون في الذنوب لِمَن تاب منها.

وقد وعد الله مَن صدقت توبته بأن يبدِّل سيئاته حسنات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٣- أن الخروج من الجنة وقع لآدم وحواء فحسب، أما موسى وسائر ذرية آدم فلم يكونوا في الجنة أصلًا.

٤- أن هبوط آدم إلى الأرض هو المقصود من خلقه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وليس عقابًا محضًا، إنما هو سبب مكتوب، والإهباط إلى الأرض والاستخلاف هو من صنع الله وقدره، وله الحكمة في ذلك.

الإنسان مسئول عن أعماله الإرادية الاختيارية، والظروف والبيئة والجينات وسائر المؤثرات لها اعتبار في تعاظم المسئولية، ولا تلغي التبعة الدنيوية القانونية ولا الأخروية المترتبة على تصرفاته.

ماذا يعني القدر؟

١- علم الله الذي ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾، ﴿وَمَا

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

فلا مفاجآت، كل دقيق وجليل يمضي وفق العلم الإلهي الشامل المحيط، تستوي في ذلك حركات الأفلاك وتموجات البحار واهتزازات الهواء ونبضات القلوب ومشاعر النفوس وحركات الجوارح.

٢- الإذن الإلهي، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وورد هذا في (٢٦) موضعًا من القرآن الكريم.

الإذن يعني علم الله بما سيحدث، وقدرته على منعه، ومع ذلك يدع العبد يواجه مسئوليته وخياراته ويتحمل تبعاتها.

وحين سأل الصحابة رضي الله عنهم عن القدر المكتوب قال ﷺ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[١٧٠].

هذا يعني أن ما هو مكتوب ليس اعتباطًا ولا تعسفًا ولا جبرية، هو انسجام مع إرادة الإنسان واختياره؛ ولذا قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * سَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾.

القدر لا يفرض على الإنسان أن يفعل ما لا يريد، ولا أن يترك ما يريد، القدر هو الذي يكشف ما ينويه الإنسان وما يريده.

القدر لا يقهر إرادة العبد، ولا يصادر حريته في الوجهة التي يختارها، المخلوق يحس بأنه كائن مختار، ويتردَّد، ويفكِّر، ثم يحجم أو يقدم، ثُمَّ

فرق واضح بين مَن يختار الهبوط من سطح المنزل فيبحث عن الدرج أو المصعد ويستخدمه، وبين آخر قامت مجموعة بحمله قهرًا غير عابئةٍ بصياحه ثم رمته أرضًا!

ولو شاء الله لجبر الناس على الخير: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؟

في قدرة الله أن يجعل آدم مَلَاكًا لا تخطر في باله الشهوة ولا يهم بها، أن تكون المعصية مفردة خارج عالمه، دأبه التسبيح والتقديس، مشيئته سبحانه أن يخلق نَمَطًا آخر غير الملائكة بطبيعة مزدوجة قابلة للخير والشر، مالكة لزمام أمرها.

٣- ثُم أن يكون ما علمه الله وأذن به مكتوب عنده في اللوح المحفوظ الذي لا يحيط بجملته وتفصيله إلا هو سبحانه، وهو القضاء الأزلي الإلهي المبرم الذي لا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل البتة، وهو ما يعبَّر عنه في القرآن بأم الكتاب، كما في قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

ولعل المعنى: أن الصحف التي تكتبها الملائكة قد يطرأ عليها تغيير أو تبديل بسبب ما، كالدعاء مثلًا، فإنه «لا يرد القضاء إلا الدعاء»، وكصلة الرحم، فإنها «تزيد في العمر».

قال ابن تيمية: «إن الله يكتب للعبد أجلًا في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب..»(١٧١).

يقول بعضهم عند وقوع ما يكره: هذا مكتوب. ويختلط عنده معنى المكتوب بالمجبور، ولا تلازم بين الكلمتين، فالمكتوب معلومٌ مدوَّن، وليس قسرًا ولا إجبارًا.

٤ - ثم الله خالق كل شيء: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فلا خالق على

الحقيقة سواه، وهو خالق العباد، وأفعال العباد.

ثمّ مقدارٌ من البحث في أمر القَدَر الإلهي لا يحيط به إلا الله، ولا سبيل للعباد إلى كشف كُنهه، ولذا يُذم الخوض المتجاوز للحد في القدر.

المفهوم الإيجابي للقدر أنه يمنحنا الشجاعة والقوة في مواجهة الأزمات والمصائب، ويعيننا أن نعمل وفق طبيعتنا بحماس وأمل، مع وجود الجاهزية لقبول النتائج العكسية.

أنه يهدِّئ من مخاوفنا تجاه المستقبل، فالله خَيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين.

أنه يسكب في قلوبنا الصبر والرضا حين نكون أمام واقع مؤلم محتوم لا مفر لنا منه.

القدر هو الرضا والتسليم والإيمان بأننا نصنع أقدارنا بإذن الله، كما قال عمر رضي الله عنه: «نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إِلَى قَدَرِ الله»[١٧٢].

والله يحب المؤمن القوي الحريص غير العاجز، والذي إذا وقع القدر على خلاف ما يريد لم يشغل نفسه بـ(لو)، ولكن يقول: قَدَّر الله وما شاء فعل.

نريد من الله تدخلًا مباشرًا يقلب الموازين ويغيِّر اتجاه القضايا ونتائجها، ويريد آخرون من خلق الله عكس ما نريد، ويدعون بضد ما ندعو، ونعجل ويعجلون، والله لا يعجل، ولا يغيِّر سنته وناموسه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.


اعتراف
توبيخ
نصيحة
كلمات



اعتراف

حين أكلا من الشجرة أدركا فورًا حجم الخطأ الذي أغراهم به إبليس؛ ولذا أسرعا في الهروب من المكان، وصارت الشجرة بعيدة عنهم، فكان الله يقول لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ؟﴾.

(تلك) إشارة للبعيد، بينما قال قبل الذنب: ﴿هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾.

تصرُّف عفوي معبِّر عن الحياء من الله الذي حذَّرهم أشد التحذير من الفعل ومن وسوسة الشيطان، وها هم يقعون في النهي، مع كونهم سمعوا التحذير مباشرة ووعوا التهديد بسوء العاقبة إن وقعوا.

العتاب الربَّاني كان سمحًا لطيفًا حتى بعد الاقتراف، وجاء بصيغة استفهام تقريري تقريعي؛ لقد نهيتكم عن مجرد الاقتراب من الشجرة وأخبرتكم بعداوة الشيطان.

عتاب محبَّب يؤكِّد لهما أن الباب لم يغلق، وأن الرحمة أوسع وها هما ينتظران التوجيه بعد النكسة المؤلمة، وقد توازن الأمر واعتدل ما بين ألم

المعصية وأمل التوبة.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، كلمات قليلة سهلة واضحة مباشرة، والتلقِّي يوحي بالانتظار والترقب.

من غير تطويل ولا إبطاء ولا شروط، توبة ناجزة قاطعة، ولذا استخدم حرف الفاء، وهو للتعقيب السريع.

جميل أن يكون التحذير قبل الخطأ قويًّا، والعتاب بعده لطيفًا؛ خاصة لمَن استوعب الدرس، ويا لها من رحمة أن السيئات التي تؤلمنا ذكراها نجدها في موازيننا حسنات يوم البعث!

حين يطلب الناس منك الصفح فعليك أن تسرع بالاستجابة، وتغالب نفسك، وتنسى المظلمة، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾، وأنت ذو الخطأ الذي يحتاج أن يغفر الله له وأن يغفر له الناس.

الكلمات كانت أقوالًا صادقة من سويداء القلب، معجونة بدمع العين السخين، ولا أحب إلى الله من دمعة تائب، ولذا ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، واعترفا دون أن يعتذرا بإغراء الشيطان، وطلبا الصفح والمغفرة؛ لئلا يلحقا بالأقوام الظالمة من قبلهم، فقد كان على الأرض أقوام ظالمون أُخذوا بذنوبهم.

والكلمات كانت أفعالًا؛ كالتي ابتلى اللهُ بها ابراهيمَ؛ تتعلق بالطهارة، وملازمة الفطرة، وحفظ الحياة، والحقوق، والبيئة، وتجنب طاعة الشياطين وأعوانهم.

ولذا قيل: إن آدم أول مَن حدَّ حدود الحرم، وسنَّ لذريته تقديس الأرض المباركة بمكة وما حولها، وتجنُّب قطع شجرها وتنفير صيدها، ولا غرابة فمهمته الخلافة في الأرض واستصلاحها، وكان من هَدْي النبي ﷺ أن

«مَنْ حَجَّ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(١٧٣).

من كمال الإحسان أن تحسن لمَن أساء إليك، وتقابل أقواله وأفعاله السيئة بالعفو والمعروف.

خطيئة الأبوين واحدة، وكانت في الجنة لئلا يخطئا على الأرض، فالأرض لها موطن ولاية وسلطة وقداسة «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، ربما يكون الخطأ رحمة يحمل على السداد أو يربِّي على التواضع أو يحفِّزه لأعمال صالحة ما كنت لتفعلها لولاه.

لا تزال كلمات الأبوين المنكسرة المتوجِّعة تذكِّرنا بالطريق الآمن إلى الله كلما حاصرنا الذنب!

ومنها نتعلم ألَّا نيأس ولا نستسلم للخطأ ولو تكرر أو أصبح إدمانًا يلح علينا، فالذي قدَّر الذنب شرع التوبة وسهَّل أسبابها ويسَّر طريقها وجعله موصولًا به دون واسطة.

كان اعتذارهما معلنًا كما الخطأ، وتتكرر القصة في القرآن سبع مرات تؤكِّد حصول الذنب وانكشاف العورة وحالة الرَّكض؛ بحثًا عن ورق شجر يواريها، لنتعلم ألَّا أحد بمعزل عن احتمال الخطأ، وأن الصدق ليس هو ادِّعاء الطهورية والتظاهر بالصفاء، بل الاعتذار والندم والتكفير عن الذنب بما يناسبه، والخوف من الله لا من الناس، مع إدراك أن المجاهرة بالذنب ذنب آخر، واستخفاف، وإفساد للبيئة العامة.

بعد التوبة جاءت النبوة والكرامة والاصطفاء، فكان بعد التوبة خيرًا منه قبل الذنب، فلا وجه للتعيير إذًا، توبة صادقة عميقة، وبعض الذرية يتوب ليستعيد مكانته الاجتماعية التي فقدها بسبب الخطأ، وليس له من التوبة إلا صورتها الظاهرة المتعلِّقة باللِّباس أو الشكل الظاهر، وربما

تسرَّع في التصدر والرئاسة والوعظ وصار يردِّد: (أنا كنت.. أنا كنت..)، أو حمله الهروب من شجرة المعصية إلى السقوط في أحضان معصية أعظم؛ كسفك الدم أو الجرأة على العباد أو التعصب أو التكفير.

اشتركا معًا في الذنب، فصار خطيئة جماعية أغرى كل منهما صاحبه بها، وحسَّنها له، فكان جميلًا أن التوبة جماعية بلسان واحد: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾.

ذنوبنا الجماعية وجنايتنا على الأرض، وإخلالنا بمهمة الخلافة الرشيدة أورث تخلفًا حضاريًّا وجهلًا واختلافًا وعنصرية وركامًا من العادات الفكرية والشعورية والسلوكية تجعلنا ندور في حلقة مفرغة، ولا نتلمَّس الطريق القاصد إلى انتظام مسئوليتنا على هذه الأرض باعتبارنا بشرًا أو باعتبارنا مسلمين.

وحدهما تحملا مسئولية ذنبهما، وذاقا مرارة الهبوط، ومعاناة الحياة المختلفة على الأرض، نحن لم نرث خطيئتهما، ورثنا الطبع القابل للخير والشر، وهو سر إنسانيتنا وتكليفنا.

منهم تعلَّمنا أن الخطيئة ليست حالًا دائمة بل لحظة عابرة يفيق منها القلب وهو أرق وأصفى.

وتعلَّمنا أن التوبة تفتقر إلى مناجاة وندم واعتراف بين يدي الله، وأن الدموع الحقيقية هي زيت سراجها.

و تعلمنا أن الهبوط للأرض ليس عقابًا، وكيف يعاقبهم وقد سامحهم؛ ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن اللهَ أهبطَ آدمَ إلى الأرض قبل أن يخلقه، وعنى بذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فهو مخلوق للأرض ليعمرها.

ونعلمنا أن من أعظم الخطايا: الفساد في الأرض وسفك الدماء، وها نحن الذرية نشهد تصاعدًا في الفساد البيئي والمالي والسياسي والأخلاقي، وحالة من التظالم والقتل الأعمى وجله في بلاد الأمة الخاتمة؛ التي جاء نبيها بتوفير الحقوق وتحريم العقوق!

بماذا عليَّ أن أعترف الآن؟

بصفوننا بأننا دُعاة وطلبة علم، وليس الشأن هنا أن أكشف ستر الله عليَّ فيما عثرت فيه بيني وبين ربي فيما أغلقت عليه بابي أو تواريت عن أحبابي.. ما يحتاج إلى الاعتراف هو أن العيش الطويل مع الناس والأتباع خاصة يضخِّم اعتبار ما يقولون، وما يؤملون، ويتوقعون، وينتظرون.. فتقل العفوية وتكثر المجاملة وملاحظة الناس، ويضعف الصدق ويتلاشى الإخلاص، ويصبح الهم ماذا يقول الناس عنا؟ بماذا سيعلقون على مواقفنا؟..

ما يحتاج إلى الاعتراف هو أن يصبح همي كم بلغ عدد متابعي؟ وكم بيع من كتابي؟ وكم بلغ الرتويت؟ ومَن سبقته؟ ومَن سبقني؟ على أنه سيأتي يوم بدوننا، ولعله سيكون أفضل - بحول الله- وسيُطوى خبرنا، ونكون نقطًا صغيرة لا تُرى بالقياس لأعلام عظام، وأئمة صدق وإخلاص، ورجال علم ودعوة وتضحية وجهاد.. فاللهمَّ إني أعوذُ بك أن أكونَ عند نفسي كبيرًا، وأكونَ عندك صغيرًا، يا أرحم الراحمين.



توبة ..

- يا أبا صالح! قم فحدثنا عن توبة الله عليك!

ويقوم الشاب فيسرد حديثًا مفصَّلًا مكرَّرًا عن زلات وهفوات وشهوات.. وقد بات يستره ربه، وأصبح يكشف ستر الله عليه!

وربما بالغ وحكى ما لم يكن؛ تشبُّعًا وتكثُّرًا وتكريسًا للفرق بين ما كان وما صار!

وهو يحكي أنه قضى شطرًا من شبابه في غفلة ورفقة سوء، وتجرَّأ على الموبقات العظام، وهو لا يزال في أول طريق الهداية، ولا يحسن أن يضرب المثل للناس بنفسه ولا أن ينبش ماضيه!

حكى اللهُ خطيئة الأبوين؛ ليدرك الأبناء أن الخطأ كامن في طبيعتهم وتكوينهم، وأن الخروج منه ممكن وليس الذنب حتمًا لازبًا في رقاب العباد.

التحذير الرباني من الذنوب سابق.

والنهي عن القربان احتياطٌ من الوقوع، ولعل مَن اقترب من شجرة

المعصية يجد من جاذبيتها وإغرائها أو طيب رائحتها ما يحفِّزه على المعاقرة!
ومع التحذير بيان جلي للعقوبة المترتِّبة على الفعل بأن يُلحقوا بالظالمين..
تأكيد مبكِّر على بشاعة الظلم وشناعته، وأوله ظلم النفس، وظلم أخيك الإنسان ظلم لنفسك ولبني جنسك.

وبعد المقارفة والوقوع عتاب يسير، ثم صفحٌ وفتحٌ لأبواب من الإنابة تسع ما بين المشرق والمغرب، وتذكير بأن لحظة الخطيئة عابرة وتزول:
﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

الخطيئة تُذكيرٌ قلبي بمعنى الغفور الرحيم.

تَوَضَّأَ الْقَلْبُ مِن ظَنِّي بِأَنَّكَ غَفَّـ ـارٌ وَصَلَّى وَكَانَتْ قِبْلَتِي الْأَمَلُ
دَعِ الْهَوَى لِذَوِيهِ يَهْلِكُوا شَغَفًا أَوْ فَاقْتُلِ النَّفْسَ فِيهِ مِثْلَ مَنْ قَتَلُوا[174]!

ما الحامل على الذنب؟

- حب الخلود وطول الأمل
- حب التسلط والمُلْك: ﴿أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾؛ وعلى القراءة بكسر اللام: (مَلِكَيْنِ)، مثنى: مَلِك، أي: صاحب مملكة.
- التخلُّص من الطبيعة البشرية، وتغيير خلق الله بالانتقال إلى عالم الملائكة، على القراءة بفتح اللام[175].

قد يكون الشر طريقًا إلى الخير، وربما استخرج الله من العبد بالذنب خيرًا لم يكن ليحدث من دونه.

مَن لديه إحساس بالطهورية الزائدة قد لا يحسن فهم الناس وتقدير دوافعهم وطبائعهم، أو تتحول طهوريته إلى كبرٍ وعجبٍ وتعاظم..
ويعتقد أنه يمثِّل الأُنموذج، ومَن سواه يضرب في التِّيه البعيد.

من الاعتدال أن تتعامل مع الخطيئة بمقتضى أنها يمكن أن تصدر منك!

من كان طاهرًا فليرمها بحجر!

«إياكم لا تكثروا الكلامَ بغير ذكر الله، فتقسُوَ قلوبُكم، فإن القلبَ القاسي بعيدٌ من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أربابٌ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عَبِيدٌ، فإنما الناسُ مُبْتَلًى ومُعافًى، فارحموا أهلَ البلاء، واحمدُوا الله على العافية»(١٧٦).

الخوارج القوَّامون بالليل، الصوَّامون بالنهار، المتيبسون المتقشفون المتخشِّعون.. ضلُّوا عن استيعاب ضرورات الناس وطباعهم، فوقعوا فيما هو شر مما نفروا منه وأبغضوه..

وصارت فكرتهم الخارجية أقرب للشيطانية منها للملائكية!

خطيئة آدم وحواء مكشوفة ظاهرة، متلوَّة في القرآن، مسجَّلة بلا نكران.

نوحٌ سأل ربَّه بشأن ولده فخُوطب: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

إبراهيم عليه السلام استخدم التورية في خطابه وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، فاعتذر عن الشفاعة يوم الدين..

وداود عليه السلام فعل ما فعل وظن أنه فُتن.. ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

ويونس عليه السلام خرج مغاضبًا وظن أن بمقدوره ترك قومه.. ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ويوسف عليه السلام همَّ بها ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، وقال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وموسى عليه السلام قتل القبطي من غير تعمُّد، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾، وكان ذلك قبل النبوة، وبعد النبوة قال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

كان واضحًا مع نفسه، وواضعًا للأشياء في موضعها، مسمِّيًا للأشياء بمسمياتها في خطابه مع ربه والتماس عفوه.

وفي القرآن: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾.

وفيه: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

وفيه: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

فكان ﷺ يتلو ما أُنزل عليه بخشوع وانكسار، ويُلقِّنه أصحابه، ويُمليه على كُتَّاب الوحي؛ ليضعوه موضعه في المصحف، ويؤم الناس به في الصلاة!

برهان على ربانية الوحي وتواضع الأنبياء، ووضوح توباتهم، وغموض ذنوبهم حتى تحيَّر المفسرون في تسميتها، وعدَّها غالبهم من فعل ما هو خلاف الأولى.

ومع هذا أعلنها القرآن؛ مبرزًا صدق ندمهم، وعمق خشوعهم، وتمام إخباتهم وانكسارهم، ولم يكن في حديثهم اتساع في تصوير الذنب بل استطرادٌ في تنويع التوبات وصيغ الاستغفار.

0000



رحمة

«لَـمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ. فَحَمِدَ اللهَ بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ اللهُ يَا آدَمُ، اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ الْـمَلَائِكَةِ- إِلَى مَلَإٍ مِنْهُمْ جُلُوسٍ- فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. قَالُوا: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ»[١٧٧].

أول ما لفظ آدم هو الحمد، الحمد على الروح، على الحياة، على التكريم والإنسانية، على المعرفة والتعليم.

ليس مصادفة أن تكون الرحمة أول خطاب من الله لآدم، وقوله سبحانه: يرحمك الله، ليس دعاءً كما قد يُتوهم، هو خبر وحكم وقرار ووعد.

«الرحمن الرحيم» أكثر الأسماء الحسنى ترددًا في نصوص الشريعة بعد اسم الله، وهما مكرران في سورة الفاتحة، ومن أكثر الأسماء ترددًا على ألسنة الخلق، فكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم)، وتحية (السلام عليكم ورحمة الله) عبارتان واسعتا الاستخدام جدًّا في الحياة الإسلامية.

صلته مع الله محفوفة بالرحمة، والشرائع رحمة كلها، والنبوات رحمة، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وخطاب الدعوة والإصلاح إذا تجرَّد من الرحمة فسد وأفسد، وتحوَّل إلى قطيعة وعنف وصد عن سبيل الله، وتهييج لمشاعر الكراهية والبغضاء.

الشعور بالرحمة الإلهية يولِّد الحب، والحب أعظم ما عُبِد الله به، وحين تحب فسوف تخاف، سوف تخاف من الفقد والبعد والحرمان، وحين تحب فسوف تستحي، وحين تحب فسوف تسرع الرجوع كلما نأى بك الطريق.

وحين خلق الله الزوجين جعل بينهما ﴿مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، ولذلك يقول بعض المعاصرين إن المودّة عضيدة الرحمة، وقد تتولَّد المودة من رحمة متراكمة لم تكن تحمل حبًّا في بدايتها.

صلته مع زوجه السكن والمودة والرحمة، والبيوت إذا لم تبنَ على الحب فهي خراب، والحب العابر المبني على الاشتهاء الجسدي يذبل، ولن يعبر الحب الجبال والوديان والسهول ويقاوم العوادي ما لم يسقَ بماء التسامح والتغاضي والصفح والنسيان حتى يرسخ، كما قال المجنون:

لَقَـد ثَبَتَـت في القَلبِ مِنـكِ مَحَبَّةٌ ... كَما ثَبَتَت في الراحَتَينِ الأَصابِعُ

كَأَنَّ بِـلادَ اللهِ مَـا لَمْ تَكُـنْ بِهَـا ... وَإِن كَانَ فِيهَا النَّاسُ قَفْرٌ بَلاقِعُ(١٧٨)

صلته مع الذرية رحمة متبادلة: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»، والرَّحِم الأولى هي مصدر الإنسانية، لم يكن حمل حواء وبناتها في اليد أو الرجل، كان في منطقة الرَّحِم، وهي مشتقة من الرَّحْمة، مَن وصلها وصله الله، ومَن قطعها قطعه الله، فالمرأة هي أيقونة الرحمة.

تشريع التوبة رحمة: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ﴾، ووصف الله نفسه بأنه هو الغفور الرحيم، ولم يصف نفسه

بأنه المعذب أو المعاقب، بل وصف عذابه بأنه أليم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

وجاء في دعاء آدم بعد الأكل من الشجرة: «أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟

قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَيْ رَبِّ،

أَلَمْ تُسْكِنِّي جَنَّتَكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتُكَ غَضَبَكَ؟

قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ وَأَصْلَحْتُ أَرَاجِعِي أَنْتَ إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ:

بَلَى»(179).

الأصل في العلاقة بين التابع والمتبوع الرحمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

الأصل في العلاقة بين الناس كلهم العدل والرحمة: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ،

حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

قال بعض الشراح: المراد هنا الأخوة العامة، التي هي أخوة النسب البعيد

العالي، ويدخل في ذلك الكفار، لأنهم إخوة في النسب من جهة أن أبا

الجميع هو آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم.

قال ابن العماد: الأولى أن يُحمل على عموم الأخوة حتى يشمل الكافر،

فيحب لأخيه الكافر ما يحب لنفسه من الإسلام.

وفي «منار القاري»: وقد كان ﷺ يدعو لكفار قريش بالخير، ويحبه لهم،

ويقول: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»(180).

ومما يؤكِّد أن المراد محبة الخير للناس جميعًا لا فرق بين مسلم وكافر قوله ﷺ:

«أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ»(181).

ولكن هذا إذا لم يكن في الخير الذي يصيبهم مضرة للمسلمين، وإلا دخل ذلك في موالاة أعداء الله[١٨٢]..

فيكون المقصود بالأخوة ما هو أعم من أخوة الإسلام، ويكون المقصود من ذلك أن يحب لأخيه في النسب العالي البعيد الهداية والاستقامة، وقد جاء في القرآن إطلاق الأخوة على هذا المعنى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، فإن هذه أخوة نسب وليست إخوة إيمان، وكذلك جاء في حق رسل الله عز وجل مثل هود وصالح وشعيب.

وفي رسالة ابن تيمية «قاعدة في المحبة» يقول: «أصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة فهو أصل كل فعل ومبدؤه»[١٨٣].

هل الأصل في العلاقة بين الناس الحرب أم السِّلْم؟

قصة آدم وتسليم الملائكة دليل على أن السلام هو التحية المشروعة بين الناس، والسلام الكامل: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وهو مبذول لكل أحد بدءًا وردًّا، ومثله البر والإقساط والإحسان لمَن لم يتورط في حرب أو عدوان[١٨٤].

من رحمة الله بك أن يجعلك سببًا ووسيلة لوصول رحمته وفضله إلى الآخرين المحرومين العاجزين.

وأنتَ تُعِدُّ فطورك، فكِّر بغيركَ

لا تَنْسَ قوتَ الحمام

وأنتَ تخوضُ حروبكَ، فكِّر بغيركَ

لا تنس مَنْ يطلبون السلام

وأنتَ تسدد فاتورةَ الماء، فكِّر بغيركَ

مَنْ يرضَعُون الغمام

وأنتَ تعودُ إلى البيت، بيتكَ، فكِّر بغيركَ

لا تنسَ شعب الخيامْ

وأنت تنام وتُحصي الكواكبَ، فكِّر بغيركَ

ثمةَ مَنْ لم يجد حيِّزًا للمنام

وأنت تحرِّر نفسك بالاستعارات، فكِّر بغيركَ

مَنْ فقدوا حقَّهم في الكلام

وأنت تفكِّر بالآخرين البعيدين، فكِّر بنفسك

قُلْ: ليتني شمعة في الظلام[١٨٥]

حين خلق الله آدم وحواء جعل في قلوبهما ينابيع الحب التي تزيد كلما نُزِفَت، كلما تدربنا على بذل الرحمة أحسسنا في أنفسنا بالمزيد منها.

ooo



نبوَّة

ذكر د. عبد الوهاب النجار أن محكمة مصرية حكمت ذات حين بكفر زوجٍ، والتفريق بينه وبين زوجته؛ لإنكاره نبوَّة آدم.. ونقضت محكمة أخرى الحكم حين قال الزوج: إنه لم يجد نصًّا في القرآن بنبوته، وإنه يقرُّ بنبوته!

هل هذا الحكم صحيح؟! وهل ثَمَّ إجماع قطعي على نبوة آدم؟! أو نص صريحٌ صحيح؟!

نقل أبو منصور البغدادي الإجماع على نبوة آدم.

ولعل المقصود إجماع الجمهور الأكبر من الصحابة والتابعين والأئمة والمفسرين.

وبإزاء هذا يوجد رأي ضعيف لا يُثبت نبوته، وهو رأي الشيخ عبد الله بن زيد المحمود حيث قال: «القرآن لا يثبت لآدم نبوة ولا رسالة، وما كان ربك نسيًّا، إنما هو أبو البشر يذنب ويتوب..»[١٨٦].

وكتب فيه الأستاذ عز الدين بليق مؤلفًا بعنوان: «نبوة آدم ورسالته بين

الظن واليقين»، وقد حشاه بالنقول المكررة والمقدمات والموضوعات الجانبية، وانتهى فيه إلى أنه لا فرق بين النبي والرسول، وأن نوحًا أول الأنبياء والرسل؛ كما في حديث الشفاعة[187]، وبهذا خرج آدم عنده من دائرة الأنبياء والمرسلين..

آدم نبيٌّ معلَّم مكلَّم.

آدم أول مَن يتنابه الناس يوم القيامة للشفاعة إلى ربهم، فيعتذر منها لأكله من الشجرة.. ولا يشفع يومئذٍ إلا النبيون، فلو لم يكن نبيًّا لكان عذره أوسع..

آدم ممن رآهم النبيُّ ﷺ ليلة المعراج في سياق مشاهد الأنبياء[188]..

الجدال والمحاجَّة بين آدم وموسى في شأن القدر والخروج من الجنة[189]، مؤشر على نبوته..

لم يذكر القرآن نبوة آدم صريحة، بل ذكره بلفظ: الاجتباء، وبلفظ: الهداية، وهما لفظان استخدما مقترنين مع الأنبياء في القرآن: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾، وفي سياق آدم: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

وجاء لفظ الاجتباء في شأن يونس: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وذكر آدم في سياق الأنبياء عليهم السلام: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

نبوته من الأقوال الصحيحة الواضحة المؤيَّدة بظواهر أدلة من القرآن، وبعض أحاديث لا تخلو من مقال، وليست نبوته من القطعيات ولا مواضع الإجماع اليقيني، فمَن لم يقل بنبوته بنوع من التأويل فلا يكفر بهذا. والأمر لا يستدعي جدلًا عقيمًا ولا مجالس للمناظرة، فالإيمان بالوحي

والنبوة يجب إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فُصِّل مما هو ثابت قطعي: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

كان آدم يُعلِّم ذريته وهم ليسوا بمشركين، إلا أن البشر يفتقرون إلى الوحي فيما يتعلق بعباداتهم وأحكامهم وأمور غيبهم، ومن هنا قامت الضرورة التامة للنبوة والوحي.

النبأ هو الخبر إن كان خطابًا مباشرًا من الله؛ كما في حالة موسى، أو بواسطة المَلَك جبريل عليه السلام، ويسمَّى: رسول الملائكة، أو إلهامًا ربانيًا لمن يختارهم الله..

فهم النخبة المصطفاة الذين يأتيهم خبر السماء وتعليم الله، ولذا سمُّوا: أنبياء.

فإن اعتضد هذا بتكليفهم بالبلاغ، وإنزال شريعةٍ أو كتاب، وإقامة حجة، والإتيان بمعجزة؛ فهي الرسالة، فكل رسول هو نبيٌّ قطعًا، وليس كل نبيٌّ رسولًا..

والقول في الفوارق بين النبي والرسول أوسع من هذا، ولكن القرآن يدل على أنهما ليسا بمترادفين كما ادَّعى بعضهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

وقال: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

النبوة تعضيد للعقل، ورسم لمساره الصحيح، وتحفيزٌ لحركته: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وليست تخديرًا أو عزلةً عن الحياة والعمل وخلافة الأرض..

والنبي الأول هو أول مَن وضع لَبِنات الكشوف في الحرث والصنائع، والانتفاع من تسخير السماوات والأرض وكشف أسرارها.

النبوة طمأنينة للقلب، وسكينة للروح؛ ترشد لسلامة الطريق، وحسن العاقبة، ويقين الإيمان، وصحة المعتقد؛ ليعلم الإنسان أنه ليس متوحِّدًا

ولا معزولًا ولا مستوحشًا على هذه الأرض، وأنه موصول الحبل بدار الآخرة، مطمئن القلب إلى طريق النجاة فيها إن أراده..

النبوة نظام لتحجيم الصراعات، وتضييق دائرة الحروب والأطماع، ومنهج للتعايش بين البشر حتى لو لم يكونوا مؤمنين: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

النبوة كشف لعالم الغيب، وإخبار عن الله وملائكته، وعن الآخرة والحساب والثواب والعقاب بما هو حق مطابق: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

النبوة تشريع مفصّل؛ يضبط علاقات الناس، وزواجاتهم، ومعاملاتهم، ويجعلهم أقرب للرشد والصواب.. وإن كان لا يخرجهم عن طبيعتهم المركبة.

النبوة ضرورة للعدل الرباني بتقديم البلاغ وإنذار الآخرة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

وهي رحمة للبشر في الدنيا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

ورحمة لهم من تعجيل العقاب: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

أن يكون الرجل الأول نبيًّا فهو ترسيخ لأصالة الخير في الإنسان وفي الأرض وعمقه واتساعه، ولذا لم تقم حضارة ولم تتكون أمة إلا والدين حاديها وملهمها.

حتى أعتى النظريات المادية اتّكأت على موروث ديني، ولم تستطع إنكار دور الدين في حياة البشر، وشعوب العالم تشهد هبات متكررة في العودة إلى التدين؛ هروبًا من الضياع والكآبة والعدمية والقلق.. واستجابة

للفطرة المطمورة المتفضة.

وحسب استطلاعات لمؤسسة (غالوب) أجريت في منتصف التسعينات فإن:

٩٦٪ من الشعب الأمريكي يؤمنون بالله.

و٧١٪ ينتمون إلى كنيسة ما.

و٤٥٪ يمارسون عبادات وطقوسًا بانتظام.

ويقول الاستطلاع: إن معظم الأمريكيين يؤمنون بالوقائع والمعجزات الدينية التاريخية.

وفي الهند والصين تنشط الديانات الروحانية، وتكسب المزيد من الأتباع حول العالم.

أما العالم الإسلامي فهو الأكثر انتماءً لدينه وشعائره وإيمانه واستعصاءً على التذويب!

oooo



أرض



جنة

يثور جدل قديم متجدِّد حول:

هل جنة آدم التي أُخرج منها هي جنة الخلد، جنة الآخرة؟ أم جنة على ربوة في الأرض؟

من الوجهة الوجدانية البحتة يميل غالب الناس إلى اعتبارها جنة السماء، جنة الآخرة.

لغويًا فالجنة تُطلق على البستان: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، والنصوص محتملة ليست قطعية، والمسألة نظرية وليست من معاقد الإجماع، ولا يترتب عليها عمل، والأولى في مثل هذه المسائل عدم الإغلاق وترك الباب مفتوحًا أمام الاجتهادات المتعدِّدة دون تثريب، ودون اعتبار قولٍ منها محل اتفاق، أو قولًا معتمدًا لأهل السنة، أو وصف قول آخر بأنه بدعة أو ضلال أو مصادم للنص القرآني.

نقل النووي والقرطبي إجماع أهل السنة على أن جنة آدم كانت في السماء،

ونسب بعضهم القول الآخر للمعتزلة.

ونسب ابن تيمية القول بأنها جنة الآخرة لسلف الأمة وأهل السنة والجماعة، ثم قال: «مَن قال إنها جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جُدَّة أو غير ذلك، فهو من المتفلسفة والملحدين، أو من إخوانهم المتكلِّمين المبتدعين، فإن هذا يقوله مَن يقوله من المتفلسفة والمعتزلة، والكتاب والسنة يرد هذا القول، وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول!»[190].

غفر الله لابن تيمية فهو إمام متبحِّر، ولكن لا أحد يُؤخذ قوله كله ويرجع إليه فيما شجر بين الناس إلا رسول الله ﷺ.

وبعض قراء ابن تيمية يقتصرون في بحث مسألة كهذه على هذا النص، ويُحكِمون إغلاق النظر فيها.

على أن ابن تيمية ذاته قال بخلاف هذا في «كتاب النبوات»: «ولهذا كان أصح القولين أن جنة آدم جنة التكليف لم تكن في السماء، فإن إبليس دخل إلى جنة التكليف جنة آدم بعد إهباطه من السماء، وكانت في مكان عال من الأرض، من ناحية المشرق، ثم لما أكل من الشجرة أُهبط منها، ولفظ الجنة في غير موضع من القرآن يراد به بستان في الأرض»[191].

والإمام ابن القيم عرض المسألة في «مفتاح دار السعادة»، و«حادي الأرواح» وسرد أدلة الفريقين بتفصيل وإسهاب، ونقل نصًّا طويلًا عن المنذر بن سعيد البلوطي، وهو من القائلين بأنها جنة في الأرض.

وذكرا قولًا ثالثًا أنها جنة في السماء غير جنة الخلد، وهذا ذكره الماوردي في «التفسير»، وقولًا رابعًا هو التوقف وعدم الجزم، وهو ما اختاره الرازي في «مفاتيح الغيب».

القول بأنها في الأرض مشهور النسبة لأبي حنيفة وأصحابه، وعزاه

بعضهم لسفيان بن عُيينة، ويُروى عن ابن عباس، والله أعلم[١٩٢].
آدم خُلق في الأرض، ولم يرد أن الله تعالى رفعه إلى السماء.
جنة الآخرة لا يخرج منها أهلها.
جنة الآخرة لا تكليف فيها ولا تحريم، ولا لغو ولا تأثيم.
جنة الآخرة لا يصل إبليس إلى الوسوسة لأهلها.
جنة الآخرة لا نوم فيها، وقد خُلقت حواء حين نعس آدم.
هذا بعض برهانهم، وهذا كله لا يعني الجزم بأنها جنة في الأرض؛ لأن الأمر له جانب غيبي، وقد تكون أوصاف الجنة المذكورة في القرآن إنما تحقَّق يوم الدين.
الهبوط يوحي بالانتقال من الأعلى إلى الأسفل، ولكنه جاء في القرآن ليدل على النزول في مكان آخر من الأرض ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾.
والمقصود ليس ترجيح قول على آخر، بل:
١- تعزيز ما قاله ابن نافع المالكي: «السكوت عن الكلام في هذا أفضل»[١٩٣].
فهي مسائل نظرية لا بأس من المرور بها والاطلاع عليها، دون تطويل أو تهويل، ودون إلحاح مفرط على قولٍ ما.
٢- عدم التثريب على مَن اختار قولًا سبقه إليه بعض علماء الأمة، ولو كان مرجوحًا أو ضعيفًا، ما دام يتكئ على بعض الأدلة ولا يصادم إجماعًا قطعيًا ولا نصًّا صحيحًا صريحًا لا احتمال فيه، فإن هذا مما يحسن تربية طالب العلم عليه منذ بداياته الأولى، ولا سبيل إلى تجنب الصراعات القاتلة والخلافات الهائلة بين المنتسبين إلى علم الشريعة إلا بهذا.
الجنة سكن للأبوين، والسكن ضرورة حياتية، ومن السعادة أن يكون السكن واسعًا جميلًا يجري فيه الماء وتنبت فيه الحدائق والأشجار.

يعاني البشر اليوم من مشكلة الإسكان، وعدم التملك، وقضاء العمر والجهد في سبيل الحصول على شقة ضيقة يقضي فيها الكادح شيخوخته! ومن السكن، ومع السكن، فالمطلوب ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾، و﴿لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾.

منذ الإنسان الأول، حتى وهو في الجنة كان الله يلهمه أن يتعرف على حقوقه المضمونة، وكان النبيُّ ﷺ يعلِّم معاذ بن جبل رضي الله عنه حق الله على العباد، وحق العباد على الله(١٩٤)، فأي سمو بالإنسان ورفع لمنزلته وتقرير لحقوقه أعظم من هذا؟!

رغد العيش وعد منجز في تلك الجنة، وثروة مخزونة في الأرض والكون ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، التنمية العادلة الدائمة يفترض أن تتسع للبشر جميعًا، لولا أطماع الأقوياء واستئثارهم بخيرات الحاضر والمستقبل.

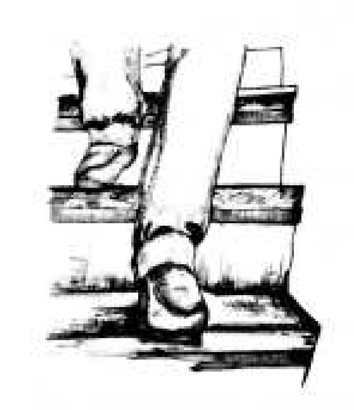
لم يكن وعد آدم أن يشبع، لأنه قد يشبع فيتخم، أو ينسى الجائع، والشبع ليس مطلبًا دائمًا في كل لحظة، قيمة الأكل عند الإحساس بالحاجة إليه.

ولذا عبَّر بنفي الجوع، ونفي العري، ونفي الظمأ، ونفي الحر وأذى الشمس.

هل جرَّب آدم الجوع والظمأ والعري والحر قبل دخوله الجنة؟ الله أعلم.

علينا الاحتفاظ بحلم الوصول إلى الجنة عبر السلوك الطيب والإحسان للآخرين، وفي الدنيا جنة مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها القرب من الله والأنس بذكره.

نزل آدم من الجنة ومعه شيء منها؛ الطيب، طيب الرائحة في الأشجار، وجمال الروح والفطرة التي لم تتغير، والستر الذي تعلَّموه هناك عند الشجرة، والحب الذي خفق به قلباهما لأول مرة ومن أول نظرة!



هبوط

تشاجر مهاجران، سوري وعراقي، وبعدما فرغوا من سرد المفاخر القريبة قال الأخ السوري:

- يكفينا فخرًا أن آدم نزل فينا وعندنا على جبل الأربعين في أطيب بقعة على الأرض ريحًا وأصحّها هواءً، وأن إبليس اللّعين نزل عندكم بالأُبُلّة.

وأضاف: نحن كنا بداية الوجود الإنساني، ونحن أيضًا نهايته، ففسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغُوطة، وهي عقر دار الإسلام والمسلمين.

رد العراقي:

- ألم تعلم أن أول قتل في تاريخ البشر كان في قاسيون؟ وأن إبليس كان موجودًا يلهم قابيل طريقة القتل؟ ولعلك رأيتَ الدم على الحجر أمام المغارة التي تسمونها: مغارة الدم، وتزعمون أنه دم هابيل!

كنت في سيرلانكا ومررنا بجبل، فأشار صاحبي إليه وقال: هذا جبل آدم الذي أهبط عليه من الجنة، وحول الجبل زوار من كافة البلاد والأديان

يتراءون ما يظنونه أثر قدم آدم!

روى الحاكم أن آدم مكث في الجنة مقدار ما بين العصر إلى الغروب[١٩٥]، وهذا لا يتعارض مع ما ذكره آخرون من أنه مكث مائة وثلاثين سنة[١٩٦]، فلعل المقصود في رواية الحاكم- إن صحَّت- أن ما قضاه في الجنة يعادل ما بين العصر إلى الغروب بالنسبة إلى اليوم الكامل.

أمر الله آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض التي خلقها لهم وخلقهم لها بعد أكلهم من الشجرة، وكان خروجهم من الجنة يوم الجمعة، كما في حديث: **«خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ: يَوْمُ الْـجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّـةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»**[١٩٧].

خروج آدم وحواء من الجنة هو (خير) كما يوحي به سياق الحديث، والحياة نعمة، والعمر عطاء، وكيفما تحب الحياة تكون لك، ويوم الجمعة الذي خرج فيه آدم إلى الأرض هو يوم عيد للمسلمين!

لم يثبت حديث صحيح يحدِّد مكان هبوط الأبوين:

هل نزل آدم بجزيرة سرنديب من أرض الهند، وهي المعروفة بسيلان أو سيرلانكا؟ أم على قمة إفرست من جبال الهملايا؟ والتي هي من أعلى القمم في العالم؟ أم بالشام؟ أم بالحجاز بين مكة والطائف؟ أم بالصفا عند المسجد الحرام؟

وهل نزلت حواء معه؟ أم في مكان آخر؟ هل هو جُدَّة؟ وهل التقيا بعرفات أم بالمزدلفة؟

كل ذلك مما لا يقين فيه ولا حجة في ترجيح قول على قول.

ولعلهما مرا بهذه المواضع الثلاثة وتركا فيها أثرًا ما، ولو كان أثرًا لغويًا

يتعلق بالاسم، وقد ذكر ابن بطوطة الرَّحَّالة قصته مع قدم آدم في الرحلة.

أهم من هذا استلهام الدرس: لا تستسلم للخطأ، الخطأ ليس فشلًا، هو التدريب الذي يمنحك الخبرة ويقوِّيك، وبإمكانك أن تكون بعد التصحيح خيرًا منك قبل الخطأ، أخطر ما في الخطأ أن يجعلك يائسًا أو قانطًا أو مستسلمًا.

في كل مرة بإمكانك أن تبدأ من جديد، آدم جعل هدفه السعي للرجوع إلى الجنة عبر عمارة الأرض وإصلاحها وفق منهج الله.

البداية الجديدة على الأرض أهَّلته لدرجة أعلى: النبوة.

مرة عبَّر القرآن بـ﴿اهْبِطَا﴾، وهو إيحاء بعلو الجنة وتراجع منزلة الأبوين إثر خروجهم منها، ومرة عبَّر بالخروج ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾، ومرة عبَّر بـ﴿اهْبِطُوا﴾ بصيغة الجمع خطابًا للأبوين وإبليس، ولذا قال عقبه: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

الهبوط كان في خطاب الله المباشر لآدم وحواء، والإخراج جاء في سياق الحديث عن فعل الشيطان، ومع تحذير القرآن المتكرِّر من كيد الشيطان، إلا أنه يُوحي بعدم المبالغة في تضخيم دوره: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

وفي السنة: «**لَا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الْجَبَلِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ. وَلَكِنْ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: بِسْمِ اللهِ، تَصَاغَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «**لَا تَسُبُّوا الشَّيْطَانَ، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهِ**»(١٩٨).

المعنى: عندما تتعرَّض لمشكلة أو تعثر فلا تسبَّه؛ لأنك بهذا تمنحه دورًا لا يستحقه، وعليك أن تسائل نفسك وتعمل وفق الأسباب.

هبوطه علَّمه قيمة الجنة، وبضدها تتميَّز الأشياء، والضد يظهر حسنه الضد.

ثم دروس نتعلمها من أضدادها، لم يخلق الإنسان ليكون صوابًا محضًا.

إقدام الأبوين على الأكلة الممنوعة، وإن كان منهيًّا، إلا أنه تعبير عن الجرأة، وهي صفة ضرورية لمَن خُلقوا للأرض، لم يكن معهما (كتالوج)، وكان أمامهما ألغاز كثيرة، كيف يلبسون؟ كيف يطبخون؟ كيف يوقدون النار؟ أين ينامون؟ كيف يتجنبون المخاطر والوحوش؟... حتى الكعبة التي وُضعت لهم ولذريتهم كانوا مهمومين بمعرفة الطريق إليها، فهي بيت الله في الأرض.

كان معهم التفكير والتعلم والبحث والمحاولة.

كانوا معتدلين في النظر إلى الأشياء، لم يبالغوا في تضخيم المخاوف: الخطر، الموت، المعصية، التجارب الفاشلة، الصراع، الفجيعة، مشكلات الأسرة...

لم يكن لديهم كمٌّ هائل من الرقباء والأوصياء، كان الله وحده هو الرقيب عليهم، كانوا يعبدونه وكأنهم يرونه، ولا غرابة فهم حديثو عهد بالجنة!

اليوم يفكِّر الإنسان بصوابية الفكرة أو خطئها مرة، ويفكِّر بموقف الناس منها وقبولها أو رفضها مرتين، وكم من الأفكار الصائبة وُئدت بضغوط البيئة.

هل ثَمَّ أحد يستطيع أن يقول إنه يتكلم بما يراه، وما يراه فحسب، دون أن يضع وزنًا واعتبارًا لكلام الناس؟

صحيح: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ»[199]، وليس مطلوبًا ولا ممكنًا

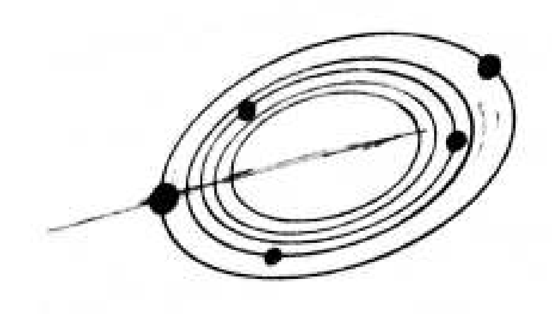
تجاهل مَن حولك، ولكن لو أخذ هذا الأثر على إطلاقه لكان معناه ألَّا نقدِّم للناس أي جديد خلاف ما ألفوا وتعلَّموا، وإنما رسالة الأنبياء والمصلحين والمجدِّدين تقوم على تغيير الواقع ومواجهة الناس بغير ما ألفوا، ولكن بحكمة وبصيرة وصبر وتدرج.

عبر الشبكات أصبحت الفكرة متاحة لكل أحد، سريعة الانتقال، يتناولها العدو والصديق والبعيد والقريب، ويوظِّفها أُناس ضدك ويوظفها آخرون لمصالحهم؛ ولذا أصبَحْتُ اليوم حذرًا أكثر من اللازم فيما أقدِّمه من أفكار.

يحتاج الإنسان إلى محفِّز لتكرار المحاولة والنزوع عن الخطأ والصبر على الطريق، التوبة التي وسعت آدم وزوجه رحمة إلهية قائمة وبابها واسع مفتوح آناء الليل وأطراف النهار حتى تغرغر الروح أو تطلع الشمس من مغربها.

أحلام الجنة الجميلة ظلت حية في خيالها ورقيبًا لا يغفل وحافزًا لا يهدأ للعودة إلى الوطن الأول.

0000



كوكب ..

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾.

هل هذا وصف الجنة التي وُعد المتقون؟

كلا.

بل هو وصف الأرض التي اختارها الله لنا لنسكنها، واختارنا لها لنعمرها.

ليست أرضنا ملعونة بسبب الخطيئة أو وجود الشياطين فيها؛ كما تزعم بعض الروايات والكتب السابقة، بل هي طيبة مباركة كلها وخصوصًا البقاع الطاهرة المقدَّسة المختارة المخصَّصة للتعبد..

وهي كلها مسجد وطهور: «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا».

إذا كان آدم لم يقطع شجرة قط.. فما بالنا نمضي سراعًا للقضاء على الغابات، وعلى الخضرة، وعلى الجمال الفطري؛ لنحول كوكبنا إلى ورشة أو مصنع أو كتل من الخرسانة ؟

تحريم قطع الشجر والصيد بمكة ثابت بالوحي المنزَّل[٢٠٠]، والكعبة جعلها الله قيامًا للناس وضمانًا لبقائهم ووجودهم، وهو يوحي بأن الإذن للبشر بذلك في غير المسجد الحرام هو بسبب الحاجة، فما كان من ذلك على سبيل الإسراف والتبذير والهدر فهو مذموم.

كيف أقاوم رغبتي برؤية النيران تتلهب أمامي وتتعالى ألسنتها في ليلٍ مظلم أو برد قارس أو سفر بعيد؟

كم عدد البشر الذين عاشوا على الأرض منذ آدم؟

يقال بأنهم أكثر من مائة مليار إنسان، والله أعلم بذلك.

صَاحِ، هَذِي قُبُورُنَا تَمْلأُ الرَّحْـ ـبَ فَأَيْنَ القُبُورُ مِن عَهْدِ عَادِ
خَفِّفِ الوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْـ ـأَرْضِ إِلَّا مِن هَذِه الأَجْسَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا ضَاحِكًا مِن تَزَاحُمِ الأَضْدَادِ
وَدَفِينٍ عَلَى بَقَايَا دَفِينٍ فِي طَوِيلِ الأَزْمَانِ وَالآبَادِ
وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِنْ قَدُمَ العَهْـ ـدُ هَوَانُ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ[٢٠١]

والله أعلم كم عدد الذين سيرثون الأرض من بعدنا إلى حين خرابها وقيام الأشهاد..

الأرض وُضعت لنا ولهم جميعًا، ولم يُؤذن لنا باحتكارها أو إفسادها أو تفريغها من خيراتها أو التسبب في احتباسها الحراري.. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

ومما فُسِّرت به الآية: الفساد: قلة الأمطار، وغلاء الأسعار، وكثرة الحروب[٢٠٢]..

في هذه الأيام تتداعى دول العالم التي انخرطت في حروب عالمية دامية ومخيفة إلى محاولات حثيثة للحفاظ على البيئة والاهتمام باخضرار الأرض ومكافحة الانبعاثات الضارة فيها والتخفيف من حرارتها التي تهدِّد البيئة، وربما العالم كله.

وفي سبيل هذا تم تشريع قوانين مختلفة عالميًّا وفي كثير من الدول يتعلق بالحفاظ على الشجر والحجر والأرض والبيئة ومكافحة التلوث.

من الفساد هذا التفاوت العظيم بين شركاء الوجود من ذرية آدم، واستيلاء الشمال على خيرات الأرض، وتخريب العمران، وقتل السكان باسم الاستعمار!

في المدينة الواحدة أحياء فخمة راقية مغلقة، وأخرى عشوائية أو غرف ضيقة من الصفيح، تركت للجريمة والفقر وفقدان الكرامة وضياع الحلم، فلا تعليم ولا صحة ولا ترفيه..

بين هؤلاء الجياع عباقرة وعظماء ومبدعون ومدافعون أشاوس، ولسان حالهم يقول:

«العبدُ لَا يُحْسِنُ الكرَّ، وإنما يُحْسِنُ الحِلَاب والصَّرَّ»[٢٠٣]! وهم يحتاجون لمن يقول: «كُرَّ.. وأنت حُرٌّ»!

الأرض كل الأرض لنا، لنا وحدنا..

انتقلوا فيها، وامشوا في مناكبها، واضربوا طولًا وعرضًا، حيث شئتم رغدًا!

لماذا إذن أوجدنا جدار برلين الشهير وقسمنا المدينة الواحدة والمجموعة الواحدة لعشرات السنين؟

لماذا أقمنا نحن البشر السور الحديدي؛ الذي حرم مئات الملايين في الاتحاد السوفييتي من الضرب في الأرض وقيَّد حريتهم؟

لماذا سكتنا على الجدار العازل الذي قسم الأسرة الفلسطينية الواحدة وحرم على أفرادها أن يروا بعضهم وأن يعيشوا بسلام؟

لماذا صنعنا التعقيدات في السفر والتنقل والترحال، وعوقنا اتصال البشر بعضهم ببعض، إلا ما كان تنظيمًا تقتضيه المصلحة الظاهرة أو الضرورة القاهرة.

كلا..

الأرض ليست لنا وحدنا!

لنا شركاء فيها من ذوات الأرواح، التي تتحرك وتحس مثلنا، وتحيا وتموت، وتنتظمها معنا بعض الأحكام الفقهية والتشريعات الربانية.

حين هبط آدم كانت الطيور والحيوانات والديناصورات - والله أعلم- قد سبقته إلى الأرض، وقد عرفها وعرف أسماءها وتعامل معها وفق توجيه الله له، وعرف تحريم إيذائها أو التحريش بينها أو استهدافها لغير حاجة.

ومن بعده عاتب اللهُ أحدَ أنبيائه على قتل النمل بوحي من السماء(٢٠٤)!

وجعل في شريعة خاتم الرسل أن المرء قد يدخل الجنة في كلب سقاه، أو يدخل النار في هرٍّ حبسه(٢٠٥)!

كيف يمكنني تغيير مشاعري الجامدة نحو الأرض التي أسكنها؟

كما أحب بيتي وسكني الخاص، كيف لي أن أحب أرضي؟

«أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ».

شعور دفءٍ وحميميةٍ حتى مع الصخر!

كان عمر رضي الله عنه يُقبِّل الحجر الأسود ويخاطبه فيقول: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ»(٢٠٦).

كيف نضفي شيئًا من الروح والوجدان حتى على الموات؟

كيف نستطيع أَلَّا نشعر بوحشة الليل المظلم والريح البارد الصَّرْصَر فيه؟
أو لا نشعر بوحشة السفر والاغتراب؟

كنت ذات حين في بلد غربيةٍ ونزل المطر ففرحت به وكشفت عن رأسي له؛ لأنه «حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ»، كما يقول المصطفى ﷺ[٢٠٧]، وصرتُ أردِّد:

أمطرنا بفضل الله ورحمته.. وأطلب المزيد

وصاحبي يقول: كيف تستغيث وتستمطر لقوم كافرين!

قلت له: هذا رزق الله لعباده، برهم وفاجرهم في الحياة الدنيا..

وركبنا القطار فداعبت طفلًا إلى جواري، وبادرت صاحبي قائلًا:

هذا في عمر الموؤودة؛ التي يحضر الله وائدها - ولو كان والدها- على رؤوس الخلائق ليوبِّخه ويحاسبه على جريمته.

ولعلها من أهل الجنة، كما ذهب إليه جماعة من الصحابة والسلف..

أينما كنت تذكَّر أنك في مملكتك، وأن مَن حولك يمتُّون إليك بسبب ونسب، فبادر بالوصل، والابتسامة، والكلمة الطيبة، والعمل الطوعي، والإحسان ولو بالقليل؛ كما فعل موسى عليه السلام حين ورد ماء مَدْيَن.

ولا تحجب عنهم هدى دلَّك الله عليه، وخيرًا أرشدك إليه، فوالله لأن يهدي الله بك أحدًا لهو خير لك من الدنيا وما فيها، ومَن أحيا نفسًا فكأنما أحيا الناس جميعًا.

٥٥٥٥



المنزل الكبير

كنت أقرأ في فقه العمران، وأضع عناصر لخطبة جمعة حين وقع بصري على غير ميعاد على آيات من سورة الأنبياء؛ تتحدَّث عن تهيئة الأرض والسماوات وفتقهما لسكنى البشر، وإجراء المياه الضرورية لحياة الإنسان والنبات والحيوان..

وتتبع ذلك بإرساء الأرض بالجبال لكيلا تميد بالناس، ووضع الطرقات والسبل في البر والبحر؛ ليتواصل البشر بينهم، ويتعارفوا، ويتبادلوا المصالح.

أما السماء فسماها: ﴿سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ لهذا المنزل الضخم المهيأ لسكنى الخليقة الخليفة.

أما النجوم، والشمس، والقمر فهي للمسكن المجهز: الإضاءة، والتدفئة، والصحة، والتوازن، والإنضاج.

والسكن هنا رحلة عابرة ليس لها قرار، ولذا عقب بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا

﴿لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.

بعض الوعظ وبعض التربية لا تعرف من المشهد إلا الموت والدثور والبلى، وتبعًا لذلك تختصر الحياة بإما قاتل أو مقتول!

هذا المنزل الضخم مُعَدّ لآدم وذريته ليعمروه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، فلا وجه بعد هذا لترديد النقل عن عيسى عليه السلام: «الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ، فَاعْبُرُوهَا وَلا تُعَمِّرُوهَا»[٢٠٨].

خلافة آدم في الأرض تختلف عن فعل الملائكة الذين قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

خلافةٌ فيها الحرث، والبناء، والإعمار، والصنعة، والتناسل، والمعرفة..

استعمركم في الأرض: منحكم أعمارًا يتذكَّر فيها من تذكَّر، وجعل للفرد أجلًا، وللأمة والدولة أجلًا لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، فأنتم أساس الحضارة والتشييد، والحضارة تقوم لتنفعكم وتعطيكم وتسهِّل عيشكم.. لا لتقتلكم وتفنيكم!

استعمركم: غرس في فطرتكم الآدمية حب الأرض، وحب الحياة وزينتها، والرغبة في تخليد الذكر بالآثار الحسنة.

هِمَـمُ المُلُـوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَـا ... مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ البُنْيَانِ[٢٠٩]

وشهد الخالق سبحانه على حب الإنسان للشهوات والمال والذرية والحرث والمتاع.

ورزقكم القدرة على التعلم وكسب المعرفة، ومقاساة التجربة، وتحصيل الخبرة.

استعمركم: طلب منكم الإعمار والبناء على سبيل الوجوب؛ كبناء

المساجد، والمرافق الضرورية، وما لا يتحقق للإنسان العيش والخصوصية والستر إلا به.

أو على سبيل الاستحباب فيما يسهل على الناس تحقيق مصالحهم الدنيوية أو الأخروية من الأبنية والطرقات والمطاهر وسواها.

أو على سبيل الإباحة؛ ككل بناء لا نص على تحريمه ولا إسراف فيه..

طلب منكم العمران المادي الذي يكفل: حق الطريق حِسًّا ومعنى، وحق الخصوصية أَلَّا تنتهك، وحق الصحة: بنى النبي ﷺ خيمة بجوار المسجد لتمريض سعد بن عبادة[٢١٠].

وحق الحرية: «حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ.. ».

وحق الأمن: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا».

وحق الجوار: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ».

وحق الجمال حتى يحاكي الإنسان في الأرض صورة الجمال الذي رآه آدم في الجنة، وحكاه الوحي من الخضرة والماء والغرف وغيرها..

وحق الحلم بما هو أجمل وأكمل وأوسع وأعظم، والحلم موهبة زوَّد الله بها آدم؛ ولذا خاطبه الشيطان وأغراه بالخلود والمُلْك العريض!

وحق العدل بين الناس فالأرض وُضعت للأنام.

وتسلط المتجبِّرين المتكبِّرين على مواقعها الجميلة، وتركهم الضعفاء للعشوائيات والبلدان الفقيرة والنامية، مع نهب ثرواتها وتركها فريسة للمرض والجوع والجهل.. هو مما نعاه الله وأنكره عليهم: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا

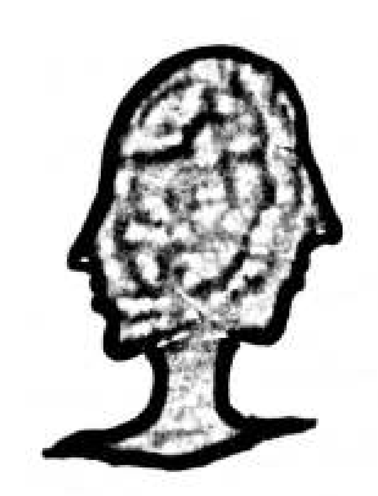
لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.

المؤمن متنقِّل بين فضل الله في الضرب في الأرض، وبين رحمته في التعبد والخشوع وهو يقول في دعائه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

وهو مؤتمن على هذا الكوكب الغني البهي حفاظًا على سلامته وأمنه، وعلى جماله وزينته، وعلى نظافته وطيبه، ولم لا وهو صادر عن الرب الكريم.




أزمة



أنت قبيلي أم هبيلي؟

لم يرد في القرآن والسنة ذكر لهذين الاسمين (هابيل وقابيل)، ولكنهما متداولان على نطاق واسع في كتب التاريخ والتفسير، وموجودان في الروايات الإسرائيلية وكتب أهل الكتاب.

والمهم أصل القصة وعبرتها، ولا يضر اعتماد هذين الاسمين لشهرتهما، ولا يحتاج ذلك إلى أسانيد قوية، خاصة وقد ورد هذا عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وغيرهما.

وفي القرآن سرد القصة في خمس آيات من سورة المائدة، وجاء السياق متصلًا بقصص أهل الكتاب، مما جعل بعضهم يظن أن القصة وقعت في بني إسرائيل، والحق أنها كانت لولدين مباشرين من أبناء آدم، ولذلك: **«لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»**.

إذًا فهي أول جريمة قتل تقع في الأرض بعد خلافة آدم.

قابيل أول قاتل، وهابيل أول قتيل، ولعله أول ميت.

ولعلها أول معصية على الإطلاق، فيكون أول فسادٍ في الأرض وخروج عن مهمة آدم كان بهذه الجريمة الشنيعة؛ ولذا عظَّمت الشرائع شأنها وتوعَّدت مرتكبيها بأشد العقاب واللَّعن.

معظم الروايات تتحدَّث عن خلاف على الزواج من البنت الأجمل، وهذا معنى ظل ساري المفعول في بني آدم، كما قال ابن السمَّاك: «لولا ثلاثٌ لم يقع حَيْفٌ، ولم يُسَلَّ سيفٌ؛ لقمةٌ أسوغُ من لقمة، ووجهٌ أصْبَحُ من وجه، وسِلْكٌ أنعمُ من سِلْك»(٢١١).

فالصراع على الجمال والثياب والطعام؛ سر كثير من الحروب التي يوظَّف فيها مَن لا يدرك مغزاها.

والقرآن لم يُعْنَ بتفصيل ذلك؛ لأن المقصد العبرة بتعظيم الدم وحرمته وحفظ حقوق الأخوة الإنسانية الآدمية القائمة بين البشر كلهم، إلا ما يقتضيه العدل وتأذن به الشريعة.

كما لم يُعْنَ القرآن بتفصيل القربان، وكان هابيل صاحب غنم فقرَّب أفضل ما لديه بطيب نفس، وقابيل صاحب زرع فقرَّب شر ما لديه وبغير طيب نفس.

أما التَّقبُّل، ويعني قبول الله للقربان فورد ما يدل على أن علامته أن تأتي نار من السماء فتحرقه، وجاء في القرآن قول اليهود: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾.

وفي قصة «يُوشع بن نون»: أنهم جمعوا الغنائم فأقبلت النار فلم تأكلها، فأعادوا إليها الذهب المغلول فأقبلت النار فأكلتها.

هل كان الأمر حسدًا بسبب قبول القربان فحسب؟ أم كان القربان

اختبارًا ينتج عنه تحديد مَن يتزوج الأخت الجميلة منهما؟

الأمر محتمل.

حسد قابيل لأخيه أنموذج مصغَّر لما وقع من الشيطان مع آدم، شعوره بأفضليته أثار غيرته، فطفق يهدِّده ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، وكان رد هابيل: إن الله الذي جلبنا إلى الأرض سيثأر لي إن قتلتني.

الهمُّ بالقتل يحدث، والتسامي عن الانتقام يحدث أيضًا، فهابيل كان الأقوى، ولكنه كان الأتقى؛ ولذا لم تُحدِّثه نفسه بأن يبادر بالقتل، ولا خطرت في باله فكرة: تغد بالحَجَّاج قبل أن يتعشَّى بك.

مبدأ هابيل كان سلميًّا: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾، كان عارفًا بأن القتل نار وعار وظلم: ﴿فتكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

كان حريصًا على حماية نفسه، حذرًا من غدر أخيه، ولا يغني حذر من قدر، لقد وجده قابيل نائمًا على سفح جبل فرماه بحجر فقتله..

وقع لقابيل بعض التردد والإحجام فهو يهم بجريمة لم يرها قط، ولكنه يدرك أنها يمكن أن تقع، وبمقدوره أن يفعلها، تهيَّبَ من ذلك ولكن نفسه الأمارة بالسوء ﴿طَوَّعَت﴾ له قتل أخيه.

التعبير بالأخوة تذكير بالمشترك الإنساني بين البشر من بني آدم، وتعظيم لحرمته وحقه، وتحذير فوري من التجاوز والعدوان عليه.

يسجل القرآن ندم قابيل بعد أن رأى أخاه جثة هامدة، وتعبير القرآن: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾؛ يدل على شدة الندم وتمكّنه، فهو أبلغ مما لو قال: فأصبح نادمًا!

وهذا يشبه قول الله تعالى لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فتكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ولعل هذا الندم لم يكن ناشئًا من خوف الآخرة، ولا قصد به التوبة الصادقة ولذا لم ينفعه، والتوبة تنفع في الآخرة من كل ذنب حتى من الشرك والقتل فما دونهما.

عبَّر عن ندمه بقوله: ﴿يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾، وهي إنما تقال عند الوقوع في هلاك أو تعاسة أو حسرة، وتذكَّر فورًا أن المقتول أخوه: ﴿فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

بعد القتل حمل القاتل همَّ مواراة السَّوْءة، سَوْءة أخيه، لقد أزهق روحه فلم يعد قادرًا على التصرف في نفسه، وعبَّر عن الجسد كله بالسَّوْءة، لأنه صار جثة هامدة واجبة الدفن.

والسَّوءة: الفضيحة، فالقتل سَوْءة أوجبت عليه السعي في الخلاص من تبعتها بمواراة القتيل.

الأخطاء مهما عظمت لا تلغي الأخوة، وفي سياق مشابه بشأن القصاص يقول تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾.

الذنب مهما عظم لا يعني الكفر، ولا يخرج صاحبه من الدائرة الواسعة.

تقديم قابيل للقربان دليل على وجود أصل الإيمان، ولا دليل على أنه كان منافقًا.

قد يحدث اختلاف بين المؤمنين، وقد يتطوَّر إلى اشتباك وتقاتل، ومع شناعة الفعل وبشاعته إلا أنه لا يعني خروجهما من دائرة الإسلام.

جاء عمران بن طلحة بن عبيد الله إلى عليٍّ رضي الله عنه فرحَّب به عليٌّ وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك طلحة والزبير ممن قال فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.

ظل رباط الأخوة محكمًا في حالات كهذه، بينما يسرع كثيرون إلى قطعه بمجرد حدوث خلاف في قضية جزئية أو مسألة فرعية أو رأي مختلف، وطالما ردّدنا: الاختلاف لا يفسد للوُدّ قضية، على أنه يقطع حبل الود والوصل من الأصل!

يمر القرآن على مشهد القتل سريعًا دون إبطاء ولا تفصيل ولا تطويل: ﴿فَقَتَلَهُ﴾، فمن الجدير عدم التركيز في السرد على لحظة الضعف بتفصيل قد يفضي إلى المحاكاة أو الإغراء.

العبرة هي الخسارة الناجمة عن القتل: خسر أخاه، وأسرته، وإنسانيته، وسعادته، وآخرته، خسر تاريخه وصار مثالًا يُتلى إلى يوم القيامة، ونموذجًا يُحتذى في الشر والقطيعة.

خسرت الأسرة الأولى أحد ابنيها بموته، وخسرت الآخر بانحيازه للشيطان، وارتكابه للجريمة الفادحة.

ها هي الأسرة الكبرى تنزف دمًا إلى اليوم في خصومات عمياء يعجز العقلاء عن إدراك أسبابها مثل عجزهم عن إيقافها.

العلاقة بين الإخوة في الأسرة الواحدة ذكورًا وإناثًا يجب أن تكون قائمة على الحب والاحتضان، والانسجام والإيثار، والاحترام المتبادل والتفاهم، ومراعاة حق الوالدين، والعفو والتسامح في حال حدوث مشكلات وحلها بالصبر والحلم والتنازل وتجاوز الحظوظ النفسية، والتسامي عن الأنانية.

(حضن الوالدين) يسعنا جميعًا، وليس علينا أن نكثر من الشكوى: أينا يعتنون به ويحبونه أكثر، مأدبة الطعام التي نتحلّق حولها، المنزل الذي احتفظ بذكريات الطفولة، الجينات، المعبر الذي سلكناه جميعًا

(الرحم)، المصير..

حالات العصبية أو الحساسية أو التوتر يجب أن تعالج بـ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

العلاقة بين المتنافسين في الأجواء الصحية هي تسابق بالخيرات، وتنافس في الطاعات، دون تباغض أو تحاسد أو استسلام لنزعات النفوس المريضة، فرص الحياة تسعنا جميعًا فلماذا نتدافع؟ لماذا نعتقد أن نجاحنا هو في تقويض نجاح الآخرين؟

قابيل وهابيل أنموذجان بشريان.. أيهما تحب أن تكون؟

0000



غراب

يتميَّز الغراب بذكائه العجيب وقدرته على تفكيك بعض العمليات المعقدة، والعرب تسمِّي الرجل الذكي: غرابًا، وهو يحفر في ظاهر الأرض أحيانًا ليخفي طعامًا في مخبأ، وقد يموّه بفتات الحصى ولذا عبَّر القرآن في قصة قابيل وهابيل بقوله: ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾، ولم يعبِّر بالدفن، فالدفن أعمق.

الاقتباس من الغراب يؤكِّد أن القصة تتعلَّق بمرحلة متقدمة من حياة البشر، وقبل أن تتسع دائرة التجارب والخبرات والأعراف المستقرة لدى الأمم.

قال أبو مسلم الأصفهاني: عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء غراب فدفن شيئًا فتعلَّم ذلك منه.

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يدفن موتاه على اختلاف الشرائع والموروثات في سائر الأمم.

الفيل قد يغطي موتاه بفروع الأشجار، وكذلك قرود الشمبانزي والزرافات.
التقط قابيل النادم على قتل أخيه، المتحيِّر في كيفية التعامل مع الجثة، حتى ورد أنه كان يحملها معه، التقط فكرة الحفر في الأرض لدفن أخيه من غراب كان يحرث ويفتش في التراب، وليس في القرآن ما يدل على أن الغراب كان يدفن غرابًا آخر، ولكن هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وجمع من السلف والمفسرين، أن الغراب كان يواري غرابًا آخر ميتًا[٢١٢].

هل علم الطيور اليوم يسعف في هذا المضيق؟

في موقع الـ(BBC) العربي: سلوكيات فريدة لطائر الغراب تجاه الموت.

وفي التقرير: تجتمع طيور الغراب حول موتاها، أما الأسباب وراء ذلك فهي مذهلة حقًّا، المعروف عن الغربان أنها تتصرف بشكل غريب حول الطيور النافقة من نفس جنسها، فهي تجتمع حولها وتصيح بصوت عال!

أُجريت سلسلة دراسات بقيادة جون مارزلوف من جامعة واشنطن في سياتل، وكشفت تلك الدراسات أن الغربان تستذكر شخصًا يشكِّل خطرًا لها، وهي تصيح بصوت عال عند رؤية ذلك الشخص، ولسنين عديدة!

...... كايلي سويفت ضمن الفريق من جامعة واشنطن تقول: تكشف التجربة أن الغربان تنظر إلى الموت، على الأقل جزئيًا، باعتباره لحظة قابلة للتعلم، لتستعير منه شيئًا محسوسًا، إنها دلالة على وجود خطر والخطر يجب تفاديه.

الدراسة نشرت في مجلة (سلوك الحيوان)، وفيها: اكتشف باحثون أن طيور القيق وهي من نفس عائلة الغرابيات تقيم ما يشبه جنازة عندما ترى أحد أفرادها ميتًا..

الغربان ضمن مجموعة صغيرة يُعرف عنها تعرفها على الطيور الميتة من نفس نوعها، أو ربما إقامة حداد عليها!

من الأفضل عدم التسرع في سرد الاحتمالات العلمية لتفسير النص القرآني قبل أن تصبح حقيقة واضحة، ومن الأفضل عدم التسرع في نفيها لمجرد أنها لا تنسجم مع تكوين عقلي لفردٍ أو فئةٍ من الناس.

نحن أحيانًا ننكر أشياء تاريخية لأنها في نظرنا غير معقولة، ثم نسلِّم بأشياء غريبة لأن العلم يقرِّرها والتجارب تثبتها!

فكرة أن يدفن الغراب غرابًا آخر ليست مناقضة لقوانين العقل.

بل هي أقرب إلى دلالة النص القرآني، فهي تفسِّر قول القاتل: ﴿يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

فالتناظر بين الأنموذجين يرجِّح أن الغراب اهتدى لدفن غرابٍ آخر، بينما قابيل عجز أن يفعل ذلك..

حين يقول النص ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا﴾، فهذا يحتمل أن يكون الأمر تدبيرًا إلهيًا محضًا متصلًا بالمرحلة الأولى من حياة البشر ونقص تجربتهم.

ويرى الأصمّ أن الله بعث غرابًا يحثو التراب على المقتول، وهو هابيل، وهذا وإن كان غريبًا، إلا أنه لا يتعارض مع ظاهر النص.

هل سلوك الطيور والحيوانات يتطور عبر الزمن؟ وهل ينقص أو يتراجع؟ الأمر يحتاج إلى (بحث!).

وحين يقول: ﴿يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ فهو لا يعني الحفر، بل تحريك ظاهر الأرض برجله.

كلمة (البحث) اليوم واسعة الانتشار جدًا في الحياة العلمية والعادية والشبكات الاجتماعية، الاستخدام القرآني لها ملهم؛ لأنه يدل على

استخدام الملاحظة والنظر في البحث عن حلول لمشكلات قائمة أو أسئلة محيِّرة، خاصة وقد جاءت في سياق التعلم.

ويدل على توسيع دائرة البحث للاستفادة من بني الإنسان، ومن الطير والحيوان، والبحث في الأرض كل الأرض!



أزمة ..

لا يتعلَّم النَّسْر كيف يطير إلا بعد ما تقوم أمه بحفزه على القفز؛ ليحصل على الطعام الذي أعدَّته له، فيضطر إلى أن يفرد ريشه ويحاول أن يطير، وهي في حال استعداد لإسعافه إذا سقط..

هكذا هي الحياة والتحديات تجعلنا نفرد أجنحتنا ونتعوَّد على التحليق!

الأزمة مصاحبة للحياة منذُ كان الإنسان تمثالًا مسجًّى على الأرض، منذ كان أجوف تصفر الريح داخله، محتاجًا إلى الطعام والشراب والشهوة، منذُ وصلت الروح إلى خياشيمه فعطس، منذُ اقترب من الشجرة وتردَّد ثم أقدم، منذُ بدت له سَوْءته، منذُ سمع العتاب الإلهي، منذُ وطئت قدمه الأرض..

السمو والنظر البعيد يجعلك ترى الأشياء بصورة أفضل.. ترى وجهها الجميل!

هل نظرت إلى السماء وهي ملبَّدة بالغبار الأسود الكثيف؟ إن راكب الطائرة لا يراها كذلك بل يجدها ناصعة الصفاء.

وربما أراد بك عدوك شرًّا، وأراد الله لك بهذا الشر خيرًا، وإرادة الله غالبة لا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

حياتنا مقرونة بقدْرٍ من القلق الإيجابي المثير؛ الذي كان وراء الكثير من نجاحات الحياة العظيمة.

كثيرون ألفوا وضعًا عاديًا لا يحبون الخروج منه، فيريد الله أن يخرجهم إلى ما هو أفضل بواسطة أزمة عابرة تنتزعهم من الإذعان لذلك الواقع المنقوص..

والألم الذي تُحدثه الأزمة يُظهر أجمل ما في النفس من معاني الإيمان، والحب، والمعرفة، والتواضع، والطِّيبة، والإيثار، والنقاء، والبناء..

هذا ما حدث لآدم وزوجه بعد الأكل من الشجرة، كانت أزمة، سبقها تردد، وصاحبها جرأة، وأعقبها ندم.

كيف يمكن لخاطئ متأسِّف أن يحافظ على نقطة التوازن ما بين نسيان مفرط يدعو إلى تكرار الخطأ، وما بين استحضار مفرط يدعو إلى اليأس ويعوق عن الانطلاق؟

قبل طلوع الفجر تشتدّ الظُّلمة وتعصف الرِّيح..

في الأرض والنفس كنوز مخبّأة لا يمكن الوصول إليها إلا عبر أقبية الظلام.

كثير من الزهور الجميلة والنباتات لا تنمو إلا في الظلام.

في الظلام نتعلَّم كيف نثق باليد التي تمسكنا دون أن نراها.. يد الله!

وقبل الولادة مخاوف وبكاء ومخاض ولكن النتيجة رائعة.. وجه كالقمر.. وعينان كغابتي نخيل!

عَيْنَاكِ غَابَتَا نَخِيلٍ سَاعَةَ السَّحَرْ أو شُرْفَتَانِ رَاحَ يَنْأَى عَنْهُمَا القَمَرْ[٢١٣]

في الأرض عاشا معًا مخاض الولادات المتنوعة لتجارب جمَّة، وكانت

صلتهما الوثيقة سببًا في النجاح وبناء الأسرة الإنسانية.

الإيمان بالله يشحن النفس بالثقة والأمل، ويجعل من الأزمات والضيقات مجالات خصبة للنمو، والبركة، والتجربة، والإبداع.

الأمل الإيجابي هو سحر الحياة وروحها..

تستطيع أن تعيش أربعين يومًا بلا طعام.

وثلاثة أيام بلا ماء.

وثمان دقائق بلا هواء.

ولا تستطيع أن تعيش ثانية واحدة حين تفقد الأمل.. حين يستبدَّ بك اليأس!

الآلام تسوقنا إلى الله، وتذكِّرنا بالطريق، وتُلهمنا الذكر والتسبيح.

بمقدورك أن تصبح أقوى من ألمك ليس بأن تتحمَّله فحسب، ولا بأن تحوِّله إلى وسيلة للتفوق والبناء فحسب، ولكن بأن تفيض من روحك على البائسين والمحرومين والمعذَّبين.

كثيرون يظنون أن قربهم من الله يحرمهم اللَّذة، والمتعة، وجمال الحياة..

والحق أن الإيمان بالله يُضاعف المتعة والبهجة، ويصنع سورًا منيعًا ضد الإحباط والقنوط.

ما نعمله ندفع ثمنه ولا بد، الخير والبر ندفع ثمنه قبل الفعل، والخطأ والإثم ندفع ثمنه بعد الاقتراف، والذي جبل آدم على إمكان الخطأ غرس فيه الحنين إلى التوبة.

الأكل من الشجرة المحرَّمة قصة بدأت مع آدم وهي تتكرر في حياتنا، ولكن لا يجب أن نفهم الأزمة على أنها عقاب محض.. هي تطهير ورفعة منزلة، وحماية من خطر قادم.

لو كنت أكثر قوة مما أنت، أو أكثر جمالًا، أو شبابًا، أو مالًا، أو نفوذًا..

لربما صدر منك ما تعيبه على غيرك!

متى نعود إلى الله؟ الابن الشارد يعود إلى المنزل حينما يمرض، أو يفقد ثروته، أو يتحطَّم.. ولله المثل الأعلى.

الفلاح يذرو الحَبّ في الهواء؛ لتطير النخالة وتبقى الحنطة الصافية، وهكذا هي رياح المحنة تذهب رديئك وتبقي طيبك!

هل تقول إنك سَيِّئ الحظ؟

كلا؛ فرُبَّ مُقعَد، أو أعمى، أو ضعيف، أو فقير.. كانوا أكثر سعادة، وأعظم تأثيرًا من الملوك، والأغنياء، والأصحاء.

ليست الحياة حديقة زهور ولا حقل أشواك، ولكنها يمكن أن تكون كذلك إذا كنت مصرًّا على أن تفهمها هكذا.

أنت تثق بالمعلم، والطبيب، وقائد المركبة، والرسَّام الماهر، وصانع الفيلم.. فكيف لا تثق بالله الرحيم، الحكيم، اللطيف، الخبير؟!

وإذا لم تفهم عقدة القصة أو سر اللوحة فأعد التأمل واستعن بخبير!

وإن بنيت علاقتك مع الله على المصلحة العاجلة فحسب فقد بنيت منزلك على رمال متحركة!

كيف تعاملت مع الأزمة؟

- هل كنت ممن يحتفظ بها، ويغلق الباب على نفسه، ويستسلم للعواصف، ويجترّ الآلام ثم يتحوَّل إلى الشرود، والإهمال، والتذبذب، والأمراض النفسية، والروحية؟
- أم كنت ممن يتمرَّد على الأزمة، فيتمرَّد على قيمه الإيمانية، والروحية، والاجتماعية.. ويتحوَّل إلى العنف، والقسوة، ومحاولة الانتقام من المجتمع؟

- أم حاولت الهروب من الأزمة وتجنب التفكير فيها وعدم مواجهتها، وربما قتلت وقتك بالترفيه السلبي واللَّهو والإدمان؟

- أم أنت من ذلك الصنف الواعي؛ القادر على مواجهة الأزمة بصبر وإيمان وخبرة بالحياة، وعقل منفتح على الخيارات، وروح هادئة تدري أن الحزن مقدمة السرور، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؟

مفتاح الحل بيدك.. أن تنظر إلى الأمام.. إلى الممكن والمقدور، وتتكيَّف مع المتغيِّر سريعًا ودون إبطاء، ولا تطل الالتفات إلى الخلف إلا بقدر ما يتطلبه الوفاء والاعتبار، وإياك أن تكون كالشريف إذ يقول:

وَتَلَفَّتَت عَيْني فَمُذ خَفِيَتْ عَنْهَا الطُّلُولُ تَلَفَّتَ القَلْبُ[٢١٤]

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

أقدارنا مكتوبة
فلنعش بسعادة



خلوت



رحيل

حديث الملائكة مع ربهم عن الفساد وسفك الدماء يوحي بأنهم شاهدوا القتل والموت.

في وسوسة إبليس لآدم إغراء بالخلود، وهو ما يشير إلى أن آدم ورد إليه هاجس الموت والفناء..

هل هي الفطرة المحضة، وإدراك آدم لطبيعة تركيبه المادي المجوَّف المعرَّض للمخاطر؟ أم بناه على حالة النوم التي تتغشاه وزوجه، و«النومُ أخو الموت»؟ أم أراه الله تعالى بعض مصير الغابرين؟

أيًا ما كان فقد رأى آدم وحواء مصرع بعض بنيهم، في قصة قابيل وهابيل، وفي قصة المولود الذي خرج من بطن حواء خَدِيجًا أو ميتًا، كما في الروايات المسوقة عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

خلق الله آدم للخلود، فالأرواح باقية، والموت عبور، وليس عدمًا ولا

فناءً محضًا، الرغبة في الخلود المغروسة في جِبِلَّة آدم، وأمنية محقَّقة له ولولده، ولكن بصيغة أخرى تستشعرها الروح لأنها من شأنها.

عاش آدم ألف سنة، كما تواردت على ذلك النصوص(٢١٥)، وفي القرآن عن بعض أهل الكتاب: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ربما كانت الأمنية مبنية على ما في كتبهم من عمر آدم، والله أعلم.

يبدو أن ثَمَّ تناسبًا بين أعمار البشر وأعدادهم، حين كان الناس قليلًا كانت تطول أعمارهم، ثم لم يزل الخلق ينقص بعدُ.

لم يخلق الله الخلق الأول ليعيش في الجنة أو في الحياة إلى الأبد، والموت ليس لعنة على الأبوين بسبب الخطيئة.

الروايات الكتابية تسرف في وصف حزن آدم وحواء وعجزهما عن التكيف مع الكون والحياة، ورغبتهما الملحة في الموت والرحيل: (قال آدم: يا رب خذ روحي ولا تدعنِ أرى هذا الظلام.. خارت قواي ولا أريد أن أعيش في هذا العالم.. ولا أعرف متى تأخذني حتى أستريح)!

سياق القرآن سهل واضح: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، ثَمَّ استقرار واستمتاع وجمال وانسجام مع مهمة العمارة والبناء والخلافة في الأرض.

نسيان آدم للسنين التي أعطاها داوود من عمره، ومواجهته لَمَلَك الموت- حسب الروايات- تأكيد واضح لانتمائه للحياة ورغبته في أن يعيش مزيدًا من السنين؛ لأنه مفطور على حب ذلك، فكراهية الموت فطرة، حتى في الحيوان، فضلًا عن الإنسان، وخيركم **«مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»**(٢١٦)، و**«لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا»**(٢١٧).

العمر الذي يمنحه الله للعبد فرصة للعمل، وميدان للسباق، وسبب لنمو

التجربة ونضجها وإتقانها، وتدارك أخطائها ومواطن ضعفها واتضاح الرؤية وجلائها: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

قد يعمّر المرء حتى يكتمل إنجازه، وتضعف قوته ويشيخ، ويفقد متعة العيش، ويشتاق لقاء الله، فيدعو كما دعا عمر رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي، وَضَعُفَتْ قُوَّتِي، وَانْتَشَرَتْ رَعِيَّتِي، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُضَيِّعٍ وَلَا مُفَرِّطٍ»[218].

وقد يعاني من اضطراب أمر مَن حوله وتفاقم مشكلاتهم وتفرق أهوائهم، فيدعو كما دعا عليٌّ رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ سَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي، وَمَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، فَأَرِحْنِي مِنْهُمْ، وَأَرِحْهُمْ مِنِّي»[219].

وقد يهرم المرء قبل أوان الهَرَم، ويفقد طموحه وحلمه وهو في أول الطريق، ثمّ شاب يريد إنجازًا سريعًا، ودون تخطيط ولا تدريب، فيختصر حياته في درس واحد، حين يفشل يسرع إليه اليأس، ويتخلّى عن طواعية عن عمرٍ ثمين.

وَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ ... وَلَا انْتَهَى أَرَبٌ إِلَّا إِلَى أَرَبِ[220]

وقد يرحل وفي نفسه حاجات وأوطار لم يقضها، كما قال جَمِيل بُثَيْنة:

لَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَلْقَى الْمَنِيَّةَ بَغْتَةً ... وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ إِلَيْكِ كَمَا هِيَا

وَإِنِّي لَيُنْسِينِي لِقَاؤُكِ كُلَّمَا ... لَقِيتُكِ يَوْمًا أَنْ أَبُثَّكِ مَا بِيَا[221]

والموت عادل في قسمته، كما يقول البرغوثي:

عَزَائِي مِنَ الظُّلَّامِ إِنْ مِتُّ قَبْلَهُمْ ... عُمُومُ الْمَنَايَا مَا لَهَا مَنْ تُجَامِلُهْ

إِذَا أَقْصَدَ الْمَوْتُ الْقَتِيلَ فَإِنَّهُ ... كَذَلِكَ مَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ قَاتِلُهْ

فَنَحْنُ ذُنُوبُ المَوْتِ وَهْيَ كَثِيرَةٌ وَهُمْ حَسَنَاتُ المَوْتِ حِينَ تُسَائِلُهْ
يَقُومُ بها يَوْمَ الحِسَابِ مُدَافِعًا يَـرُدُّ بِهَـا ذَمَّامَـهُ وَيُجَادِلُـهْ
وَلَكِـنَّ قَتْـلَى في بِـلَادِي كَرِيمَةٌ سَتُبْقِيهِ مَفْقُودَ الجَوابِ يُحَاوِلُهْ

قبل رحيله رتَّب آدم أمر خلافته، وعهد إلى ابنه (شِيْث) من بعده، وعلَّمه المواقيت والعبادات وبعض الأخبار والمعلومات الضرورية، ويُقال إن سائر أنساب الناس اليوم تنتهي إلى شِيْث، أما مَن سواه من أولاد آدم فقد انقرضوا وبادوا.

والأقرب أن وفاة آدم كانت يوم الجمعة، وماتت بعده حواء بسنة واحدة؛ لحديث: «**يَوْمُ الْـجُمُعَةِ سَيِّدُ الأَيَّامِ وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ اللهِ، خَلَقَ اللهُ فِيهِ آدَمَ، وَأَهْبَطَ فِيهِ آدَمَ إِلَى الأَرْضِ، وَفِيهِ تَوَفَّى اللهُ آدَمَ**»(٢٢٢).

المشهور أن آدم دُفن عند الجبل الذي أُهبط عليه في الهند، وقال بعضهم: دُفن بجبل أبي قُبيس بمكة المكرمة هو وزوجه حواء، ثم نقل جثمانهما بعد ذلك إلى بيت المقدس(٢٢٣).

ومَن يدري فقد تتعرَّف الذرية إلى قبريْ الأبوين، ويرتفع الشك باليقين.

٥٥٥٥



النَّفَس الأخير

في إحدى محاضراتي بدأت الحضور بسؤال: كيف تحب أن تلقى الله؟

أجابوا بصوت واحد: أن أموت ساجدًا.

لم يفاجئني الجواب، فهو شيء أتمنَّاه لنفسي، و«**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»(٢٢٤).

وكان أبو ثعلبة رضي الله عنه يتمنَّى ميتة حسنة، فمات وهو ساجد في صلاة الليل(٢٢٥).

لو سألت محرك البحث (Google) عمن ماتوا ساجدين لسرد لك قائمة طويلة من المتقدِّمين والمتأخِّرين، ومن الحقائق والظنون والشائعات!

الشهيد أعظم عند الله منزلة: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

الفاروق العظيم جمع الله له بين الشهادة، وأن يموت في صلاته، وفي بلد رسوله ﷺ.

كيف رحل آدم؟ بل: كيف عاش؟

عاش وفيًا للرسالة، للخلافة في الأرض بالبناء والإعمار، عاملًا على حقن الدم ومنع الفساد، والوفاء للميثاق الأول.

تذكر الروايات أنه مرض، وأحس بقرب الرَّحيل، وشاركته زوجه الإحساس ذاته، وكان يردِّد الكلمات المباركات التي تلقَّاها من ربِّه، التوحيد والاستغفار والاعتراف بالذنب: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

لك أن تبحث عن أثر التعبُّد في حياتنا ونحن نحتشد في المساجد، ونسارع إلى العمرة بعد العمرة والحج بعد الحج، ونتلو آيات الذكر الكاشفة عن الفرق بين مهمة آدم ومهمة الملائكة..

لِمَ لا يكون من بيننا مَن يحب أن يعيش حياته منهمكًا في عمل خير وإحسان ونفعٍ للفقير والمسكين والغريب والمريض والصغير؟ وهو إحسان يتعدَّى نفعه للآخرين ولا يقتصر على صاحبه.

أو لا يكون من بيننا مَن يحب أن يعيش حياته عاكفًا على بحث معرفي يكشف فيه غامضًا أو يجلِّي ملتبسًا أو يقرِّر قاعدة أو يدفع العلم البشري إلى الأمام، ولو خطوة صغيرة؟ والعلم هو ميزة آدم التي خوَّلته الخلافة في الأرض وسجود الملائكة.

أو لا يكون من بيننا مَن يحب أن يظل على رأس عمل أو وظيفة نذر أن يكون فيها مخلصًا لله، نافعًا لعباد الله، مبتسمًا للناس، قائمًا بحقوقهم، صابرًا على أذاهم؟ ولو كان يكسب من ورائها رزقه وقوت ولده فهذا في سبيل الله.

أو لا يكون من بيننا مَن يحب أن يقضي عمره مغتربًا في دعوة أو إصلاح

أو معروف لا يريد من ورائها رياءً ولا سُمْعة، قصده أن يأخذ بأيدي الشاردين إلى الحق، وأن يهدئ النفوس الثائرة حتى تلين، وأن يجمع شتات القلوب على الخير، وهو يدري أن الأبوين جابا فجاج الأرض شرقًا وغربًا، وكانت كلها لهم وطنًا؟!

أو لا يكون من بيننا مَن حلمه أن يُعَمَّر طويلًا ممتَّعًا بقواه حتى يرى فرج الله وفتحه للمستضعفين، وهو يعلم أن آدم وحواء عاشا مئات السنين، و«**خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»؟!

أو لا يكون من بيننا مَن حلمه أن ينسأ اللهُ في أَثَرِه ويوسِّع في رزقه، لا استكثارًا للأرصدة، بل يكون ممن آتاه الله مالًا فقال فيه هكذا وهكذا وهكذا، من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، وأنجز فيه مشاريع البر والصدقة والإحسان؟

أو لا يكون من بيننا مَن حلمه أن يبقى ليُلهم الأجيال خلاصة تجربة حية، ويتحدَّث بالحكمة والبصيرة من عبر الأيام، ليكون ممن دعا إلى هدى أو حذَّر من ردى، وليحمي غيره من تكرار تجارب منقوصة أو فاشلة، ويصنع بذلك التراكم المعرفي والحياتي؟

أو لا يكون من بيننا مَن يسجد ويقنت فيكون بكاؤه ودعاؤه التماسًا لنهضة الأمة أو بعض شعوبها ويقظتها من سُباتها الطويل؟ ولن تكون الدموع ولا الخشوع وسيلة للنجاح ما لم تتحول إلى إرادة صادقة مخلصة وعمل جاد دؤوب لا يعرف اليأس.

أو لا يكون من بيننا مَن يتجاوز خياله الإيجابي حدود الواقع البائس إلى مستقبل مليء بالبشريات؟ وحين يقول إنه يحلم أن يرى الأرض المحتلة وبيت المقدس وقد عادت لأصحابها وتخلَّصت من قبضة الطُّغاة الظالمين،

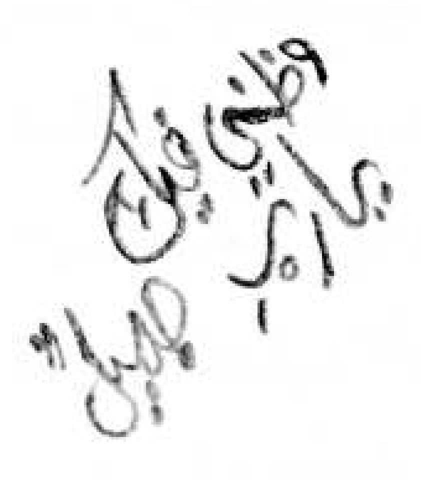
فهو لا يخادع نفسه ولا يتمنَّى الأماني، ولكنه يتكئ على الثقة بوعد الله.

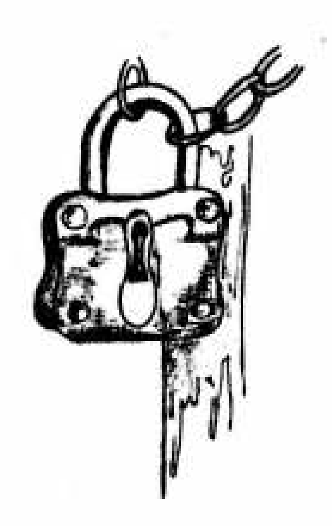
أو لا يكون من بيننا مَن حلمه ألَّا يغادر الحياة قبل أن يترك بصمة صادقة يُذكر بها فيُشكر ويُدعى له؟ «**صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ**»، أليس جديرًا أن نتأسَّى بالمعلِّم الأول آدم، وأن ندعو له على ما ورث وألهم؟!

صلى الله على آدم وعلى ذريته من النبيِّين والمرسلين والشهداء والصِّدِّيقين والصالحين.

وصلى الله على سيِّد ولد آدم الذي قال قبل أن يموت بثلاثة أيام: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**»[٢٢٦].

OOOO





قبل الختام

لم تنتهِ الحكاية بعد..

فصلها الأخير في الجنة.. بإذن الله..